

تفسير سورة المائدة وهي مدنية

قال الإمام أحمد ^(١): حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو معاوية شيبان عن ليث، عن شهر بن حوشب، عن أسماء بنت يزيد، قالت: إني لأخذة بزمام العضباء ناقة رسول الله ﷺ إذ نزلت عليه المائدة كلها وكادت من ثقلها تدق عضد الناقة.

وروى ابن مردويه من حديث صالح بن سهيل، عن عاصم الأحول، قال: حدثتني أم عمرو عن عمها أنه كان في مسير مع رسول الله ﷺ فنزلت عليه سورة المائدة، فاندق عنق الراحلة من ثقلها.

وقال أحمد أيضًا ^(٢): حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، قال: أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته، فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها، تفرد به أحمد.

وقد روى الترمذي ^(٣) عن قتيبة، عن عبد الله بن وهب، عن حبي، عن أبي عبد الرحمن، عن عبد الله بن عمرو، قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة والفتح، ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب حسن، وقد روى عن ابن عباس ^(٤) أنه قال: آخر سورة أنزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر]: [١].

وقد روى الحاكم في مستدركه من طريق عبد الله بن وهب بإسناده نحو رواية الترمذي، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

وقال الحاكم ^(٥) أيضًا: حدثنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا بحر بن نصر، قال: قرئ على عبد الله بن وهب، أخبرني معاوية بن صالح عن أبي الزاهرية، عن جبير بن نفيير، قال: حججت فدخلت على عائشة فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة؟ فقلت: نعم، فقالت: أما إنها آخر سورة نزلت، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه، ثم قال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أحمد ^(٦) عن عبد الرحمن بن مهدي، عن معاوية بن صالح، وزاد: وسألته عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: القرآن. ورواه النسائي ^(٧) من حديث ابن مهدي.

نصف

الحزب

١١

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يُحِلُّوا سَعَتَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا ءَامِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَمَنْ لَمْ يَرْوُكُمْ وَإِنَّا لَمَّا كُنَّا

(١) المسند (٣٧٠٢٨) وفيه ليث بن أبي سليم: صدوق اختلط جدًا ولم يتميز حديثه فترك، يرويه عن شهر بن حوشب وهو صدوق كثير الإرسال والأوهام.

(٢) المسند (٦٦٠٥) في إسناده ابن لهيعة: اختلط بأخوه، وحبي بن عبد الله: فيه نظر.

(٣) ضعيف: الترمذي (٣٠٦٣).

(٤) مسلم برقم (٣٠٣٤).

(٥) المستدرک (٣٤٠/٢) (٣٢١٠)، وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٦) صحيح: المسند (٢٥٠٢٠)، وانظر مشكاة المصابيح (١٥٢٧).

(٧) صحيح: النسائي في الكبرى (٣٣٣/٦) (١١١٣٨)، وانظر أيضًا مشكاة المصابيح (١٥٢٧).

فَأَصْحَابُهَا الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَهُمْ كَارِهِونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَانُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٠٥﴾

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا مسعر، حدثني معن وعوف، أو أحدهما، أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود، فقال: اعهد إلي، فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأرעה سمعك، فإنه خير يأمر به أو شر ينهى عنه. وقال: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم، حدثنا الوليد، حدثنا الأوزاعي عن الزهري، قال: إذا قال الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ افعلوا، فالنبي ﷺ منهم، وحدثنا أحمد بن سنان، حدثنا محمد بن عبيد، حدثنا الأعمش عن خيشمة قال: كل شيء في القرآن ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فهو في التوراة يا أيها المساكين. فأما ما رواه عن زيد بن إسماعيل الصائغ البغدادي، حدثنا معاوية يعني ابن هشام، عن عيسى بن راشد، عن علي بن بذيمة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: ما في القرآن آية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلا أن عليًا سيدها وشريفها وأميرها، وما من أصحاب النبي ﷺ أحد إلا قد عوتب في القرآن إلا علي بن أبي طالب، فإنه لم يعاتب في شيء منه، فهو أثر غريب، ولفظه فيه نكارة وفي إسناده نظر.

وقال البخاري: عيسى بن راشد هذا مجهول، وخبره منكر، قلت: وعلى بن بذيمة وإن كان ثقة إلا أنه شيعي غال، وخبره في مثل هذا فيه تهمة فلا يقبل، وقوله: ولم يبق أحد من الصحابة إلا عوتب في القرآن إلا عليًا، إنما يشير به إلى الآية الآمرة بالصدقة بين يدي النجوى، فإنه قد ذكر غير واحد أنه لم يعمل بها أحد إلا علي، ونزل قوله ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ جُنُودِكُمْ صَدَقَاتٍ فإِذ لَر تَقَعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ الآية [المجادلة: 13]، وفي كون هذا عتابًا نظر، فإنه قد قيل: إن الأمر كان ندبًا لا إيجابًا، ثم قد نسخ ذلك عنهم قبل الفعل، فلم ير من أحد منهم خلافه، وقوله: عن علي إنه لم يعاتب في شيء من القرآن فيه نظر أيضًا، فإن الآية التي في الأنفال التي فيها المعاتبة على أخذ الفداء، عمت جميع من أشار بأخذه ولم يسلم منها إلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فعلم بهذا وبما تقدم ضعف هذا الأثر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى، حدثنا عبد الله بن صالح، حدثنا الليث، حدثني يونس قال: قال محمد بن مسلم: قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لعمر بن حزم حين بعثه إلى نجران، وكان الكتاب عند أبي بكر بن حزم فيه «هذا بيان من الله ورسوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْمُعْوَدِ﴾ فكتب الآيات منها حتى بلغ ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [المائدة: 4].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا محمد بن إسحاق، حدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه، قال: هذا كتاب رسول الله ﷺ عندنا الذي كتبه لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن يفقه أهلها ويعلمهم السنة، ويأخذ صدقاتهم، فكتب له كتابًا وعهدًا، وأمره فيه بأمره، فكتب «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله ورسوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْمُعْوَدِ﴾ عهد من محمد رسول الله ﷺ لعمر بن حزم حين بعثه إلى اليمن، أمره بتقوى الله

في أمره كله، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون».

قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: يعني بالعقود العهود، وحكى ابن جرير الإجماع على ذلك، قال: والعهود ما كانوا يتعاهدون عليه من الحلف وغيره. وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ يعني بالعهود، يعني ما أحل الله وما حرم وما فرض وما حد في القرآن كله، ولا تغدروا ولا تنكثوا، ثم شدد في ذلك فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّقُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِمْ أَنْ يُوصَلُوا إِلَى قَوْلِهِ ﴿سَوْءَ الذَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥] وقال الضحاك: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: ما أحل الله وحرم، وما أخذ الله من الميثاق على من أقر بالإيمان بالنبي والكتاب أن يوفوا بما أخذ الله عليهم من الفرائض من الحلال والحرام. وقال زيد بن أسلم ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: هي ستة: عهد الله، وعقد الحلف، وعقد الشركة، وعقد البيع، وعقد النكاح وعقد اليمين. وقال محمد بن كعب: هي خمسة منها حلف الجاهلية، وشركة المفاوضة. وقد استدل بعض من ذهب إلى أنه لا خيار في مجلس البيع بهذه الآية ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ قال: فهذا يدل على لزوم العقد وثبوته فيقتضى نفى خيار المجلس، وهذا مذهب أبي حنيفة ومالك، وخالفهما في ذلك الشافعي وأحمد بن حنبل والجمهور، والحجة في ذلك ما ثبت في الصحيحين^(١) عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا» وفي لفظ آخر للبخاري^(٢) «إذا تباع الرجلان فكل واحد منهما بالخيار ما لم يتفرقا» وهذا صريح في إثبات خيار المجلس المتعقب لعقد البيع، وليس هذا منافيا للزوم العقد، بل هو من مقتضياته شرعا، فالتزامه من تمام الوفاء بالعقود.

وقوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُمْ بَيْعَةُ الْأَنْعَامِ﴾ هي الإبل والبقر والغنم، قاله حسن وقتادة وغير واحد، قال ابن جرير: وكذلك هو عند العرب، وقد استدل ابن عمر وابن عباس وغير واحد بهذه الآية على إباحة الجنين إذا وجد ميتا في بطن أمه إذا ذبحت، وقد ورد في ذلك حديث في السنن رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه^(٣) من طريق مجالد عن أبي الوداك جبر بن نوف، عن أبي سعيد قال: قلنا: يا رسول الله ننحر الناقة ونذبح البقرة أو الشاة في بطنها الجنين، أنلقه أم ناكله؟ فقال «كلوه إن شئتم فإن ذكاته ذكاة أمه» وقال الترمذي: حديث حسن، قال أبو داود^(٤): حدثنا محمد بن يحيى بن فارس، حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا عتاب بن بشير، حدثنا عبيد الله بن أبي زياد القداح المكي عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله ﷺ، قال «ذكاة الجنين ذكاة أمه» تفرد به أبو داود.

وقوله ﴿إِلَّا مَا يَتَلَّ عَلَىٰكُمْ﴾ قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني بذلك الميتة والدم ولحم الخنزير، وقال قتادة: يعني بذلك الميتة وما لم يذكر اسم الله عليه. والظاهر - والله أعلم - أن المراد بذلك قوله ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْسِنَتُهُ وَدُمُّهُ وَلَحْمُ خَنزِيرٍ وَمَا أِهْلُ لُغْمِ اللَّهِ بِهِ وَالْمَنْخَفَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّوَلِجَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ﴾ [المائدة: ٣] فإن هذه وإن كانت من الأنعام إلا أنها تحرم بهذه العوارض، ولهذا

(١) البخاري برقم (٢١٠٩) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، ومسلم برقم (١٥٣١).

(٢) البخاري برقم (٢١١٢).

(٣) صحيح: أبو داود (٢٨٢٧)، والترمذي (١٤٧٦)، وابن ماجه (٣١٩٩)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٤) صحيح: أبو داود (٢٧٢٨)، انظر صحيح سنن أبي داود.

من الأجر مثل أجزور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ولهذا لما حج رسول الله ﷺ، بات بذى الحليفة وهو وادى العقيق، فلما أصبح طاف على نسائه وكن تسعاً، ثم اغتسل وتطيب وصلى ركعتين، ثم أشعر هديه وقلده، وأهل بالحج والعمرة، وكان هديه إبلا كثيرة تنيف على الستين من أحسن الأشكال والألوان، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْطَمْ شَعْرَهُ اللَّهُ فَأِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: 32] وقال بعض السلف إعظامها استحسانها واستسمانها، وقال علي بن أبي طالب: أمرنا رسول الله ﷺ أن نستشرف العين والأذن، رواه أهل السنن^(١).

وقال مقاتل بن حيان: قوله ﴿وَلَا الْقَلْبِدَ﴾ فلا تستحلوه وكان أهل الجاهلية إذا خرجوا من أوطانهم في غير الأشهر الحرم، قلدوا أنفسهم بالشعر والوبر وتقلد مشركو الحرم من لحاء شجره فيأمنون به، رواه ابن أبي حاتم ثم قال: حدثنا محمد بن عمار، حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد بن العوام عن سفیان بن حسين، عن الحكم، عن مجاهد، عن ابن عباس رضی الله عنهما، قال: نسخ من هذه السورة آياتن آية القلائد وقوله ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ [المائدة: 42] وحدثنا المنذر بن شاذان حدثنا زكريا بن عدی حدثنا محمد بن أبي عدی عن ابن عوف قال: قلت للحسن: نسخ من المائدة شيء؟ قال لا. وقال عطاء: كانوا يتقلدون من شجر الحرم فيأمنون فنهى الله عن قطع شجره وكذا قال مطرف بن عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا ءَاتِيَنَّ الْكُرَامَ يَنْتَوُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ أى ولا تستحلوا قتال القاصدين إلى بيت الله الحرام الذى من دخله كان آمناً وكذا من قصده طالباً فضل الله وراغباً فى رضوانه فلا تصدوه ولا تمنعوه ولا تهيجوه. قال مجاهد وعطاء وأبو العالية ومطرف بن عبد الله وعبد الله بن عبيد بن عمير والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقنادة وغير واحد فى قوله ﴿يَنْتَوُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ﴾ يعنى بذلك التجارة، وهذا كما تقدم فى قوله ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [البقرة: 198].

وقوله ﴿وَرِضْوَانًا﴾ قال ابن عباس: يترضون الله بحجهم وقد ذكر عكرمة والسدى وابن جرير أن هذه الآية نزلت فى الحطيم بن هند البكرى كان قد أغار على سرح المدينة فلما كان من العام المقبل اعتمر إلى البيت فأراد بعض الصحابة أن يعترضوا فى طريقه إلى البيت فأنزل الله عز وجل ﴿وَلَا ءَاتِيَنَّ الْبَيْتَ الْكُرَامَ يَنْتَوُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا﴾.

وقد حكى ابن جرير الإجماع على أن المشرك يجوز قتله إذا لم يكن له أمان وإن أم البيت الحرام أو بيت المقدس فإن هذا الحكم منسوخ فى حقهم، والله أعلم، فأما من قصده بالإلحاد فيه والشرك عنده والكفر به فهذا يمنع، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِمَّا الشَّرْكَوتَ يَحْسَبُونَ فَلَا يَقْرَأُوا الْمَسْجِدَ الْكُرَامَ بَعْدَ عَابِهِمْ هَكَذَا﴾ [التوبة: 28] ولهذا بعث رسول الله ﷺ عام تسع لما أمر الصديق على

(١) حسن صحيح: الترمذي برقم (١٤٩٨)، والنسائي (٤٣٧٦)، وابن ماجه (٣١٤٣)، وأحمد (٧٣٤)، والدارمي (١٩٥١)، وانظر صحيح جامع الترمذي.

(٢) البخاري برقم (٣٦٩)، ومسلم برقم (٣١٤٧)، وأبو داود برقم (١٩٤٦)، والنسائي برقم (٢٩٥٧)، وأحمد برقم (٧٩١٧)، والدارمي برقم (١٤٣٠)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحجيج علياً وأمره أن ينادى على سبيل النياية عن رسول الله ﷺ ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفن بالبيت عريان، وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس قوله ﴿وَلَا ءَايِينَ أَلْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ يعني من توجه قِبَل البيت الحرام فكان المؤمنون والمشركون يحجون البيت الحرام فهوى الله المؤمنين أن يمنعوا أحداً يحج البيت أو يعرضوا له من مؤمن أو كافر ثم أنزل الله بعدها ﴿إِنَّمَا الشُّرُكُوتُ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَائِمِهِمْ هَكَذَا﴾ الآية [التوبة: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٧] وقال ﴿إِنَّمَا يَمْشُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [التوبة: ١٨] نفى المشركين من المسجد الحرام.

وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن قتادة في قوله ﴿وَلَا أَلْتَمِدْ وَلَا ءَايِينَ أَلْبَيْتِ الْحَرَامِ﴾ قال: منسوخ، كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من الشجر فلم يعرض له أحد، فإذا رجع تقلد قلادة من شعر فلم يعرض له أحد، وكان المشرك يومئذ لا يصد عن البيت، فأمروا أن لا يقتتلوا في الشهر الحرام ولا عند البيت فنسخها قوله ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَجَدْتُ النَّبِيَّ سَبْعًا مَلْفًا﴾ [التوبة: ٥] وقد اختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿وَلَا أَلْتَمِدْ﴾ يعني إن تقلدوا قلادة من الحرم فأمتروهم، قال ولم تزل العرب تعبر من أخفر ذلك، قال الشاعر:

الم تقتلا الحرجين إذ أعورا لكم يمران بالأيدى اللحاء المضفرا
وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾ أى إذا فرغتم من إحرامكم وأحللتكم منه فقد أبحننا لكم ما كان محرماً عليكم فى حال الإحرام من الصيد وهذا أمر بعد الحظر والصحيح الذى يثبت على السير، أنه يرد الحكم إلى ما كان عليه قبل النهى، فإن كان واجباً رده واجباً وإن كان مستحباً فمستحب أو مباحاً فمباح، ومن قال إنه على الوجوب ينتقض عليه بآيات كثيرة، ومن قال إنه للإباحة يرد عليه آيات أخرى، والذى ينتظم الأدلة كلها هذا الذى ذكرناه، كما اختاره بعض علماء الأصول، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢] ومن القراء من قرأ ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الألف من أن، ومعناها ظاهر أى لا يحملنكم بغض قوم قد كانوا صدوكم عن الوصول إلى المسجد الحرام وذلك عام الحديبية على أن تعتدوا حكم الله فيكم، فتقتصوا منهم ظلماً وعدواناً بل احكموا بما أمركم الله به من العدل فى حق كل أحد، وهذه الآية كما سيأتى من قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨] أى لا يحملنكم بغض أقوام على ترك العدل فإن العدل واجب على كل أحد فى كل حال، وقال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه. والعدل به قامت السموات والأرض.

وقال ابن أبى حاتم^(١): حدثنا أبى، حدثنا سهل بن عفان، حدثنا عبد الله بن جعفر، عن زيد بن أسلم قال: كان رسول الله ﷺ بأصحابه حين صدهم المشركون عن البيت وقد اشتد ذلك عليهم فمر بهم أناس من المشركين من أهل المشرق يريدون العمرة فقال أصحاب النبي ﷺ: نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم فأنزل الله هذه الآية، والشناَن هو البغض قاله ابن عباس وغيره وهو مصدر من شناته أشنؤه شناً بالتحريك، مثل قولهم جمزان ودرجان ورفلان من جمز ودرج ورفل. قال ابن جرير: من

(١) ضعيف: عزاه المصنف لابن أبى حاتم، وإسناده مرسل، وفيه عبد الله بن جعفر المدني: ضعيف.

العرب من يسقط التحريك في شتآن فيقول شتان ولم أعلم أحدًا قرأ بها. ومنه قول الشاعر:

وما العيش إلا ما تحب وتشتهى وإن لام فيه ذو الشنان وفندا

وقوله تعالى: ﴿وَتَمَآوَأُوا عَلَى آلِهِ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَمَآوَأُوا عَلَى الْإِنِّيرِ وَالتَّمَدُّونَ﴾ يأمر تعالى عباده المؤمنين

بالمعاونة على فعل الخيرات وهو البر، وترك المنكرات وهو التقوى وينهاهم عن التناصر على الباطل والتعاون على المآثم والمحارم، قال ابن جرير: الإثم ترك ما أمر الله بفعله والعدوان مجاوزة ما حد الله في دينكم ومجاوزة ما فرض الله عليكم في أنفسكم وفي غيركم، وقد قال الإمام أحمد^(١):

حدثنا هشيم، حدثنا عبيد الله بن أبي بكر بن أنس عن جده أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً فكيف أنصره إذا كان ظالماً؟ قال «تحجزه وتمنعه فإن ذلك نصره» انفرد به البخاري^(٢) من حديث هشيم به نحوه، وأخرجاه^(٣) من طريق ثابت عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً» قيل: يا رسول الله هذا نصرته مظلوماً، فكيف أنصره ظالماً؟ قال «تمنعه من الظلم فذاك نصرك إياه» وقال الإمام أحمد^(٤):

حدثنا يزيد، حدثنا سفيان بن سعيد، عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ قال «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم أعظم أجراً من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم» وقد رواه أحمد^(٥) أيضاً في مسند عبد الله بن عمر، حدثنا حجاج، حدثنا شعبة عن الأعمش، عن يحيى بن وثاب، عن شيخ من أصحاب النبي ﷺ أنه - أي: النبي ﷺ - قال: «المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم» وهكذا رواه الترمذي^(٦) من حديث شعبة وابن ماجه^(٧) من طريق إسحاق بن يوسف كلاهما عن الأعمش به.

وقال الحافظ أبو بكر البزار^(٨): حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن محمد أبو شيبة الكوفي، حدثنا بكر بن عبد الرحمن، حدثنا عيسى بن المختار عن ابن أبي ليلى، عن فضيل بن عمرو، عن أبي وائل، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «الدال على الخير كفاعله» ثم قال: لا نعلمه يروى إلا بهذا الإسناد، قلت: وله شاهد في الصحيح^(٩) «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه إلى يوم القيامة لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً» وقال أبو القاسم الطبراني^(١٠): حدثنا عمرو بن إسحاق بن إبراهيم بن العلاء بن زبير بن الحمصى، حدثنا أبي، حدثنا عمرو بن الحارث عن

(١) صحيح: أحمد برقم (١١٥٣٨)، انظر صحيح الجامع الصغير.

(٢) البخاري برقم (٦٩٥٢)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) لم أرف عليه من طريق ثابت عن أنس في الصحيحين.

(٤) صحيح: أحمد (٢٢٥٨٨)، وانظر صحيح الجامع الصغير (٦٦٥١).

(٥) صحيح: أحمد (٥٠٠٢)، انظر السلسلة الصحيحة (٩٣٩).

(٦) صحيح: الترمذي (٢٥٠٧)، انظر صحيح جامع الترمذي.

(٧) صحيح: ابن ماجه (٤٠٣٢)، انظر صحيح ابن ماجه.

(٨) صحيح: رواه البزار (١٥٠/٥)، (١٧٤٢)، وانظر السلسلة الصحيحة (١٦٦٠).

(٩) مسلم برقم (٢٦٧٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٠) ضعيف: المعجم الكبير (٢٢٧/١)، (٦١٩)، انظر السلسلة الضعيفة (٥٣٦٧).

عبد الله بن سالم عن الزبيدي قال عباس بن يونس: إن أبا الحسن نمران بن مخمر، حدثه أن رسول الله ﷺ قال «من مشى مع ظالم ليعينه وهو يعلم أنه ظالم فقد خرج من الإسلام» .

﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّيْتَةٌ وَالِدٌ وَمَا أُهْلٌ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَةُ وَالْمَوْفُوذَةُ وَالْمُرْدِيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصَبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكَ فَنسَى أَلْيَوْمَ يَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾﴾

يخبر تعالى عباده خبراً متضمناً النهى عن تعاطى هذه المحرمات من الميتة، وهى ما مات من الحيوانات حتف أنفه من غير ذكاة ولا اصطياد، وما ذاك إلا لما فيها من المضرة لما فيها من الدم المحتقن فهى ضارة للدين والبدن، فلهذا حرمها الله عز وجل، ويستثنى من الميتة السمك، فإنه حلال سواء مات بتذكية أو غيرها، لما رواه مالك فى موطنه، والشافعى وأحمد فى مسنديهما، وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه فى سننهم، وابن خزيمة وابن حبان فى صحيحيهما عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن ماء البحر، فقال «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»^(١)، وهكذا الجراد، لما سئلت من الحديث وقوله: ﴿وَالدَّمُ﴾ يعنى به المسفوح؛ لقوله ﴿أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ [الأنعام: ١٤٥] قاله ابن عباس وسعيد بن جبیر .

قال ابن أبى حاتم: حدثنا كثير بن شهاب المذحجى، حدثنا محمد بن سعيد بن سابق، حدثنا عمرو يعنى ابن قيس عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه سئل عن الطحال فقال: كلوه، فقالوا: إنه دم، فقال: إنما حرم عليكم الدم المسفوح. وكذا رواه حماد بن سلمة عن يحيى بن سعيد، عن القاسم عن عائشة، قالت: إنما نهى عن الدم السافح، وقد قال أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعى^(٢): حدثنا عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه، عن ابن عمر مرفوعاً، قال: قال رسول الله ﷺ «أحل لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان، فالحوت والجراد، وأما الدمان فالكبد والطحال»، وكذا رواه أحمد بن حنبل وابن ماجه والدارقطنى والبيهقى^(٣) من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وهو ضعيف، قال الحافظ البيهقى: ورواه إسماعيل بن أبى إدريس عن أسامة، وعبد الله وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن ابن عمر مرفوعاً، قلت: وثلاثهم كلهم ضعفاء، ولكن بعضهم أصلح من بعض، وقد رواه سليمان بن بلال أحد الأثبات عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر فوقفه بعضهم عليه، قال

(١) صحيح: أبو داود برقم (٨٣)، الترمذى برقم (٦٩)، النسائى برقم (٣٣٢)، ابن ماجه برقم (٣٨٦)، أحمد (٨٥١٨)، مالك (٤٣)، الشافعى (٧/١)، وابن خزيمة (٥٩/١)، (١١١) بلفظ: «هو الطهور ماؤه الحلال ميتته»، وابن حبان فى صحيحه (٤٩/٤) (١٢٤٣)، وانظر صحيح الجامع (٧٠٤٨).

(٢) صحيح: الشافعى فى الأم (٢٣٣/٢)، وانظر الإرواء (٢٥٢٦).

(٣) صحيح: أحمد (٥٦٩٠)، وابن ماجه (٣٣١٤)، والدارقطنى (٤/٢٧١-٢٧٢)، برقم (٢٥)، والبيهقى (٩/٢٥٧)، (١٨٧٧٦)، انظر السلسلة الصحيحة (١١٨).

الحافظ أبو زرعة الرازي: وهو أصح، وقال ابن أبي حاتم^(١): حدثنا علي بن الحسين، حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبي الشوارب، حدثنا بشير بن سريج عن أبي غالب، عن أبي أمامة وهو صدى بن عجلان، قال: بعثنى رسول الله ﷺ إلى قومي أَدْعُوهُمْ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وأعرض عليهم شرائع الإسلام، فأنتيتهم فيينا نحن كذلك، إذ جاءوا بقصعة من دم فاجتمعوا عليها يأكلونها فقالوا: هلم يا صدى فكل، قال: قلت: ويحكم إنما أتيتكم من عند من يحرم هذا عليكم وأنزل الله عليه. فأقبلوا عليه، قالوا: وماذا؟ قال: فتلوت عليهم هذه الآية ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ الآية. ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه^(٢) من حديث ابن أبي الشوارب بإسناده مثله، وزاد بعده هذا السياق قال: فجعلت أَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَيَأْبُونَ عَلَيَّ، فقلت لهم: ويحكم اسقوني شربة من ماء، فإنني شديد العطش، قال: وعلئ عبايتي، فقالوا: لا، ولكن ندعك حتى تموت عطشاً، قال: فاغتممت وضربت برأسي في العباء، ونمت على الرمضاء في حر شديد، قال: فأتاني آت في منامي بقدرح من زجاج لم ير الناس أحسن منه، وفيه شراب لم ير الناس أذم منه، فأمكنني منها فشربتها، فلما فرغت من شرابي استيقظت فلا والله ما عطشت، ولا عريت بعد تيك الشربة. ورواه الحاكم في مستدركه^(٣) عن علي بن حُمَاشاز، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، حدثني عبد الله بن سلمة بن عياش العامري، حدثنا صدقة بن هرم عن أبي غالب، عن أبي أمامة فذكر نحوه، وزاد بعد قوله: بعد تيك الشربة، فسمعتهم يقولون: أتاكم رجل من سراة قومكم فلم تمجعه بمذقة، فأتوني بمذقة فقلت: لا حاجة لي فيها، إن الله أطعمني وسقاني، وأريتهم بطني، فأسلموا عن آخرهم، وما أحسن ما أنشد الأعشى في قصيدته التي ذكرها ابن إسحاق:

وإياك والميتات لا تقربينها ولا تأخذن عظمًا حديدًا فتفصدا

أي لا تفعل فعل الجاهلية، وذلك أن أحدهم كان إذا جاع أخذ شيئًا محددًا من عظم ونحوه، فيفصد به بعيه أو حيوانًا من أي صنف كان، فيجمع ما يخرج منه من الدم فيشره، ولهذا حرم الله الدم على هذه الأمة، ثم قال الأعشى:

وذا النصب المنصوب لا تأتينه ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

وقوله: ﴿وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ﴾ يعني إنسيه ووحشيه، واللحم يعم جميع أجزائه حتى الشحم، ولا يحتاج إلى تحذلق الظاهرية في جمودهم ههنا، وتعسفهم في الاحتجاج بقوله: ﴿فَأَنَّهُمْ رِيحٌ أَوْ رِيقٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] يعنون قوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِيحٌ﴾ [الأنعام: ١٤٥] أعادوا الضمير فيما فهموه على الخنزير حتى يعم جميع أجزائه، وهذا بعيد من حيث اللغة، فإنه لا يعود الضمير إلا إلى المضاف دون المضاف إليه، والأظهر أن اللحم يعم جميع الأجزاء كما هو المفهوم من لغة العرب، ومن العرف المطرد، وفي صحيح مسلم^(٤) عن بريدة بن الحصيب

(١) ضعيف: عزاه السيوطي في «الدر المشور» (١٣/٣) لابن أبي حاتم، ومداره على أبي غالب: صدوق يخطئ.

(٢) ضعيف: عزاه المصنف لابن مرويه بإسناد مماثل لما سبق، وهو ضعيف.

(٣) صحيح: الحاكم في المستدرک (٣/٧٤٤)، (٦٧٠٥)، انظر السلسلة الصحيحة (٢٧٠٦).

(٤) مسلم (٢٢٦٠).

الأسلمى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «من لعب بالنردشير، فكأنما صبغ يده فى لحم الخنزير ودمه» فإذا كان هذا التنفير لمجرد اللمس، فكيف يكون التهديد والوعيد الأكيد على أكله والتغذى به، وفيه دلالة على شمول اللحم لجميع الأجزاء من الشحم وغيره. وفى الصحيحين^(١) أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله حرم بيع الخمر والميتة والخنزير والأصنام» فقيل: يا رسول الله أرأيت شحوم الميتة فإنها تطلى بها السفن وتدهن بها الجلود ويستصبح بها الناس؟ فقال «لا، هو حرام». وفى صحيح البخارى^(٢) من حديث أبى سفيان أنه قال لهرقل ملك الروم: نهانا عن الميتة والدم.

وقوله ﴿وَمَا أَهْلٌ لِّبَيْتِ اللَّهِ بِدِينِهِ﴾ أى ما ذبح فذكر عليه اسم غير الله فهو حرام لأن الله تعالى أوجب أن تذبح مخلوقاته على اسمه العظيم، فمتى عدل بها عن ذلك وذكر عليها اسم غيره من صنم أو طاغوت أو وثن أو غير ذلك من سائر المخلوقات فإنها حرام بالإجماع. وإنما اختلف العلماء فى متروك التسمية إما عمداً أو نسياناً كما سيأتى تقريره فى سورة الأنعام. وقد قال ابن أبى حاتم^(٣) حدثنا على بن الحسن الهسنبجاني حدثنا نعيم بن حماد حدثنا ابن فضيل عن الوليد بن جميع عن أبى الطفيل قال: نزل آدم بتحريم أربع: «الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به»، وإن هذه الأربعة أشياء لم تحل قط، ولم تنزل حراماً منذ خلق الله السموات والأرض، فلما كانت بنو إسرائيل حرم الله عليهم طيبات أحلت لهم بذنوبهم، فلما بعث الله عيسى ابن مريم عليه السلام نزل بالأمر الأول الذى جاء به آدم وأحل لهم ما سوى ذلك، فكذبوه وعصوه، وهذا أثر غريب، وقال ابن أبى حاتم أيضاً^(٤): حدثنا أبى، حدثنا أحمد بن يونس، حدثنا ربيع بن عبد الله، قال: سمعت الجارود بن أبى سيرة، قال: هو جدى، قال: كان رجل من بنى رياح يقال له ابن وثيل، وكان شاعراً، نافر غالباً أبا الفرزدق بماء بظهر الكوفة على أن يعقر هذا مائة من إبله وهذا مائة من إبله إذا وردت الماء، فلما وردت الماء قاما إليها بالسيوف فجعلوا يكسفان عراقبيها، قال: فخرج الناس على الحمرات والبغال يريدون اللحم، قال: وعلى بالكوفة، قال: فخرج على على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء وهو ينادى: يا أيها الناس لا تأكلوا من لحومها، فإنها أهل بها لغير الله، هذا أثر غريب، ويشهد له بالصحة ما رواه أبو داود^(٥): حدثنا هارون بن عبد الله، ثنا حماد بن مسعدة عن عوف، عن أبى ريحانة، عن ابن عباس، قال: نهى رسول الله ﷺ عن معاقرة الأعراب، ثم قال أبو داود محمد بن جعفر هو غندر: أوقفه على ابن عباس، تفرد به أبو داود^(٦). وقال أبو داود أيضاً: حدثنا هارون بن زيد بن أبى الزرقاء، حدثنا أبى، حدثنا جرير بن حازم عن الزبير بن خريت، قال: سمعت عكرمة يقول: إن رسول الله ﷺ نهى عن طعام المتباريين أن يؤكل، ثم قال أبو داود: أكثر من رواه عن جرير لا يذكر فيه ابن عباس، تفرد به أيضاً.

(١) البخاري (٢٢٣٦)، مسلم (١٥٨١)، من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنهما.

(٢) لم أجده فى البخاري بهذا اللفظ.

(٣) ضعيف: فى سننه نعيم بن حماد وهو صدوق كثير الخطأ، ولا يعتمد عليه ولا يحتج بحديثه إذا انفرد ولا يوجد من تابعه.

(٤) حسن: عزاه المصنف لابن أبى حاتم بإسناده.

(٥) حسن صحيح: أبو داود (٢٨٢٠)، انظر صحيح سنن أبى داود.

(٦) صحيح: أبو داود (٣٧٥٤)، انظر صحيح سنن أبى داود.

وقوله: ﴿وَالْمُنْحَفَةَ﴾ وهى التى تموت بالخنق، إما قصداً وإما اتفاقاً بأن تتخبل فى وثاقها، فتموت به فهى حرام، وأما ﴿وَالْمَوْوَدَةَ﴾ فهى التى تضرب بشيء ثقيل غير محدد حتى تموت، كما قال ابن عباس وغير واحد: هى التى تضرب بالخشبة حتى توقن بها فتموت، وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يضربونها بالعصى حتى إذا ماتت أكلوها. وفى الصحيح^(١) أن عدى بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنى أرمى بالمعراض الصيد فأصيب، قال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بعرضه فإنما هو وقيد فلا تأكله» ففرق بين ما أصابه بالسهم أو بالمزراق ونحوه بحده، فأحله، وما أصابه بعرضه فجعله وقيداً فلم يحله، وقد أجمع الفقهاء على هذا الحكم هاهنا، واختلفوا فيما إذا صدم الجارحة الصيد فقتله بثقله، ولم يجرحه على قولين، هما قولان للشافعى رحمه الله:

(أحدهما): لا يحل كما فى السهم والجامع أن كلا منهما ميت بغير جرح فهو وقيد.

(والثانى): إنه يحل لأنه حكم بإباحة ما صاده الكلب ولم يستفصل، فدل على إباحة ما ذكرناه، لأنه قد دخل فى العموم، وقد قررت لهذه المسألة فصلاً فليكتب هاهنا.

(فصل): - اختلف العلماء رحمهم الله تعالى فيما إذا أرسل كلباً على صيد فقتله بثقله ولم يجرحه، أو صدمه: هل يحل أم لا؟ على قولين:

(أحدهما): أن ذلك حلال لعموم قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٤]، وكذا عمومات حديث عدى بن حاتم، وهذا قول حكاه الأصحاب عن الشافعى رحمه الله، وصححه بعض المتأخرين منهم كالنووى والرافعى.

(قلبت): وليس ذلك بظاهر من كلام الشافعى فى الأم والمختصر، فإنه قال فى كلا الموضعين: يحتمل معنيين، ثم وجه كلا منهما، فحمل ذلك الأصحاب منه، فأطلقوا فى المسألة قولين عنه، اللهم إلا أنه فى بحثه حكايته للقول بالحل رشحه قليلاً، ولم يصرح بواحد منهما، ولا جزم به، والقول بذلك - أعنى الحل - نقله ابن الصباغ عن أبى حنيفة من رواية الحسن بن زياد عنه، ولم يذكر غير ذلك. وأما أبو جعفر بن جرير فحكاه فى تفسيره عن سلمان الفارسى وأبى هريرة وسعد بن أبى وقاص وابن عمر، وهذا غريب جداً، وليس يوجد ذلك مصرحاً به عنهم، إلا أنه من تصرفه رحمه الله ورضى عنه.

(والقول الثانى): - أن ذلك لا يحل، وهو أحد القولين عن الشافعى رحمه الله، واختاره المزنى، ويظهر من كلام ابن الصباغ ترجيحه أيضاً، والله أعلم. ورواه أبو يوسف ومحمد عن أبى حنيفة، وهو المشهور عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه، وهذا القول أشبه بالصواب، والله أعلم، لأنه أجرى على القواعد الأصولية، وأمس بالأصول الشرعية، واحتج ابن الصباغ له بحديث رافع بن خديج، قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غداً، وليس معنا مدى، أفنذبح بالقبص؟ قال «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه» الحديث بتمامه، وهو فى الصحيحين^(٢). وهذا وإن كان وارداً على سبب خاص، فالعبرة بعموم اللفظ عند جمهور من العلماء فى الأصول والفروع، كما سئل عليه السلام عن

(١) البخارى برقم (٥٤٧٦)، مسلم برقم (١٩٢٩).

(٢) البخارى برقم (٢٤٨٨)، مسلم برقم (١٩٦٨).

البتع، وهو نبيذ العسل، فقال «كل شراب أسكر فهو حرام»^(١)، أفيقول فقيه: إن هذا اللفظ مخصوص بشراب العسل، وهكذا هذا سألوه عن شيء من الذكاة، فقال لهم كلاما عاما يشمل ذاك المستول عنه وغيره لأنه عليه السلام كان قد أوتى جوامع الكلم، إذا تقرر هذا، فما صدمه الكلب أو غمه بثقله ليس مما أنهر دمه، فلا يحل لمفهوم هذا الحديث، فإن قيل: هذا الحديث ليس من هذا القبيل بشيء، لأنهم إنما سألوه عن الآلة التي يذكي بها، ولم يسألوه عن الشيء الذي يذكي، ولهذا استثنى من ذلك السن والظفر حيث قال: «ليس السن والظفر وسأحدثكم عن ذلك، أما السن فعظم وأما الظفر فمدى الحبشة»^(٢) والمستثنى يدل على جنس المستثنى منه، وإلا لم يكن متصلاً، فدل على أن المستول عنه هو الآلة، فلا يبقى فيه دلالة لما ذكرتم، فالجواب عن هذا بأن في الكلام ما يشكل عليكم أيضاً، حيث يقول «ما أنهر الدم وذكر اسم الله عليه فكلوه»، ولم يقل: فاذبحوا به، فهذا يؤخذ منه الحكمان معاً، يؤخذ حكم الآلة التي يذكي بها، وحكم المذكي وأنه لا بد من إنهار دمه بألة ليست سناً ولا ظفراً، هذا مسلك.

(والمسلك الثاني): طريقة المزني، وهي أن السهم جاء التصريح فيه بأنه إن قتل بعرضه فلا تأكل، وإن خزق فكل، والكلب جاء مطلقاً، فيحمل على ما قيد هناك من الخزق لأنهما اشتركا في الموجب وهو الصيد فيجب الحمل هنا وإن اختلف السبب كما وجب حمل مطلق الإعتاق في الظهار على تقيده بالإيمان في القتل، بل هذا أولى، وهذا يتوجه له على من يسلم له أصل هذه القاعدة من حيث هي، وليس فيها خلاف بين الأصحاب قاطبة، فلا بد لهم من جواب عن هذا، وله أن يقول: هذا قتله الكلب بثقله، فلم يحل قياساً على ما قتله السهم بعرضه، والجامع أن كلا منهما آلة للصيد، وقد مات بثقله فيهما، ولا يعارض ذلك بعموم الآية، لأن القياس مقدم على العموم، كما هو مذهب الأئمة الأربعة والجمهور، وهذا مسلك حسن أيضاً.

(مسلك آخر): - وهو أن قوله تعالى: ﴿كُلُّوا مِمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤] عام فيما قتلن بجرح أو غيره، لكن هذا المقتول على هذه الصورة المتنازع فيها لا يخلو إما أن يكون نطيحاً أو في حكمه، أو منخثاً أو في حكمه، وإياً ما كان، فيجب تقديم هذه الآية على تلك؛ لوجوه:

(أحدها): أن الشارع قد اعتبر حكم هذه الآية حالة الصيد حيث يقول لعدي بن حاتم: «وإن أصابه بعرضه، فإنما هو وقيد فلا تأكله» ولم نعلم أحداً من العلماء فصل بين حكم وحكم من هذه الآية، فقال: إن الوقيد معتبر حالة الصيد، والنطيح ليس معتبراً، فيكون القول بحل المتنازع فيه خرقاً للإجماع لا قائل به، وهو محظور عند كثير من العلماء.

(الثاني): أن تلك الآية ﴿كُلُّوا مِمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ [المائدة: ٤] ليست على عمومها بالإجماع بل مخصوصة بما صعدن من الحيوان المأكول، وخرج من عموم لفظها الحيوان غير المأكول بالاتفاق، والعموم المحفوظ مقدم على غير المحفوظ.

(١) البخاري برقم (٢٤٢)، مسلم برقم (٢٠٠١)، أبو داود (٣٦٨٢)، الترمذي (١٨٦٣)، النسائي (٥٥٩١)، ابن ماجه (٣٣٨٦)، أحمد (٢٣٥٦٢)، من حديث عائشة رضي الله عنها.
(٢) البخاري برقم (٢٤٨٨)، مسلم برقم (١٩٦٨)، من حديث رافع بن خديج رضي الله عنه.

(المسلك الآخر) : - أن هذا الصيد والحالة هذه في حكم الميتة سواء، لأنه قد احتقن فيه الدماء وما يتبعها من الرطوبات، فلا تحل قياسًا على الميتة.

(المسلك الآخر) : - أن آية التحريم، أعنى قوله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْيَتَهُ﴾ إلى آخرها، محكمة لم يدخلها نسخ ولا تخصيص وكذا ينبغي أن تكون آية التحليل محكمة، أعنى قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ أَلْيَتَهُ وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَيِّبِينَ﴾ الآية [المائدة: ٤]، فينبغي أن لا يكون بينهما تعارض أصلاً، وتكون السنة جاءت لبيان ذلك، وشاهد ذلك قصة السهم، فإنه ذكر حكم ما دخل في هذه الآية، وهو ما إذا خزقه المعراض فيكون حلالاً، لأنه من الطييات، وما دخل في حكم تلك الآية، آية التحريم، وهو ما إذا أصابه بعرض فلا يؤكل، لأنه وقيد، فيكون أحد أفراد آية التحريم، وهكذا يجب أن يكون حكم هذا سواء إن كان قد جرحه الكلب، فهو داخل في حكم آية التحليل، وإن لم يجرحه بل صدمه أو قتله بثقله، فهو نطيح أو في حكمه، فلا يكون حلالاً، فإن قيل: فلم لا فصل في حكم الكلب، فقال: ما ذكرت إن جرحه فهو حلال، وإن لم يجرحه فهو حرام.

فالجواب: أن ذلك نادر، لأن من شأن الكلب أن يقتل بظفره أو نابيه أو بهما معاً، وأما اصطدامه هو والصيد فنادر، وكذا قتله إياه بثقله، فلم يحتج إلى الاحتراز من ذلك لندوره أو لظهور حكمه عند من علم تحريم الميتة والمنخقة والموقوذة والمتردية والنطيحة. وأما السهم والمعراض فتارة يخطئ لسوء رمي راميته أو للهواء أو لنحو ذلك، بل خطؤه أكثر من إصابته، فلهذا ذكر كلا من حكميه مفصلاً، والله أعلم، ولهذا لما كان الكلب، من شأنه أنه قد يأكل من الصيد ذكر حكم ما إذا أكل من الصيد فقال «إن أكل فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه» وهذا صحيح ثابت في الصحيحين^(١)، وهو أيضاً مخصوص من عموم آية التحليل عند كثيرين، فقالوا: لا يحل ما أكل منه الكلب، حكى ذلك عن أبي هريرة وابن عباس، وبه قال الحسن والشعبي والنخعي، وإليه ذهب أبو حنيفة وصاحبه، وأحمد بن حنبل والشافعي في المشهور عنه، وروى ابن جرير في تفسيره عن علي وسعد وسلمان وأبي هريرة وابن عمر وابن عباس: إن الصيد يؤكل وإن أكل منه الكلب، حتى قال سعد وسلمان وأبو هريرة وابن عمر وغيرهم: يؤكل ولو لم يبق منه إلا بضعة. وإلى ذلك ذهب مالك والشافعي في قوله القديم، وأوماً في الجديد إلى قولين، قال ذلك الإمام أبو نصر بن الصباغ وغيره من الأصحاب عنه.

وقد روى أبو داود^(٢) بإسناد جيد قوى عن أبي ثعلبة الخشني عن رسول الله ﷺ أنه قال في صيد الكلب «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل، وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك» ورواه أيضاً النسائي^(٣) من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده: أن أعرابياً يقال له أبو ثعلبة قال: يا رسول الله، فذكر نحوه، وقال محمد بن جرير في تفسيره^(٤): حدثنا عمران بن بكار الكلاعي، حدثنا عبد العزيز بن موسى هو اللاحوني، حدثنا محمد بن دينار هو الطاحي عن أبي إياس وهو معاوية بن

(١) البخاري برقم (٥٤٨٧)، مسلم برقم (١٩٢٩)، من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) أبو داود (٢٨٥٢)، وضعفه الألباني في ضعيف سنن أبي داود.

(٣) حسن صحيح: النسائي برقم (٤٢٩٦)، انظر صحيح سنن النسائي.

(٤) صحيح موقوفاً: ابن جرير الطبري (٩٧/٦)، ورجاله ثقات.

قوة، عن سعيد بن المسيب، عن سلمان الفارسي، عن رسول الله ﷺ قال «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه، فليأكل ما بقي» ثم إن ابن جرير علله بأنه قد رواه قتادة وغيره عن سعيد بن المسيب، عن سلمان موقوفاً.

وأما الجمهور فقدّموا حديث عدى على ذلك، وراموا تضعيف حديث أبي ثعلبة وغيره، وقد حمله بعض العلماء على أنه إن أكل بعد ما انتظر صاحبه فطال عليه الفصل ولم يجىء، فأكل منه لجوعه ونحوه فإنه لا بأس بذلك، لأنه والحالة هذه لا يخشى أنه إنما أمسك على نفسه بخلاف ما إذا أكل منه أول وهلة، فإنه يظهر منه أنه أمسك على نفسه والله أعلم.

فأما الجوارح من الصيد فنص الشافعي على أنها كالكلب، فيحرم ما أكلت منه عند الجمهور، ولا يحرم عند الآخرين، واختار المزني من أصحابنا أنه لا يحرم أكل ما أكلت منه الطيور والجوارح، وهو مذهب أبي حنيفة وأحمد، قالوا: لأنه لا يمكن تعليمها كما يعلم الكلب بالضرب ونحوه، وأيضاً فإنها لا تعلم إلا بأكلها من الصيد فيعفى عن ذلك، وأيضاً فالنص إنما ورد في الكلب لا في الطير. وقال الشيخ أبو على في «الإفصاح»: إذا قلنا: يحرم ما أكل منه الكلب، ففي تحريم ما أكل منه الطير وجهان، وأنكر القاضي أبو الطيب هذا التفريع والترتيب لنص الشافعي رحمه الله، على التسوية بينهما، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وأما المتردّية: فهي التي تقع من شاهق أو موضع عال، فتموت بذلك، فلا تحل، قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: المتردّية التي تسقط من جبل. وقال قتادة: هي التي تتردى في بئر. وقال السدي: هي التي تقع من جبل أو تتردى في بئر.

وأما النطيحة: فهي التي ماتت بسبب نطح غيرها لها، فهي حرام وإن جرحها القرن وخرج منها الدم ولو من مذبحةا، والنطيحة فعيلة بمعنى مفعولة، أي منطوحة، وأكثر ما ترد هذه البنية في كلام العرب بدون تاء التانيث، فيقولون: عين كحيل، وكف خضيب، ولا يقولون: كف خضيبية، ولا عين كحيلية، وأما هذه فقال بعض النحاة: إنما استعمل فيها تاء التانيث، لأنها أجريت مجرى الأسماء كما في قولهم: طريقة طويلة، وقال بعضهم: إنما أتى بتاء التانيث فيها لتدل على التانيث من أول وهلة بخلاف عين كحيل وكف خضيب لأن التانيث مستفاد من أول الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَكَلِ السَّبْعُ﴾ أي ما عدا عليها أسد أو فهد أو نمر أو ذئب أو كلب، فأكل بعضها فماتت بذلك، فهي حرام وإن كان قد سال منها الدم ولو من مذبحةا، فلا تحل بالإجماع، وقد كان أهل الجاهلية يأكلون ما أفضل السبع من الشاة أو البعير أو البقرة أو نحو ذلك، فحرم الله ذلك على المؤمنين.

وقوله ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ عائد على ما يمكن عوده عليه مما انعقد سبب موته، فأمكن تداركه بذكاة وفيه حياة مستقرة، وذلك إنما يعود على قوله ﴿وَالْمُنْحَنَةَ وَالْمَوْوَدَةَ وَالْمَمْرُودَةَ وَالنَّطِيحَةَ وَمَا أَكَلِ السَّبْعُ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ يقول: إلا ما ذبحتم من هؤلاء وفيه روح فكلوه، فهو ذكي، وكذا روى عن سعيد بن جبير والحسن البصري والسدي، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غياث، حدثنا جعفر بن محمد عن أبيه، عن علي في الآية

قال: إن مصعت بذنيها أو ركضت برجلها أو طرفت بعينها، فكل.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم: حدثنا الحسين، حدثنا هشيم وعباد، قالوا: حدثنا حجاج عن حصين، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي قال: إذا أدركت ذكاة الموقوذة والمتردية والنطيحة، وهي تحرك يداً أو رجلاً فكلها، وهكذا روى عن طاوس والحسن وقتادة وعبيد بن عمير والضحاك وغير واحد: أن المذكاة متى تحركت بحركة تدل على بقاء الحياة فيها بعد الذبح، فهي حلال، وهذا مذهب جمهور الفقهاء، وبه قال أبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل. قال ابن وهب: سئل مالك عن الشاة التي يخرق جوفها السبع حتى تخرج أوعاؤها، فقال مالك: لا أرى أن تذكى، أى شيء يذكى منها؟ وقال أشهب: سئل مالك عن الضبيغ يعدو على الكيش فيدق ظهره، أترى أن يذكى قبل أن يموت فيؤكل؟ فقال: إن كان قد بلغ السخرة فلا أرى أن يؤكل، وإن كان أصاب أطرافه فلا أرى بذلك بأساً، قيل له: وثب عليه فدق ظهره؟ فقال: لا يعجبني هذا لا يعيش منه. قيل له: فالذئب يعدو على الشاة فيشق بطنها ولا يشق الأمعاء؟ فقال: إذا شق بطنها فلا أرى أن تؤكل، هذا مذهب مالك رحمه الله. وظاهر الآية عام فيما استثناءه مالك رحمه الله من الصور التي بلغ الحيوان فيها إلى حالة لا يعيش بعدها فيحتاج إلى دليل مخصص للآية، والله أعلم.

وفى الصحيحين^(١) عن رافع بن خديج أنه قال: قلت: يا رسول الله، إنا لاقو العدو غداً وليس معنا ظفير، أفنذبح بالقصب؟ فقال «ما أنهر الدم، وذكر اسم الله عليه، فكلوه، ليس السن والظفر، وسأحدثكم عن ذلك: أما السن فعظم، وأما الظفر فممدى الحبشة». وفى الحديث الذى رواه الدارقطني^(٢) مرفوعاً، وفيه نظر، وروى عن عمر موقوفاً وهو أصح «ألا إن الذكاة فى الحلق واللبة، ولا تعجلوا الأنفس أن تزهد». وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن^(٣) من رواية حماد بن سلمة عن أبى العشاء الدارمي عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله، أما تكون الذكاة إلا من اللبة والحلق؟ فقال «لو طعنت فى فخذاها لأجزأ عنك»، وهو حديث صحيح، ولكنه محمول على ما لا يقدر على ذبحه فى الحلق واللبة.

وقوله «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ» قال مجاهد وابن جريج: كانت النصب حجارة حول الكعبة، قال ابن جريج: وهي ثلاثمائة وستون نصباً، كانت العرب فى جاهليتها يذبحون عندها، وينضحون ما أقبل منها إلى البيت بدماء تلك الذبائح، ويشرحون اللحم ويضعونه على النصب، وكذا ذكره غير واحد، فنهى الله المؤمنين عن هذا الصنيع، وحرّم عليهم أكل هذه الذبائح التى فعلت عند النصب حتى ولو كان يذكر عليها اسم الله؛ لما فى الذبح عند النصب من الشرك الذى حرّمه الله ورسوله، وينبغى أن يحمل هذا على هذا، لأنه قد تقدم تحريم ما أهل به لغير الله.

وقوله تعالى: «وَأَنْ تَسْتَفْسِئُوا بِالْأَنْزِلِ» أى حرّم عليكم أيها المؤمنون الاستقسام بالأزلام، واحدها

(١) تقدم تخريجه.

(٢) ضعيف مرفوعاً: الدارقطني (٤/٢٨٣)، (٤٥)، وفيه سعيد بن سلام العفار منكر الحديث.

(٣) منكر: أبو داود (٢٨٢٥)، الترمذي (١٤٨١)، النسائي (٤٤٠٨)، ابن ماجه (٣١٨٤)، أحمد (١٨٤٦٨)،

الدارمي (١٩٧٢)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

زلم وقد تفتح الزاي، فيقال: زلم، وقد كانت العرب في جاهليتها يتعاطون ذلك، وهي عبارة عن قдах ثلاثة، على أحدها مكتوب: افعل، وعلى الآخر: لا تفعل، والثالث غفل ليس عليه شيء، ومن الناس من قال: مكتوب على الواحد: أمرني ربي، وعلى الآخر: نهاني ربي، والثالث غفل ليس عليه شيء، فإذا أجالها فطلع السهم الأمر فعله، أو النهى تركه، وإن طلع الفارغ أعاد، والاستقسام مأخوذ من طلب القسم من هذه الأزلام، هكذا قرر ذلك أبو جعفر بن جرير، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا الحجاج بن محمد، أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء، عن ابن عباس «وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ» قال: والأزلام قдах كانوا يستقسمون بها في الأمور، وكذا روى عن مجاهد وإبراهيم النخعي والحسن البصري ومقاتل بن حيان. وقال ابن عباس: هي قдах كانوا يستقسمون بها في الأمور. وذكر محمد بن إسحاق وغيره: أن أعظم أصنام قريش صنم كان يقال له هبل منصوب على بئر داخل الكعبة، توضع الهدايا وأموال الكعبة فيه، وكان عنده سبعة أزلام مكتوب فيها ما يتحاكمون فيه مما أشكل عليهم، فما خرج لهم منها رجعوا إليه ولم يعدلوا عنه وثبت في الصحيح ^(١): أن النبي ﷺ لما دخل الكعبة، وجد إبراهيم وإسماعيل مصورين فيها، وفي أيديهما الأزلام فقال «قاتلهم الله لقد علموا أنهما لم يستقسما بها أبداً».

وفي الصحيح ^(٢): أن سراقه بن مالك بن جعشم، لما خرج في طلب النبي ﷺ وأبى بكر، وهما ذاهبان إلى المدينة مهاجرين، قال: فاستقسمت بالأزلام، هل أضرمهم أم لا؟ فخرج النبي ﷺ أكره لا تضرهم. قال: فعصيت الأزلام واتبعتهم، ثم إنه استقسم بها ثانية وثالثة، كل ذلك يخرج الذي يكره لا تضرهم، وكان كذلك، وكان سراقه لم يسلم إذ ذاك ثم أسلم بعد ذلك، وروى ابن مردويه ^(٣) من طريق إبراهيم بن يزيد عن رقية. عن عبد الملك بن عمير، عن رجاء بن حيوة، عن أبي الدرداء، قال: قال رسول الله ﷺ «لن يلج الدرجات من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر طائراً». وقال مجاهد في قوله «وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ» قال: هي سهام العرب، وكعاب فارس والروم، كانوا يتقارمون. وهذا الذي ذكر عن مجاهد في الأزلام أنها موضوعة للقمار، فيه نظر، اللهم إلا أن يقال: إنهم كانوا يستعملونها في الاستخارة تارة وفي القمار أخرى، والله أعلم. فإن الله سبحانه فرق بين هذه وبين القمار وهو الميسر فقال في آخر السورة: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْكَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَهْسَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْكَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» [المائدة: ٩٠-٩١]. وهكذا قال هاهنا «وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ» أي تعاطيه فسق وغي وضلالة وجهالة وشرك. وقد أمر الله المؤمنين إذا ترددوا في أمورهم أن يستخيروه بأن يعبدوه ثم يسألوه الخيرة في الأمر الذي يريدونه. كما رواه الإمام أحمد والبخاري وأهل السنن ^(٤) من طرق عن عبد الرحمن بن أبي الموالي عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله،

(١) البخاري برقم (١٦٠١)، من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) البخاري برقم (٣٩٠٦)، من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) صحيح: عزاه المصنف لابن مردويه مرفوعاً. وانظر السلسلة الصحيحة (٢١٦١).

(٤) البخاري (١١٦٦)، أحمد (١٤٢٩٧)، أبو داود (١٥٣٨)، الترمذي (٤٨٠)، النسائي (٣٢٥٣)، ابن ماجه

قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن، ويقول «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة، ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه باسمه - خير لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري - أو قال: عاجل أمري وأجله - فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفني عنه، واصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به» لفظ أحمد، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبي الموالى.

وقوله ﴿الْيَوْمَ نَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: يعني يشيرون أن يراجعوا دينهم، وكذا روى عن عطاء بن أبي رباح والسدى ومقاتل بن حيان، وعلى هذا المعنى يرد الحديث الثابت في الصحيح^(١): أن رسول الله ﷺ قال «إن الشيطان قد يشس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب، ولكن بالتحريش بينهم»، ويحتمل أن يكون المراد أنهم يشيرون من مشابهة المسلمين لما تميز به المسلمون من هذه الصفات المخالفة للشرك وأهله لهذا قال تعالى أمرًا عباده المؤمنين أن يصبروا ويثبتوا في مخالفة الكفار ولا يخافوا أحدًا إلا الله، فقال ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ أى لا تخافوهم في مخالفتكم لياهم، واخشوني أنصركم عليهم وأبيدهم، وأظفركم بهم، وأشف صدوركم منهم، وأجعلكم فوقهم في الدنيا والآخرة.

وقوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة حيث أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دين غيره، ولا إلى نبي غير نبيه صلوات الله وسلامه عليه، ولهذا جعله الله تعالى خاتم الأنبياء وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به فهو حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أى صدقًا فى الأخيار، وعدلاً فى الأوامر والنواهي، فلما أكمل لهم الدين، تمت عليهم النعمة، ولهذا قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ أى فارضوه أنتم لأنفسكم، فإنه الدين الذى أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه.

وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وهو الإسلام، أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا. وقال أسباط عن السدى: نزلت هذه الآية يوم عرفة، فلم ينزل بعدها حلال ولا حرام، ورجع رسول الله ﷺ فمات، قالت أسماء بنت عميس: حججت مع رسول الله ﷺ تلك الحجة فبينما نحن نسير إذ تجلى له جبريل، فمال رسول الله ﷺ على الراحلة، فلم تنطق الراحلة من ثقل ما عليها من القرآن، فبركت، فأتيته فسجيت عليه بردًا كان عليّ. وقال ابن جريج وغير واحد: مات رسول الله ﷺ بعد يوم عرفة بأحد وثمانين يومًا، رواهما ابن جرير، ثم قال: حدثنا سفيان بن

(١) مسلم برقم (٢٨١٢)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

وكيع، حدثنا ابن فضيل عن هارون بن عنترة، عن أبيه، قال ^(١): «لما نزلت ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ وذلك يوم الحج الأكبر، بكى عمر، فقال له النبي ﷺ «ما يبكيك؟» قال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، فقال «صدقت» ويشهد لهذا المعنى الحديث الثابت ^(٢) «إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً، فطوبى للغرباء».

وقال الإمام أحمد ^(٣): حدثنا جعفر بن عون، حدثنا أبو العميس عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: جاء رجل من اليهود إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إنكم تقرأون آية في كتابكم لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً. قال: وأي آية؟ قال: قوله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ فقال عمر: والله إنى لأعلم اليوم الذي نزلت على رسول الله ﷺ، والساعة التي نزلت فيها على رسول الله ﷺ، نزلت عشية عرفة في يوم الجمعة، ورواه البخاري ^(٤) عن الحسن بن الصباح عن جعفر بن عون به. ورواه أيضاً مسلم ^(٥) والترمذي والنسائي من طرق عن قيس بن مسلم به. ولفظ البخاري ^(٦) عند تفسير هذه الآية من طريق سفيان الثوري، عن قيس، عن طارق قال: قالت اليهود لعمر: إنكم تقرأون آية لو نزلت فينا لاتخذناها عيداً. فقال عمر: إنى لأعلم حين أنزلت، وأين أنزلت، وأين رسول الله ﷺ حيث أنزلت يوم عرفة، وأنا والله بعرفة، قال سفيان: وأشك، كان يوم الجمعة أم لا ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ الآية.

وشك سفيان رحمه الله إن كان في الرواية، فهو تورع حيث شك هل أخبره شيخه بذلك أم لا، وإن كان شكاً في كون الوقوف في حجة الوداع كان يوم الجمعة، فهذا ما إخاله يصدر عن الثوري رحمه الله، فإن هذا أمر معلوم مقطوع به، لم يختلف فيه أحد من أصحاب المغازي والسير، ولا من الفقهاء وقد وردت في ذلك أحاديث متواترة لا يشك في صحتها، والله أعلم، وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن عمر.

وقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه، أخبرنا رجاء بن أبي سلمة، أخبرنا عبادة بن نسي، أخبرنا أميرنا إسحاق، قال أبو جعفر بن جرير هو إسحاق بن خرشة عن قبيصة يعني ابن ذؤيب، قال: قال كعب: لو أن غير هذه الأمة نزلت عليهم هذه الآية، لنظروا اليوم الذي أنزلت فيه عليهم، فاتخذوه عيداً يجتمعون فيه، فقال عمر: أي آية يا كعب؟ فقال ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فقال عمر: قد علمت اليوم الذي أنزلت، والمكان الذي أنزلت فيه: نزلت في يوم الجمعة ويوم عرفة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد.

وقال ابن جرير ^(٧): حدثنا أبو كريب، حدثنا قبيصة، حدثنا حماد بن سلمة عن عمار هو مولى بنى

(١) رواه الطبري (٨٠/٦)، ورجاله ثقات.

(٢) مسلم برقم (١٤٥)، من حديث أبي هريرة (١٤٦)، من حديث ابن عمر.

(٣) صحيح: أحمد (١٨٩)، ورجاله ثقات.

(٤) البخاري برقم (٤٥).

(٥) مسلم برقم (٣٠١٧)، والترمذي (٣٠٤٣)، بنحوه، والنسائي (٥٠١٢).

(٦) البخاري برقم (٤٦٠٦).

(٧) ابن جرير الطبري (٨٢/٦)، ورجاله ثقات.

هاشم: أن ابن عباس قرأ ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ فقال يهودى: لو نزلت هذه الآية علينا، لاتخذنا يومها عيداً، فقال ابن عباس: فإنها نزلت فى يوم عيدين اثنين: يوم عيد، ويوم جمعة. وقال ابن مردويه (١): حدثنا أحمد بن كامل، حدثنا موسى بن هارون، حدثنا يحيى بن الحمانى، حدثنا قيس بن الربيع عن إسماعيل بن سلمان، عن أبى عمر البزار، عن ابن الحنفية، عن على قال: نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ وهو قائم عشية عرفة ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾.

وقال ابن جرير (٢): حدثنا أبو عامر إسماعيل بن عمرو السكونى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا ابن عياش حدثنا عمرو بن قيس السكونى، أنه سمع معاوية بن أبى سفيان على المنبر ينتزع بهذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ حتى ختمها، فقال: نزلت فى يوم عرفة فى يوم جمعة. وروى ابن مردويه (٣) من طريق محمد بن إسحاق عن عمر بن موسى بن وجيه، عن قتادة عن الحسن، عن سمرة قال: نزلت هذه الآية ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ يوم عرفة، ورسول الله ﷺ واقف على الموقف، فأما ما رواه ابن جرير (٤) وابن مردويه والطبرانى من طريق ابن لهيعة عن خالد بن أبى عمران، عن حنش بن عبد الله الصنعاني، عن ابن عباس قال: ولد نبيكم ﷺ يوم الاثنين، وخرج من مكة يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين، وفتح بدرًا يوم الاثنين، وأنزلت سورة المائدة يوم الاثنين ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. ورفع الذكر يوم الاثنين. فإنه أثر غريب، وإسناده ضعيف، وقد رواه الإمام أحمد (٥): حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة عن خالد بن أبى عمران، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس قال: ولد النبي ﷺ يوم الاثنين، واستنبت يوم الاثنين، وخرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة يوم الاثنين، وقدم المدينة يوم الاثنين، وتوفى يوم الاثنين، ووضع الحجر الأسود يوم الاثنين، هذا لفظ أحمد، ولم يذكر نزول المائدة يوم الاثنين، فإله أعلم، ولعل ابن عباس أراد أنها نزلت يوم عيدين اثنين، كما تقدم فاشتبه على الراوى، والله أعلم.

وقال ابن جرير (٦): وقد قيل: ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس، ثم روى من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله ﴿الْيَوْمَ أَكَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ يقول: ليس ذلك بيوم معلوم عند الناس، قال: وقد قيل: إنها نزلت على رسول الله ﷺ فى مسيره إلى حجة الوداع، ثم رواه من طريق أبى جعفر الرازى عن الربيع بن أنس. قلت: وقد روى ابن مردويه من طريق أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى: أنها نزلت على رسول الله ﷺ يوم غدیر خم حين قال لعلى «من كنت مولاه فعليّ مولاه» (٧). ثم رواه عن

(١) عزاه لابن مردويه، وفي سنده ضعف.

(٢) ابن جرير الطبري (٨٣/٦).

(٣) عزاه لابن مردويه من طريق عمر بن موسى بن وجيه عن قتادة عن الحسن به.

(٤) ضعيف: رواه ابن جرير (٨٤/٦)، وفيه ابن لهيعة وقد اختلط.

(٥) ضعيف: أحمد (٢٥٠٢)، وفيه ابن لهيعة، كسابقه.

(٦) ضعيف: رواه ابن جرير (٨٤/٦). وفيه عطية العوفى وهو ضعيف، وكان الثوري وهشيم يضعفان حديث عطية، انظر الجرح والتعديل (٢٥٠/٦).

(٧) ضعيف: وفيه أبو هارون العبدى، قال فيه يحيى بن معين: أبو هارون العبدى كان عنده صحيفة يقول هذه صحيفة الوحي وكان عندهم لا يصدق في حديثه، قال: سمعت أبي يقول: أبو هارون العبدى ضعيف وهو أضعف

أبى هريرة، وفيه أنه اليوم الثامن عشر من ذى الحجة يعنى مرجعه عليه السلام من حجة الوداع، ولا يصح هذا ولا هذا بل الصواب الذى لا شك فيه ولا مرية أنها أنزلت يوم عرفة، وكان يوم الجمعة كما روى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب، وأول ملوك الإسلام معاوية بن أبى سفيان، وترجمان القرآن عبد الله بن عباس، وسمرة بن جندب رضى الله عنهم، وأرسله الشعبى وقتادة بن دعامة وشهر بن حوشب وغير واحد من الأئمة والعلماء، واختاره ابن جرير الطبرى رحمه الله.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي مَخْصَمَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِهِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أى فمن احتاج إلى تناول شيء من هذه المحرمات التى ذكرها الله تعالى لضرورة ألجأته إلى ذلك، فله تناول ذلك، والله غفور رحيم له؛ لأنه تعالى يعلم حاجة عبده المضطر وافتقاره إلى ذلك، فيتجاوز عنه، ويغفر له، وفى المسند وصحيح ابن حبان^(١) عن ابن عمر مرفوعاً قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله يحب أن تؤتى رخصته كما يكره أن تؤتى معصيته» لفظ ابن حبان، وفى لفظ لأحمد^(٢) «من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة» ولهذا قال الفقهاء: قد يكون تناول الميتة واجباً فى بعض الأحيان وهو ما إذا خاف على مهجته التلف ولم يجد غيرها، وقد يكون مندوباً، وقد يكون مباحاً بحسب الأحوال، واختلفوا هل يتناول منها قدر ما يسد به الرمق، أو له أن يشبع أو يشبع ويتزود؟ على أقوال كما هو مقرر فى كتاب الأحكام، وفيما إذا وجد ميتة وطعام الغير أو صيداً وهو محرم، هل يتناول الميتة أو ذلك الصيد ويلزمه الجزاء أو ذلك الطعام ويضمن بدله، على قولين هما قولان للشافعى رحمه الله. وليس من شرط جواز تناول الميتة أن يمضى عليه ثلاثة أيام لا يجد طعاماً كما قد يتوهمه كثير من العوام وغيرهم، بل متى اضطر إلى ذلك جاز له.

وقد قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعى، حدثنا حسان بن عطية عن أبى واقد الليثى، أنهم قالوا: يا رسول الله، إنا بأرض تصيبنا بها المخمصة، فمتى تحل لنا بها الميتة؟ فقال «إذا لم تصطبحوها، ولم تغتبقوها، ولم تحتفتوا بها بقلأ فشانكم بها» تفرد به أحمد من هذا الوجه، وهو إسناد صحيح على شرط الصحيحين، وكذا رواه ابن جرير عن عبد الأعلى بن واصل عن محمد بن القاسم الأسدى عن الأوزاعى به، لكن رواه بعضهم عن الأوزاعى، عن حسان بن عطية، عن مسلم بن يزيد، عن أبى واقد به. ومنهم من رواه عن الأوزاعى، عن حسان، عن مرثد أو أبى مرثد عن أبى واقد به. ورواه ابن جرير عن هناد بن السرى، عن عيسى بن يونس، عن حسان، عن رجل قد سمى له فذكره، ورواه أيضاً عن هناد، عن ابن المبارك، عن الأوزاعى، عن حسان مرسلًا.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن عليه عن ابن عون، قال: وجدت عند الحسن كتاب سمرة فقرأته عليه، فكان فيه: ويجزئ من الاضطرار غبوق أو صبح.

من بشر بن حرب. (الجرح والتعديل) (٦/٣٦٣).

(١) صحيح: أحمد (٥٨٣٢)، وابن حبان (٤٥١/٦)، برقم (٢٧٤٢)، انظر صحيح الجامع الصغير (١٨٨٦).

(٢) ضعيف: أحمد (٥٣٦٩)، من حديث ابن عمر رضى الله عنهما، انظر ضعيف الجامع (٥٨٤٤).

(٣) أحمد (٢١٣٩٤)، ورجاله ثقات.

حدثنا أبو كريب، حدثنا هشيم عن الخصيب بن زيد التميمي، حدثنا الحسن: أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: متى يحل الحرام؟ قال: فقال «إلى متى يروى أهلك من اللبن أو تجيء ميرتهم»^(١). حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، حدثني عمر بن عبد الله بن عروة، عن جده عروة بن الزبير، عن جدته: أن رجلاً من الأعراب أتى النبي ﷺ يستفتيه في الذي حرم الله عليه، والذي أحل له، فقال النبي ﷺ «يحل لك الطيبات، ويحرم عليك الخبائث، إلا أن تفتقر إلى طعام لا يحل لك، فتأكل منه حتى تستغنى عنه». فقال الرجل: وما فقرى الذي يحل لي وما غناى الذي يغنيني عن ذلك؟ فقال النبي ﷺ «إذا كنت ترجو نتائجاً فتبلغ بلحوم ماشيتك إلى نتاجك، أو كنت ترجو غنى تطلبه فتبلغ من ذلك شيئاً فأطعم أهلك ما بدا لك حتى تستغنى عنه» فقال الأعرابي: ما غناى الذي أدعه إذا وجدته، فقال ﷺ «إذا أريت أهلك غبوقاً من الليل، فاجتنب ما حرم الله عليك من طعام، وأما مالك، فإنه ميسور كله فليس فيه حرام»^(٢).

ومعنى قوله «ما لم تصطبحو» يعني به الغداء «وما لم تغتبقوا» يعني به العشاء «أو تحتفتوا بقلأ فشانكم بها» فكلوا منها. وقال ابن جرير: يروى هذا الحرف، يعني قوله «أو تحتفتوا» على أربعة أوجه: تحفتوا بالهمزة، وتحتفتوا: بتخفيف الياء والحاء، وتحتفتوا بتشديد الفاء، وتحتفتوا بالحاء وبالتخفيف، ويحتمل الهمز، كذا ذكره في التفسير.

(حديث آخر): قال أبو داود^(٣): حدثنا هارون بن عبد الله، حدثنا الفضل بن دكين، حدثنا عقبة بن وهب بن عقبة العامري، سمعت أبي يحدث عن الفجيع العامري أنه أتى رسول الله ﷺ فقال: ما يحل لنا من الميتة؟ قال «ما طعامكم»؟ قلنا: نصطبح ونغتبِق. قال أبو نعيم: فسره لي عقبة، قدح غدوة وأقدح عشية، قال: «ذاك وأبى الجوع»، وأحل لهم الميتة على هذه الحال. تفرد به أبو داود، وكانهم كانوا يصطبحون ويغتبِقون شيئاً لا يكفيهم، فأحل لهم الميتة لتعام كفايتهم وقد يحتج به من يرى جواز الأكل منها حتى يبلغ حد الشبع، ولا يتقيد ذلك بسد الرمق، والله أعلم.

(حديث آخر): قال أبو داود^(٤): حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، حدثنا سماك عن جابر ابن سمرة: أن رجلاً نزل الحرة ومعه أهله وولده، فقال له رجل: إن ناقة لي ضلت، فإن وجدتها فأمسكها، فوجدها ولم يجد صاحبها، فمرضت، فقالت له امرأته: انحرها فأبى، فنفتت فقالت له امرأته: اسلخها حتى نقتد شحمها ولحمها فنأكله، فقال: حتى أسأل رسول الله ﷺ فأتاه فسأله، فقال «هل عندك غنى يغنيك؟» قال: لا، قال «فكلوها» قال: فجاء صاحبها فأخبره الخبر، فقال: هلا كنت نحرتهما؟ قال استحيت منك. تفرد به، وقد يحتج به من يجوز الأكل والشبع والتزود منها مدة يغلب على ظنه الاحتياج إليها. والله أعلم.

وقوله: «عَبْرٌ مُتَجَانِفِي لِإِثْمِهِ» أى متعاط لمعصية الله، فإن الله قد أباح ذلك له وسكت عن الآخر،

(١) الطبري (٨٧/٦)، وفيه هشيم: يدلس، وقد عنعن.

(٢) الطبري (٨٧/٦)، ورجاله ثقات.

(٣) ضعيف: أبو داود (٣٨١٧)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٤) حسن: أبو داود (٣٨١٦)، انظر صحيح سنن أبي داود.

كما قال في سورة البقرة ﴿فَمَنْ أَضَلُّ مِنْ بَاغٍ وَلَا عَاوٍ فَلَا إِيْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَقُورٌ رَجِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٣] وقد استدل بهذه الآية من يقول بأن العاصي بسفوره لا يترخص بشيء من رخص السفر، لأن الرخص لا تنال بالمعاصي، والله أعلم.

﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أَحَلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَأَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١١٩﴾﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه في الآية المتقدمة من الخبائث الضارة لمتناولها إما في بدنه أو في دينه أو فيهما، واستثنى ما استثناه في حالة الضرورة كما قال: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا أَنْظَرْتُمْ إِلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١١٩] قال بعدها ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ كما في سورة الأعراف في صفة محمد ﷺ أنه ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، قال ابن أبي حاتم^(١): حدثنا أبو زرعة، حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير، حدثني عبد الله بن لهيعة، حدثني عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير، أن عدى بن حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين، سألا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله قد حرم الله الميتة، فماذا يحل لنا منها؟ فنزلت ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ﴾ قال سعيد: يعنى الذبائح الحلال الطيبة لهم. وقال مقاتل: الطيبات ما أحل لهم من كل شيء أن يصيبوه وهو الحلال من الرزق، وقد سئل الزهري عن شرب البول للتداوى فقال: ليس هو من الطيبات، رواه ابن أبي حاتم، وقال ابن وهب: سئل مالك عن بيع الطين الذي يأكله الناس، فقال: ليس هو من الطيبات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ أى أحل لكم الذبائح التي ذكر اسم الله عليها، والطيبات من الرزق، وأحل لكم ما صدتموه بالجوارح، وهى من الكلاب والفهود والصقور وأشباهاها، كما هو مذهب الجمهور من الصحابة والتابعين والأئمة، وممن قال ذلك على بن أبي طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ وهن الكلاب المعلمة، والبازى، وكل طير يعلم للصيد والجوارح، يعنى الكلاب الضواري والفهود والصقور وأشباهاها. رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروى عن خيثمة وطاوس ومجاهد ومكحول ويحيى بن أبى كثير نحو ذلك، وروى عن الحسن أنه قال: الباز والصقر من الجوارح، وروى عن على بن الحسين مثله.

ثم روى عن مجاهد أنه كره صيد الطير كله، وقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ قال: وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك، ونقله ابن جرير عن الضحاك والسدى، ثم قال: حدثنا هناد، حدثنا ابن أبى زائدة، أخبرنا ابن جريج عن نافع، عن ابن عمر، قال: أما ما صاد من الطير البازاة وغيرها من الطير، فما أدركت فهو لك وإلا فلا تطعمه. قلت: والمحكى عن الجمهور إن الصيد بالطيور كالصيد بالكلاب؛ لأنها تكلب الصيد بمخالبها كما تكلبه الكلاب، فلا فرق، وهو مذهب الأئمة الأربعة وغيرهم واختاره ابن جرير، واحتج فى ذلك بما رواه^(٢) عن هناد، حدثنا عيسى بن

(١) ضعيف: وفي إسناده ابن لهيعة وقد اختلط.

(٢) ضعيف: رواه الطبري (٦/٩١)، وفيه مجالد بن سعيد وهو ضعيف، انظر مجمع الزوائد (٤/١٠٥).

يونس عن مجالد، عن الشعبي، عن عدى بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال: «ما أمسك عليك فكل». واستثنى الإمام أحمد صيد الكلب الأسود، لأنه عنده مما يجب قتله ولا يحل اقتناؤه لما ثبت في صحيح مسلم^(١) عن أبي ذر أن رسول الله ﷺ قال «يقطع الصلاة الحمار والمرأة والكلب الأسود» فقلت: ما بال الكلب الأسود من الأحمر؟ فقال: «الكلب الأسود شيطان». وفي الحديث الآخر^(٢) أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، ثم قال «ما بالهم وبال الكلاب، اقتلوا منها كل أسود بهيم» وسميت هذه الحيوانات التي يصطاد بهن جوارح من الجرح، وهو الكسب، كما تقول العرب: فلان جرح أهله خيرًا، أى كسبهم خيرًا، ويقولون: فلان لا جرح له أى لا كاسب له، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَصْلَحُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ﴾ [الانعام: ٦٠] أى ما كسبتم من خير وشر، وقد ذكر في سبب نزول هذه الآية الشريفة الحديث الذي رواه ابن أبي حاتم: حدثنا حجاج بن حمزة، حدثنا زيد بن الحباب، حدثني موسى بن عبيدة، حدثني أبان بن صالح عن القعقاع بن حكيم عن سلمى أم رافع، عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب، فقتلت، فجاء الناس فقالوا: يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ فسكت، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ مَا عَمَلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ أَوْلَىٰ لَكُمْ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ١١٥] فقال النبي ﷺ: «إذا أرسل الرجل كلبه وسمى، فأمسك عليه، فيأكل ما لم يأكل» وهكذا رواه ابن جرير^(٣) عن أبي كريب عن زيد بن الحباب بإسناده عن أبي رافع قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ ليستأذن عليه، فأذن له، فقال: قد أذن لك يا رسول الله، قال: أجل، «ولكننا لا ندخل بيتًا فيه كلب» قال أبو رافع: فأمرني أن أقتل كل كلب بالمدينة فقتلت حتى انتهيت إلى امرأة عندها كلب ينبع عليها، فتركته رحمة لها، ثم جئت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فأمرني فرجعت إلى الكلب فقتلته، فجاءوا فقالوا: يا رسول الله ما يحل لنا من هذه الأمة التي أمرت بقتلها؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ مَا عَمَلْتُمْ بِهِ وَإِنَّ أَوْلَىٰ لَكُمْ بِالْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ﴾ [الأنعام: ١١٥] ورواه الحاكم في مستدركه^(٤) من طريق محمد بن إسحاق عن أبان بن صالح به، وقال: صحيح، ولم يخرجاه.

وقال ابن جرير^(٥): حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج عن ابن جريج، عن عكرمة أن رسول الله ﷺ بعث أبا رافع في قتل الكلاب حتى بلغ العوالي، فجاء عاصم بن عدى وسعد بن خيشمة وعويم بن ساعدة، فقالوا: ماذا أحل لنا يا رسول الله؟ فنزلت الآية، ورواه الحاكم^(٦) من طريق سماك عن عكرمة، وكذا قال محمد بن كعب القرظي في سبب نزول هذه الآية: أنه في قتل الكلاب.

وقوله تعالى: ﴿مُكَيِّبِينَ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من الضمير في علمتم فيكون حالاً من الفاعل ويحتمل أن يكون حالاً من المفعول، وهو الجوارح، أى وما علمتم من الجوارح في حال كونهن

(١) مسلم برقم (٥١٠).

(٢) مسلم (٢٨٠) عن ابن المغفل ولكن دون لفظ: «اقتلوا منها كل أسود بهيم» ورواه أيضاً في موضع آخر (١٥٧٢)، عن جابر بن عبد الله بلفظ: «عليكم بالأسود البهيم ذي النقطتين فإنه شيطان».

(٣) ضعيف: الطبري (٨٨/٦)، وفيه موسى بن عبيدة، ضعيف، وزيد بن حباب المجلي: صلوفاً.

(٤) المستدرک علی الصحیحین (٣٤٠/٢) (٣٢١٢)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٥) ابن جرير (٨٩/٦). (٦) انظر المستدرک (٣٤١/٢).

مكليات للصيد، وذلك أن تقتنصه بمخالبيها أو أظفارها، فيستدل بذلك والحالة هذه على أن الجارح إذا قتل الصيد بصدمة لا بمخلابه وظفره، أنه لا يحل، كما هو أحد قولى الشافعى وطائفة من العلماء، ولهذا قال ﴿تَلْبُوتُهُنَّ بِمَا عَلَيْكُمْ اللَّهُ﴾ وهو أنه إذا أرسله استرسل، وإذا أشلاه استشلى، وإذا أخذ الصيد أمسكه على صاحبه حتى يجيء إليه، ولا يمسكه لنفسه، ولهذا قال تعالى: ﴿كُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ فمتى كان الجارح معلماً وأمسك على صاحبه، وكان قد ذكر اسم الله عليه وقت إرساله، حل الصيد وإن قتله بالإجماع. وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، كما ثبت فى الصحيحين^(١) عن عدى بن حاتم قال: قلت: يا رسول الله، إنى أرسل الكلاب المعلمة وأذكر اسم الله، فقال: «إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك». قلت: وإن قتلن؟ قال: «وإن قتلن ما لم يشركها كلب ليس منها، فإنك إنما سميت على كلبك ولم تسم على غيره» قلت له: فإنى أرمى بالمعراض الصيد فأصيب؟ فقال: «إذا رميت بالمعراض فخرق فكله، وإن أصابه بمرض فإنه وقيد فلا تأكله» وفى لفظ لهما «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله، فإن أمسك عليك فأدرسته حياً فاذبحه، وإن أدرسته قد قتل ولم يأكل منه فكله، فإن أخذ الكلب ذكاته» وفى رواية لهما «فإن أكل فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه» فهذا دليل للججمهور، وهو الصحيح من مذهب الشافعى، وهو أنه إذا أكل الكلب من الصيد يحرم مطلقاً، ولم يستفصلوا كما ورد بذلك الحديث، وحكى عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يحرم مطلقاً.

ذكر الآثار بذلك

قال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا وكيع عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، قال: قال سلمان الفارسى: كل وإن أكل ثلثيه - يعنى الصيد - إذا أكل منه الكلب، وكذا رواه سعيد بن أبى عروبة وعمر بن عامر عن قتادة، وكذا رواه محمد بن زيد عن سعيد بن المسيب عن سلمان، ورواه ابن جرير أيضاً عن مجاهد بن موسى، عن يزيد، عن حميد، عن بكر بن عبد الله المزنى، والقاسم: أن سلمان قال: إذا أكل الكلب فكل، وإن أكل ثلثيه.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أخبرنا ابن وهب، أخبرنى مخرمة بن بكير عن أبيه، عن حميد بن مالك بن خثيم الدؤلى أنه سأل سعد بن أبى وقاص عن الصيد يأكل منه الكلب، فقال: كل وإن لم يبق منه إلا حذية، يعنى بضعة، ورواه شعبة عن عبد ربه بن سعيد، عن بكير بن الأشج، عن سعيد بن المسيب، عن سعد بن أبى وقاص، قال: كل، وإن أكل ثلثيه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المشنى، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود عن عامر، عن أبى هريرة، قال: إذا أرسلت كلبك فأكل منه، فإن أكل ثلثيه وبقى ثلثه فكله.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا المعتمر قال: سمعت عبد الله، وحدثنا هناد، حدثنا عبدة عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن عبد الله بن عمر قال: إذا أرسلت كلبك المعلم وذكرت اسم الله فكل ما أمسك عليك، أكل أول لم يأكل. وكذا رواه عبيد الله بن عمر وابن أبى ذئب

(١) تقدم تخريجه.

وغير واحد عن نافع، فهذه الآثار ثابتة عن سلمان وسعد بن أبي وقاص وأبي هريرة وابن عمر، وهو محكى عن علي وابن عباس، واختلف فيه عن عطاء والحسن البصرى، وهو قول الزهري وربيعه ومالك، وإليه ذهب الشافعى فى القديم وأوماً إليه فى الجديد.

وقد روى من طريق سلمان الفارسى مرفوعاً، فقال ابن جرير^(١): حدثنا عمران بن بكار الكلاعى، حدثنا عبد العزيز بن موسى اللاحونى، حدثنا محمد بن دينار وهو الطاحى عن أبى إياس معاوية بن قرة، عن سعيد بن المسيب، عن سلمان الفارسى، عن رسول الله ﷺ قال «إذا أرسل الرجل كلبه على الصيد فأدركه وقد أكل منه فليأكل ما بقى» ثم قال ابن جرير: وفى إسناد هذا الحديث نظر، وسعيد غير معلوم له سماع من سلمان، والثقات يروونه من كلام سلمان غير مرفوع. وهذا الذى قاله ابن جرير صحيح، لكن قد روى هذا المعنى مرفوعاً من وجوه آخر، فقال أبو داود^(٢): حدثنا محمد بن مهال الضرير، حدثنا يزيد بن زريع، حدثنا حبيب المعلم عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن أعرابياً يقال له أبو ثعلبة قال: يا رسول الله، إن لى كلاباً مكلبة، فأنتنى فى صيدها، فقال النبى ﷺ «إن كان لك كلاب مكلبة، فكل مما أمسكن عليك» فقال: ذكياً وغير ذكى. قال: «نعم»، قال: وإن أكل منه؟ قال «نعم وإن أكل منه» فقال: يا رسول الله أنتنى فى قوسى، قال «كل ما ردت عليك قوسك» قال: ذكياً وغير ذكى. قال: وإن تغيب عني؟ قال: «وإن تغيب عنك ما لم يضل أو تجد فيه أثراً غير سهل» قال: أنتنى فى آنية المجوس إذا اضطرننا إليها، قال «اغسلها وكل فيها» هكذا رواه أبو داود، وقد أخرجه النسائى، وكذا رواه أبو داود^(٣) من طريق بشر بن عبيد الله، عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ثعلبة، قال: قال رسول الله ﷺ «إذا أرسلت كلبك وذكرت اسم الله فكل وإن أكل منه، وكل ما ردت عليك يدك» وهذان إسنادان جيدان، وقد روى الثورى عن سماك بن حرب، عن عدى قال: قال رسول الله ﷺ «ما كان من كلب ضار أمسك عليك فكل» قلت: وإن أكل؟ قال «نعم». وروى عبد الملك ابن حبيب: حدثنا أسد بن موسى عن ابن أبى زائدة، عن الشعبي، عن عدى بمثله، فهذه آثار هائلة على أنه يغتفر إن أكل منه الكلب، وقد احتج بها من لم يحرم الصيد بأكل الكلب وما أشبهه، كما تقدم عن حكيانه عنهم، وقد توسط آخرون فقالوا: إن أكل عقب ما أمسكه فإنه يحرم لحديث عدى بن حاتم، وللعلة التى أشار إليها النبى ﷺ «فإن أكل فلا تأكل، فإنى أخاف أن يكون أمسك على نفسه»^(٤) وأما إن أمسكه ثم انتظر صاحبه فطال عليه وجاع فأكل منه لجوعه، فإنه لا يؤثر فى التحريم وحملوا على ذلك حديث أبى ثعلبة الخشنى. وهذا تفريق حسن، وجمع بين الحديثين صحيح.

وقد تمنى الأستاذ أبو المعالى الجوينى فى كتابه «التهامة» أن لو فصل مفصل هذا التفصيل وقد حقق الله أمنيته، وقال بهذا القول والتفريق طائفة من الأصحاب منهم. وقال آخرون قولاً رابعاً فى المسألة وهو التفرقة بين أكل الكلب فيحرم لحديث عدى، وبين أكل الصقور ونحوها فلا يحرم لأنه لا

(١) تقدم تحريجه.

(٢) حسن: أبو داود (٢٨٥٧)، النسائى (٤٢٦٦)، انظر: صحيح سنن أبى داود.

(٣) أبو داود (٢٨٥٢).

(٤) يشهد له حديث عدى بن حاتم فى مسلم (١٩٢٩)، باب: الصيد بالكلاب الملعمة، وأحمد (١٧٨٠٦)، وابن

ماجه (٣٢٠٨).

يقبل التعليم إلا بالأكل .

وقال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا أسباط بن محمد ، حدثنا أبو إسحاق الشيباني عن حماد ، عن إبراهيم ، عن ابن عباس أنه قال في الطير : إذا أرسلته فقتل فكل ، فإن الكلب إذا ضربته لم يعد ، وإنّ تعليم الطير أن يرجع إلى صاحبه وليس يضرب ، فإذا أكل من الصيد وتنف الريش فكل ، وكذا قال إبراهيم النخعي والشعبي وحماد بن أبي سليمان ، وقد يحتج لهؤلاء بما رواه ابن أبي حاتم ^(١) ، حدثنا أبو سعيد ، حدثنا المحاربي ، حدثنا مجالد عن الشعبي ، عن عدى بن حاتم قال : قلت : يا رسول الله ، إنا قوم نصيد بالكلاب والبزاة ، فما يحل لنا منها؟ قال «يحل لكم ما علمتم من الجوارح مكلبين تعلمونهم مما علمكم الله ، فكلوا مما أمسكن عليكم واذكروا اسم الله عليه» ثم قال «ما أرسلت من كلب وذكر اسم الله عليه فكل مما أمسك عليك» قلت : وإن قتل؟ قال «وإن قتل ما لم يأكل» قلت : يا رسول الله ، وإن خالطت كلابنا كلاباً غيرها؟ قال «فلا تأكل حتى تعلم أن كلبك هو الذى أمسك» . قال : قلت : إنا قوم نرمي فما يحل لنا؟ قال «ما ذكرت اسم الله عليه وخزقت فكل» . فوجه الدلالة لهم أنه اشترط في الكلب أن لا يأكل ، ولم يشترط ذلك في البزاة ، فدل على التفرقة بينهما فى الحكم ، والله أعلم .

وقوله تعالى : ﴿ فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ أى عند إرساله كما قال النبى ﷺ لعدى بن حاتم «إذا أرسلت كلبك المعلم ، وذكرت اسم الله ، فكل ما أمسك عليك» وفى حديثه أيضاً ثعلبة المخرج فى الصحيحين أيضاً ^(٢) «إذا أرسلت كلبك فاذكر اسم الله ، وإذا رميت بسهمك فاذكر اسم الله» ولهذا اشترط من اشترط من الأئمة كالإمام أحمد رحمه الله فى المشهور عنه ، التسمية عند إرسال الكلب ، والرمى بالسهم ، لهذه الآية وهذا الحديث ، وهذا القول هو المشهور عند الجمهور أن المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الإرسال كما قال السدى وغيره ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله ﴿ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ﴾ يقول : إذا أرسلت جارحك فقل : باسم الله ، وإن نسيت فلا حرج . وقال بعض الناس : المراد بهذه الآية الأمر بالتسمية عند الأكل ، كما ثبت فى الصحيح ^(٣) : أن رسول الله ﷺ علم ربيبه عمر بن أبى سلمة فقال «سَمَّ الله وكل بيمينك وكل مما يليك» . وفى صحيح البخارى ^(٤) عن عائشة أنهم قالوا : يا رسول الله ، إن قومًا يأتوننا حديث عهدهم بكفر بلحمان لا ندرى أذكر اسم الله عليها أم لا؟ فقال «سموا الله أنتم وكلوا» .

(حديث آخر) : وقال الإمام أحمد ^(٥) : حدثنا يزيد ، حدثنا هشام عن بديل ، عن عبد الله بن عبيد بن عمير ، عن عائشة : أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعامًا فى ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابى فأكله بلقمتين ، فقال النبى ﷺ «أما إنه لو كان ذكر اسم الله لكفاكم ، فإذا أكل أحدكم طعامًا فليذكر

(١) تقدم تخريجه .

(٢) البخاري برقم (٥٤٧٨) ، مسلم (١٩٢٩) (١٩٣٠) .

(٣) البخاري (٥٣٧٦) ، مسلم (٢٠٢٢) ، من حديث عمر بن أبى سلمة رضى الله عنه .

(٤) البخاري برقم (٧٣٩٨) .

(٥) صحيح : أحمد (٢٤٥٨٢) ، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢١٠٧) .

اسم الله، فإن نسي أن يذكر اسم الله أوله، فليقل: باسم الله أوله وآخره، وهكذا رواه ابن ماجه^(١) عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن يزيد بن هارون به، وهذا منقطع بين عبد الله بن عبيد بن عمير وعائشة فإنه لم يسمع منها هذا الحديث بدليل ما رواه الإمام أحمد^(٢): حدثنا عبد الوهاب، أخبرنا هشام يعني ابن أبي عبد الله الدستواي، عن بديل، عن عبد الله بن عبيد بن عمير: أن امرأة منهم يقال لها أم كلثوم حدثته عن عائشة أن رسول الله ﷺ كان يأكل طعاماً في ستة نفر من أصحابه، فجاء أعرابي جائع فأكله بلقمتين، فقال «أما إنه لو ذكر اسم الله لكفاكم، فإذا أكل أحدكم فليذكر اسم الله، فإن نسي اسم الله في أوله، فليقل باسم الله أوله وآخره» ورواه أحمد أيضاً وأبو داود والترمذي والنسائي^(٣) من غير وجه عن هشام الدستواي به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

(حديث آخر): وقال أحمد^(٤): حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا جابر بن صبح، حدثني المثنى بن عبد الرحمن الخزاعي، وصحبته إلى واسط، فكان يسمى في أول طعامه، وفي آخر لقمة يقول: باسم الله أوله وآخره، فقلت له: إنك تسمى في أول ما تأكل، أرايت قولك في آخر ما تأكل باسم الله أوله وآخره، فقال: أخبرك عن ذلك: أن جدى أمية بن مخشى وكان من أصحاب النبي ﷺ سمعته يقول: إن رجلاً كان يأكل والنبي ﷺ ينظر فلم يسم حتى كان في آخر طعامه، قال: باسم الله أوله وآخره، فقال النبي ﷺ «والله ما زال الشيطان يأكل معه حتى سمى، فلم يبق شيء في بطنه حتى قاه» وهكذا رواه أبو داود والنسائي^(٥) من حديث جابر بن صبح الراسبي أبي بشر البصرى، وثقه ابن معين والنسائي، وقال أبو الفتح الأزدي: لا تقوم به الحجة.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٦): حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن خيثة عن أبي حذيفة - قال أبو عبد الرحمن عبد الله بن الإمام أحمد واسمه سلمة بن الهيثم بن صهيب - من أصحاب ابن مسعود، عن حذيفة، قال: كنا إذا حضرنا مع النبي ﷺ على طعام لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول الله ﷺ فيضع يده، وإنا حضرنا معه طعاماً ما، فجاءت جارية كأنما تدفع فذهبت تضع يدها في الطعام، فأخذ رسول الله ﷺ بيدها، وجاء أعرابي كأنما يدفع فذهب يضع يده في الطعام فأخذ رسول الله ﷺ بيده، فقال رسول الله ﷺ «إن الشيطان يستحل الطعام إذا لم يذكر اسم الله عليه، وإنه جاء بهذه الجارية ليستحل بها، فأخذت بيدها، وجاء بهذا الأعرابي ليستحل به فأخذت بيده، والذي نفسى بيده إن يده في يدي مع يديهما» يعنى الشيطان، وكذا رواه مسلم وأبو داود والنسائي، من حديث الأعمش به. (حديث آخر): روى مسلم وأهل السنن^(٧)، إلا الترمذي من طريق ابن جريج، عن أبي الزبير،

(١) ابن ماجه (٣٢٦٤)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٢) صحيح: أحمد (٢٥٧٦٠).

(٣) أحمد (٢٥٥٥٨)، وأبو داود (٣٧٦٧)، الترمذي (١٨٥٨)، النسائي في «الكبرى» (٧٨/٦)، برقم (١٠١١٢)، كلهم من طريق هشام الدستواي.

(٤) ضعيف: أحمد (١٤٨٤)، انظر ضعيف الجامع (٦١١٣).

(٥) ضعيف: أبو داود (٣٧٦٨)، والنسائي في «الكبرى» (١٧٤/٤)، برقم (٦٧٥٨)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٦) أحمد (٣٣٧٣٨)، ومسلم (٢٠١٧)، وأبو داود (٣٧٦٦)، والنسائي في «الكبرى» (١٧٣/٤)، برقم (٦٧٥٤).

(٧) مسلم (٢٠١٨)، وأبو داود (٣٧٦٥)، والنسائي في «الكبرى» (٥٢/٦)، برقم (١٠٠٠٦)، وابن ماجه

عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر اسم الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء» لفظ أبي داود.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن وحشي بن حرب بن وحشي بن حرب عن أبيه، عن جده، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل وما نشبع. قال «فلعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه» ورواه أبو داود، وابن ماجه^(٢)، من طريق الوليد بن مسلم.

﴿الْيَوْمَ أَحِلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين، من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات. قال بعده ﴿الْيَوْمَ أَحِلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين، من اليهود والنصارى فقال ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة وعطاء والحسن، ومكحول وإبراهيم النخعي، والسدي ومقاتل بن حيان: يعني ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلال للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه، تعالى وتقدس.

وقد ثبت في الصحيح^(٣): عن عبد الله بن مغفل، قال: دلى بجراب من شحم يوم خيبر فاحتضته وقلت: لا أعطى اليوم من هذا أحدًا، والتفت فإذا النبي ﷺ يتشم، فاستدل به الفقهاء، على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة، قبل القسمة، وهذا ظاهر، واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة، على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم، كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم، فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله، لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قالوا: وهذا ليس من طعامهم، واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، وفي ذلك نظر، لأنه قضية عين، ويحتمل أن يكون شحمًا، يعتقدون حله كشحم الظهر والحوايا ونحوهما، والله أعلم، وأجود منه في الدلالة، ما ثبت في الصحيح^(٤): أن أهل خيبر أهدوا الرسول الله ﷺ شاة مصلية، وقد سموا ذراعها وكان يعجبه الذراع، فتناوله فنهش منه نهشة فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه، وأثر ذلك السم في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أبهره، وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور

(٣٨٨٧)، وأحمد (١٤٦٨٨).

(١) حسن: أحمد (١٥٦٤٨)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢١٢٨).

(٢) حسن: أبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٣) البخاري برقم (٥٥٠٨)، مسلم برقم (١٧٧٢).

(٤) البخاري برقم (٤٢٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل بيته فذكر الله عند دخوله وعند طعامه، قال الشيطان لا مبيت لكم ولا عشاء، وإذا دخل فلم يذكر اسم الله عند دخوله، قال الشيطان: أدركتم المبيت، فإذا لم يذكر اسم الله عند طعامه، قال: أدركتم المبيت والعشاء» لفظ أبي داود.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يزيد بن عبد ربه، حدثنا الوليد بن مسلم، عن وحشي بن حرب بن وحشي بن حرب عن أبيه، عن جده، أن رجلاً قال للنبي ﷺ: إنا نأكل وما نشبع. قال «فلعلكم تأكلون متفرقين اجتمعوا على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه» ورواه أبو داود، وابن ماجه^(٢)، من طريق الوليد بن مسلم.

﴿الْيَوْمَ أَحِلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفَحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ ﴿٥﴾﴾

لما ذكر تعالى ما حرمه على عباده المؤمنين، من الخبائث وما أحله لهم من الطيبات. قال بعده ﴿الْيَوْمَ أَحِلُّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ﴾ ثم ذكر حكم ذبائح أهل الكتابين، من اليهود والنصارى فقال ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قال ابن عباس وأبو أمامة ومجاهد وسعيد بن جبير، وعكرمة وعطاء والحسن، ومكحول وإبراهيم النخعي، والسدي ومقاتل بن حيان: يعني ذبائحهم، وهذا أمر مجمع عليه بين العلماء، أن ذبائحهم حلال للمسلمين، لأنهم يعتقدون تحريم الذبح لغير الله، ولا يذكرون على ذبائحهم إلا اسم الله، وإن اعتقدوا فيه تعالى ما هو منزه عنه، تعالى وتقدس.

وقد ثبت في الصحيح^(٣): عن عبد الله بن مغفل، قال: دلى بجراب من شحم يوم خيبر فاحتضته وقلت: لا أعطى اليوم من هذا أحدًا، والتفت فإذا النبي ﷺ يتشم، فاستدل به الفقهاء، على أنه يجوز تناول ما يحتاج إليه من الأطعمة ونحوها من الغنيمة، قبل القسمة، وهذا ظاهر، واستدل به الفقهاء الحنفية والشافعية والحنابلة، على أصحاب مالك في منعهم أكل ما يعتقد اليهود تحريمه من ذبائحهم، كالشحوم ونحوها مما حرم عليهم، فالمالكية لا يجوزون للمسلمين أكله، لقوله تعالى: ﴿وَطَعَامَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ﴾ قالوا: وهذا ليس من طعامهم، واستدل عليهم الجمهور بهذا الحديث، وفي ذلك نظر، لأنه قضية عين، ويحتمل أن يكون شحمًا، يعتقدون حله كشحم الظهر والحوايا ونحوهما، والله أعلم، وأجود منه في الدلالة، ما ثبت في الصحيح^(٤): أن أهل خيبر أهدوا الرسول الله ﷺ شاة مصلية، وقد سموا ذراعها وكان يعجبه الذراع، فتناوله فنهش منه نهشة فأخبره الذراع أنه مسموم فلفظه، وأثر ذلك السم في ثنايا رسول الله ﷺ وفي أبهره، وأكل معه منها بشر بن البراء بن معرور

(٣٨٨٧)، وأحمد (١٤٦٨٨).

(١) حسن: أحمد (١٥٦٤٨)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢١٢٨).

(٢) حسن: أبو داود (٣٧٦٤)، وابن ماجه (٣٢٨٦)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٣) البخاري برقم (٥٥٠٨)، مسلم برقم (١٧٧٢).

(٤) البخاري برقم (٤٢٤٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ثوبه، فجازاه النبي ﷺ ذلك بذلك^(١)، فأما الحديث الذي فيه «لا تصحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقي»^(٢) فمحمول على الندب والاستحباب، والله أعلم.

وقوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أى وأحل لكم نكاح الحرائر العفائف من النساء المؤمنات، وذكر هذا توطئة لما بعده، وهو قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فقبل أراد بالمحصنات الحرائر، دون الإماء، حكاه ابن جرير عن مجاهد، وإنما قال مجاهد: المحصنات الحرائر، فيحتمل أن يكون أراد ما حكاه عنه، ويحتمل أن يكون أراد بالحررة العفيفة، كما قاله مجاهد فى الرواية الأخرى عنه، وهو قول الجمهور هاهنا، وهو الأشبه، لثلا يجتمع فيها أن تكون ذمية، وهى مع ذلك غير عفيفة، فيفسد حالها بالكلية ويتحصل زوجها على ما قيل فى المثل: «حشفاً وسوء كيلة» والظاهر من الآية أن المراد بالمحصنات العفيفات عن الزنا، كما قال تعالى فى الآية الأخرى ﴿مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْتَوْحِشَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ﴾ [النساء: ٢٥] ثم اختلف المفسرون والعلماء فى قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ هل يعم كل كتابية عفيفة، سواء كانت حرة أو أمة، حكاه ابن جرير عن طائفة من السلف، ممن فسر المحصنة بالعفيفة.

وقيل: المراد بأهل الكتاب هاهنا الإسرائيليات، وهو مذهب الشافعى.

وقيل: المراد بذلك الذميات دون الحرييات، لقوله: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، وقد كان عبد الله بن عمر لا يرى التزويج بالنصرانية، ويقول: لا أعلم شركاً أعظم من أن تقول إن ربها عيسى، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ الآية [البقرة: ٢٢١].

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا محمد بن حاتم بن سليمان المؤدب، حدثنا القاسم بن مالك يعنى المزنى، حدثنا إسماعيل بن سميع عن أبى مالك الغفارى، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ قال فحجز الناس عنهن حتى نزلت الآية التى بعدها ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فنكح الناس نساء أهل الكتاب، وقد تزوج جماعة من الصحابة من نساء النصرارى، ولم يروا بذلك بأساً أخذاً بهذه الآية الكريمة ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فجعلوا هذه مخصصة للتى فى سورة البقرة ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّى يُؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٢٢١] إن قيل بدخول الكتابيات فى عمومها، وإلا فلا معارضة بينها وبينها، لأن أهل الكتاب قد انفصلوا فى ذكرهم عن المشركين فى غير موضع، كقوله تعالى: ﴿لَرَبِّكَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْآيَةُ﴾ [البينة: ١] وكقوله: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنِ أَسْلَمْتُمْ فَقَدْ أَهْتَدُوا﴾ الآية.

(١) البخاري (١٢٦٩)، مسلم (٢٧٧٤)، الترمذي (٣٠٩٨)، النسائي (١٩٠٠)، ابن ماجه (١٥٢٣)، أهد (٤٦٦٦)، من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.
(٢) حسن: أبو داود (٤٨٣٢)، والترمذي (٢٣٩٥)، وأحمد (١٠٩٤٤)، من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، انظر صحيح سنن أبى داود.

وقوله: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ يعني: مهورهن، أى كما هن محصنات عفائف فابذلوا لهن المهور عن طيب نفس، وقد أفتى جابر بن عبد الله وعامر الشعبي وإبراهيم النخعي والحسن البصرى، بأن الرجل إذا نكح امرأة فزنت قبل دخوله بها أنه يفرق بينه وبينها، وترد عليه ما بذل لها من المهر، رواه ابن جرير عنهم.

وقوله: ﴿مُحْصِنَاتٍ غَيْرَ مُسْكِنِينَ وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ فكما شرط الإحصان فى النساء، وهى العفة عن الزنا، كذلك شرطها فى الرجال، وهو أن يكون الرجل محصناً عفيفاً، ولهذا قال: ﴿غَيْرَ مُسْكِنِينَ﴾ وهم: الزناة الذين لا يرتدعون عن معصية ولا يردون أنفسهم عمن جاءهم، ﴿وَلَا مُتَّخِذَاتٍ أَخْدَانٍ﴾ أى: ذوى العشيقات اللاتي لا يفعلنون إلا معهن، كما تقدم فى سورة النساء سواء، ولهذا ذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إلى أنه لا يصح نكاح المرأة البغى حتى تتوب، وما دامت كذلك لا يصح تزويجها من رجل عفيف، وكذلك لا يصح عنده عقد الرجل الفاجر على عفيفة حتى يتوب ويقطع عما هو فيه من الزنا لهذه الآية وللحديث الآخر «لا ينكح الزانى المجلود إلا مثله»^(١). وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا سليمان بن حرب، حدثنا أبو هلال عن قتادة، عن الحسن، قال: قال عمر بن الخطاب: لقد هممت أن لا أدع أحداً أصاب فاحشة فى الإسلام أن يتزوج محصنة، فقال له أبى بن كعب: يا أمير المؤمنين، الشرك أعظم من ذلك، وقد يقبل منه إذا تاب، وسيأتى الكلام على هذه المسألة مستقصى عند قوله: ﴿الزَّانِ لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٣]، ولهذا قال تعالى هاهنا ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ﴾.

﴿يَتَأْتِيهَا الذَّيْرُ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥﴾﴾

قال كثيرون من السلف فى قوله: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾: معناه وأنتم محدثون، وقال آخرون: إذا قمتم من النوم إلى الصلاة، وكلاهما قريب. وقال آخرون: بل المعنى أعم من ذلك، فالآية أمره بالوضوء عند القيام إلى الصلاة، ولكن فى حق المحدث على سبيل الإيجاب، وفى حق المتطهر على سبيل الندب والاستحباب، وقد قيل: إن الأمر بالوضوء لكل صلاة كان واجباً فى ابتداء الإسلام، ثم نسخ، وقال الإمام أحمد بن حنبل^(٢): حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن علقمة بن مرثد، عن سليمان بن بريدة، عن أبيه، قال: كان النبى ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، فلما كان يوم الفتح توضأ

(١) صحيح: أبو داود (٢٠٥٢)، وأحمد (١٨١٠١) بلفظ الزوائد «المجلود لا ينكح إلا مثله» من حديث أبى هريرة رضي الله عنه، وانظر صحيح سنن أبى داود.
(٢) صحيح: أحمد (٢٢٥٢٠)، ورجاله ثقات.

ومسح على خفيه وصلى الصلوات بوضوء واحد، فقال له عمر: يا رسول الله، إنك فعلت شيئاً لم تكن تفعله. قال «إني عمدًا فعلته يا عمر»، وهكذا رواه مسلم وأهل السنن^(١) من حديث سفيان الثوري عن علقمة بن مرثد، ووقع في سنن ابن ماجه عن سفيان، عن محارب بن دثار بدل علقمة بن مرثد، كلاهما عن سليمان بن بريدة به، وقال الترمذي: حسن صحيح.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن عباد بن موسى، أخبرنا زياد بن عبد الله بن الطفيل البكائي، حدثنا الفضل بن المبرشر قال: رأيت جابر بن عبد الله يصلي الصلوات بوضوء واحد، فإذا بال أو أحدث، توضأ ومسح بفضل طهوره الخفين، فقلت: أبا عبد الله، شيء تصنعه برأيك؟ قال: بل رأيت النبي ﷺ يصنعه، فأنا أصنعه كما رأيت رسول الله يصنعه، وكذا رواه ابن ماجه^(٢) عن إسماعيل بن توبة، عن زياد البكائي به.

وقال أحمد^(٣): حدثنا يعقوب، حدثنا أبي عن ابن إسحاق، حدثني محمد بن يحيى بن حبان الأنصاري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عمر، قال: قلت له: رأيت وضوء عبد الله بن عمر لكل صلاة طاهرًا كان أو غير طاهر، عمن هو؟ قال: حدثته أسماء بنت زيد بن الخطاب أن عبد الله بن حنظلة بن أبي عامر بن الغسيل، حدثها أن رسول الله ﷺ كان أمر بالوضوء لكل صلاة طاهرًا كان أو غير طاهر، فلما شق ذلك على رسول الله ﷺ أمر بالسواك عند كل صلاة، ووضع عنه الوضوء إلا من حدث، فكان عبد الله يرى أن به قوة على ذلك كان يفعله حتى مات، وهكذا رواه أبو داود^(٤) عن محمد بن عوف الحمصي عن أحمد بن خالد الذهبي، عن محمد بن إسحاق، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن عبد الله بن عبد الله بن عمر، ثم قال أبو داود: ورواه إبراهيم بن سعد عن محمد بن إسحاق، فقال عبيد الله بن عمر: يعني كما تقدم في رواية الإمام أحمد، وأيا ما كان، فهو إسناده صحيح، وقد صرح ابن إسحاق فيه بالتحديث والسماع من محمد بن يحيى بن حبان، فزال محذور التدليس، لكن قال الحافظ ابن عساكر: رواه سلمة بن الفضل وعلى بن مجاهد عن ابن إسحاق، عن محمد بن طلحة بن يزيد بن ركانة، عن محمد بن يحيى بن حبان به، والله أعلم، وفيه فعل ابن عمر هذا ومداومته على إسباغ الوضوء لكل صلاة دلالة على استحباب ذلك، كما هو مذهب الجمهور.

وقال ابن جرير: حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، حدثنا أزهر عن ابن عون، عن ابن سيرين: أن الخلفاء كانوا يتوضئون لكل صلاة.

وقال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت مسعود بن علي الشيباني، سمعت عكرمة يقول: كان علي رضي الله عنه يتوضأ عند كل صلاة ويقرأ هذه الآية ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ لَا يَأْمَنُونَ إِذَا قُتِلُوا إِلَى الْهَبْكَؤَةِ﴾ الآية. وحدثنا ابن المثنى، حدثني وهب بن

(١) مسلم (٢٧٧) بلفظ: «يا عمر» أبو داود (١٧٢) بلفظ: «عمدًا صنعت»، الترمذي (٦١) بلفظ: «عمدًا فعلته» النسائي (١٣٣) بلفظ: «عمدًا فعلته يا عمر» ابن ماجه (٥١٠) دون لفظ «عمدًا فعلته يا عمر».
 (٢) صحيح: ابن ماجه (٥١١) يشهد له الحديث السابق، وانظر صحيح سنن ابن ماجه.
 (٣) حسن: أحمد (٢١٤٥٣)، وانظر المشكاة (٤٢٦).
 (٤) حسن: أبو داود (٤٨)، انظر صحيح سنن أبي داود.

جرير، أخبرنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال بن سبرة قال: رأيت عليًا صلى الظهر ثم قعد للناس في الرحبة، ثم أتى بماء فغسل وجهه ويديه، ثم مسح برأسه ورجليه، وقال: هذا وضوء من لم يحدث. وحدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا هشيم عن مغيرة عن إبراهيم: أن عليًا اكتال من حُب، فتوضأ وضوءًا فيه تجوز، فقال: هذا وضوء من لم يحدث. وهذه طرق جيدة عن علي يقوى بعضها بعضها.

وقال ابن جرير أيضًا: حدثنا ابن بشار، حدثنا ابن أبي عدي عن حميد، عن أنس، قال: توضأ عمر بن الخطاب وضوءًا فيه تجوز خفيًا، فقال: هذا وضوء من لم يحدث. وهذا إسناد صحيح. وقال محمد بن سيرين: كان الخلفاء يتوضئون لكل صلاة. وأما ما رواه أبو داود الطيالسي عن أبي هلال، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، أنه قال: الوضوء من غير حدث اعتداء. فهو غريب عن سعيد بن المسيب، ثم هو محمول على أن من اعتقد وجوبه فهو معتد، وأما مشروعيته استحبابًا فقد دلت السنة على ذلك. وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرحمن بن مهدي، حدثنا سفيان عن عمرو بن عامر الأنصاري، سمعت أنس بن مالك يقول: كان النبي ﷺ يتوضأ عند كل صلاة، قال: قلت: فأنتم كيف كنتم تصنعون؟ قال: كنا نصلى الصلوات كلها بوضوء واحد ما لم نحدث. وقد رواه البخاري وأهل السنن^(٢) من غير وجه عن عمرو بن عامر به.

وقال ابن جرير^(٣): حدثنا أبو سعيد البغدادي، حدثنا إسحاق بن منصور عن هُرَيم، عن عبد الرحمن بن زياد، هو الأفريقي، عن أبي غطفيف، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ «من توضأ على طهر، كتب له عشر حسنات» ورواه أيضًا من حديث عيسى بن يونس عن الأفريقي، عن أبي غطفيف، عن ابن عمر، فذكره، وفيه قصة. وهكذا رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه^(٤)، من حديث الأفريقي به نحوه. وقال الترمذي: وهو إسناد ضعيف.

وقال ابن جرير^(٥): وقد قال قوم: إن هذه الآية نزلت إعلًا من الله أن الوضوء لا يجب إلا عند القيام إلى الصلاة دون غيرها من الأعمال، وذلك لأنه عليه السلام كان إذا أحدث امتنع من الأعمال كلها حتى يتوضأ. حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان، عن جابر، عن عبد الله بن أبي بكر بن عمرو بن حزم، عن عبد الله بن علقمة بن الفغواء، عن أبيه، قال: كان رسول الله ﷺ إذا أراد البول نكلمه ولا يكلمنا، ونسلم عليه فلا يرد علينا، حتى نزلت آية الرخصة «يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمُوا إِلَى الصَّلَاةِ» الآية، ورواه ابن أبي حاتم عن محمد بن مسلم عن أبي كريب به نحوه، وهو حديث غريب جدًا، وجابر هذا هو ابن يزيد الجعفي ضعفوه.

وقال أبو داود^(٦): حدثنا مسدد، حدثنا إسماعيل، حدثنا أيوب عن عبد الله بن أبي مليكة، عن

(١) صحيح: أحد (١١٩٣٧)، ورجاله ثقات.

(٢) البخاري (٢١٤)، أبو داود (١٧١)، الترمذي (٥٨)، النسائي (١٣١)، ابن ماجه (٥٠٩)، الدارمي (٧٢٠).

(٣) ابن جرير الطبري في تفسيره (١١٥/٦).

(٤) الترمذي (٥٩)، أبو داود (٦٢)، ابن ماجه (٥١٢).

(٥) ضعيف: الطبري (١١٥/٦)، وفيه جابر الجعفي ضعيف.

(٦) صحيح: أبو داود (٣٧٦٠)، انظر صحيح سنن أبي داود.

عبد الله بن عباس: أن رسول الله ﷺ خرج من الخلاء فقدم إليه طعام، فقالوا: ألا نأتيك بوضوء؟ فقال «إنما أمرت بالوضوء إذا قمت إلى الصلاة» وكذا رواه الترمذى ^(١) عن أحمد بن منيع، والنسائي عن زياد بن أيوب عن إسماعيل وهو ابن عليّة به. وقال الترمذى: هذا حديث حسن. وروى مسلم ^(٢) عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن سعيد بن الحويرث، عن ابن عباس قال: كنا عند النبي ﷺ فأتى الخلاء ثم إنه رجع فأتى بطعام، فقيل: يا رسول الله ألا تتوضأ؟ فقال «لم؟ أصل فاتوضأ».

وقوله «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» قد استدل طائفة من العلماء بقوله تعالى: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» على وجوب النية في الوضوء، لأن تقدير الكلام: «إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم» لها، كما تقول العرب: إذا رأيت الأمير فقم، أى له. وقد ثبت في الصحيحين ^(٣) حديث «الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى».

ويستحب قبل غسل الوجه أن يذكر اسم الله تعالى على وضوئه، لما ورد في الحديث من طرق جيدة عن جماعة من الصحابة، عن النبي ﷺ أنه قال: «لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه» ^(٤). ويستحب أن يغسل كفيه قبل إدخالهما في الإناء ويتأكد ذلك عند القيام من النوم، لما ثبت في الصحيحين ^(٥) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخل يده في الإناء قبل أن يغسلها ثلاثاً، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده». وحد الوجه عند الفقهاء ما بين منابت شعر الرأس، ولا اعتبار بالصلع ولا بالغمغم إلى منتهى اللحيين والذقن طوياً، ومن الأذن إلى الأذن عرضاً، وفي النزعتين والتحفيف خلاف: هل هما من الرأس أو الوجه؟ وفي المسترسل من اللحية عن محل الفرض، قولان: أحدهما: أنه يجب إفاضة الماء عليه لأنه تقع به المواجهة.

وروى في حديث أن النبي ﷺ رأى رجلاً مغطياً لحيته فقال «اكشفها فإن اللحية من الوجه» ^(٦). وقال مجاهد: هي من الوجه، ألا تسمع إلى قول العرب في الغلام: إذا نبئت لحيته طلع وجهه. ويستحب للمتوضئ أن يخلل لحيته إذا كانت كثرة. قال الإمام أحمد ^(٧): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا إسرائيل عن عامر، عن شقيق بن جمره، عن أبي وائل قال: رأيت عثمان توضأ، فذكر الحديث، قال: وخلل اللحية ثلاثاً حين غسل وجهه، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ فعل الذي رأيتموني فعلت. ورواه الترمذى وابن ماجه ^(٨) من حديث عبد الرزاق، وقال الترمذى: حسن صحيح، وحسنه البخارى. وقال أبو داود ^(٩): حدثنا أبو توبة الربيع بن نافع، حدثنا أبو المليح، حدثنا الوليد بن زوران، عن

(١) صحيح: الترمذى (١٨٤٧)، والنسائي (١٣٢)، انظر صحيح جامع الترمذى.

(٢) مسلم برقم (٣٧٤).

(٣) البخارى (١)، ومسلم (١٩٠٧)، بلفظ: «إنما الأعمال بالنية»، من حديث حممر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٤) حسن: الترمذى (٢٥)، من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه، انظر صحيح جامع الترمذى.

(٥) البخارى (١٦٢)، مسلم (٢٧٨).

(٦) ضعيف: قال عنه ابن حجر في «التلخيص» (٥٦/١): إسناده مظلم.

(٧) ضعيف: أحمد (٤٩١)، انظر ضعيف ابن خزيمة (١٥٢).

(٨) صحيح: الترمذى (٣١)، ابن ماجه (٤٣٠)، انظر صحيح جامع الترمذى.

(٩) صحيح: أبو داود (١٤٥)، انظر صحيح سنن أبي داود.

أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان إذا توضأ، أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه يخلل به لحيته، وقال «هكذا أمرني به ربي عز وجل» تفرد به أبو داود، وقد روى هذا من غير وجه عن أنس. قال البيهقي: وروينا في تخليل اللحية عن عمار وعائشة وأم سلمة، عن النبي ﷺ، ثم عن علي وغيره، وروينا في الرخصة في تركه عن ابن عمر والحسن بن علي، ثم عن النخعي وجماعة من التابعين.

وقد ثبت عن النبي ﷺ من غير وجه في الصحاح^(١) وغيرها أنه كان إذا توضأ تمضمض واستنشق، فاختلف الأئمة في ذلك هل هما واجبان في الوضوء والغسل كما هو مذهب أحمد بن حنبل رحمه الله، أو مستحبان فيهما، كما هو مذهب الشافعي ومالك، لما ثبت في الحديث الذي رواه أهل السنن^(٢)، وصححه ابن خزيمة عن رفاعة بن رافع الزرقي أن النبي ﷺ قال: للمسيء صلته «توضأ كما أمرك الله». أو يجبان في الغسل دون الوضوء كما هو مذهب أبي حنيفة، أو يجب الاستنشاق دون المضمضة كما هو رواية عن الإمام أحمد، لما ثبت في الصحيحين^(٣) أن رسول الله ﷺ قال «من توضأ فليستثر»، وفي رواية «إذا توضأ أحدكم فليجعل في منخريه من الماء ثم ليستثر»^(٤) والانتثار هو المبالغة في الاستنشاق.

وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا أبو سلمة الخزاعي، حدثنا سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس أنه توضأ فغسل وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فتمضمض بها واستثر، ثم أخذ غرفة فجعل بها هكذا، يعني أضافها إلى يده الأخرى، فغسل بها وجهه، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليمنى، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها يده اليسرى، ثم مسح رأسه، ثم أخذ غرفة من ماء ثم رش على رجله اليمنى حتى غسلها، ثم أخذ غرفة من ماء فغسل بها رجله اليسرى، ثم قال: هكذا رأيت رسول الله ﷺ. يعني يتوضأ. ورواه البخاري^(٦) عن محمد بن عبد الرحيم عن أبي سلمة منصور بن سلمة الخزاعي به.

وقوله «وَأَيِّدِيكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ» أي مع المرافق كما قال تعالى «وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا غَيْرًا» [النساء: ٢] وقد روى الحافظ الدارقطني وأبو بكر البيهقي^(٧) من طريق القاسم بن محمد عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن جده، عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه. ولكن القاسم هذا متروك الحديث، وجده ضعيف، والله أعلم.

ويستحب للمتوضئ أن يشرع في العضد فيغسله مع ذراعيه؛ لما روى البخاري ومسلم^(٨) من حديث نعيم المجرم، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «إن أمتي يدعون يوم القيامة غراً محجلين

(١) البخاري (١٦٤)، مسلم (٢٢٩٠)، أبو داود (١٠٦)، النسائي (٨٤)، أحمد (٥٥٤).

(٢) صحيح: أبو داود (٨٦١)، الترمذي (٣٠٢)، ابن خزيمة (٢٧٤/١)، (٥٤٥)، وانظر صحيح سنن أبي داود.

(٣) البخاري برقم (١٦١)، ومسلم برقم (٢٣٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري برقم (١٦٢)، مسلم برقم (٢٣٧) من حديث أبي هريرة.

(٥) المسند (٢٤١٢)، ورجاله ثقات.

(٦) البخاري برقم (١٤٠).

(٧) ضعيف: الدارقطني (٨٣/١)، برقم (١٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٥٦/١)، برقم (٢٥٩)، وقد ضعفه المصنف.

(٨) البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

من آثار الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل». وفي صحيح مسلم^(١) عن قتيبة عن خلف بن خليفة، عن أبي مالك الأشجعي، عن أبي حازم، عن أبي هريرة قال: سمعت خليلي ﷺ يقول «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء».

وقوله تعالى ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ اختلفوا في هذه الباء: هل هي للإلصاق؟ وهو الأظهر، أو للتبعض؟ وفيه نظر، على قولين. ومن الأصوليين من قال: هذا مجمل فليرجع في بيانه إلى السنة. وقد ثبت في الصحيحين^(٢) من طريق مالك عن عمرو بن يحيى المازني، عن أبيه أن رجلاً قال لعبد الله بن زيد بن عاصم، وهو جد عمرو بن يحيى، وكان من أصحاب النبي ﷺ: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ فقال عبد الله بن زيد: نعم فدعا بوضوء فأفرغ على يديه، فغسل يديه مرتين مرتين، ثم مضمض واستنشق ثلاثاً، وغسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يديه مرتين مرتين إلى المرفقين، ثم مسح رأسه بيديه، فأقبل بهما وأدبر، بدأ بمقدم رأسه، ثم ذهب بهما إلى قفاه، ثم ردهما حتى رجع إلى المكان الذي بدأ منه، ثم غسل رجليه. وفي حديث عبد خير^(٣) عن علي في صفة وضوء رسول الله ﷺ، مثله، ففي هذه الأحاديث دلالة لمن ذهب إلى وجوب تكميل مسح جميع الرأس، كما هو مذهب الإمام مالك وأحمد بن حنبل لا سيما على قول من زعم أنها خرجت مخرج البيان لما أجمل في القرآن.

وقد ذهب الحنفية إلى وجوب مسح ربيع الرأس، وهو مقدار الناصية، وذهب أصحابنا إلى أنه إنما يجب ما يطلق عليه اسم مسح ولا يتقدر ذلك بحد، بل لو مسح بعض شعرة من رأسه أجزاء، واحتج الفريقان بحديث المغيرة بن شعبة قال: تخلف النبي ﷺ فتخلفت معه، فلما قضى حاجته قال: «هل معك ماء؟» فأتيته بمطهرة فغسل كفيه ووجهه، ثم ذهب يحسر عن ذراعيه فضاقت كم الجبة، فأخرج يديه من تحت الجبة، وألقى الجبة على منكبيه، فغسل ذراعيه ومسح بनावيته، وعلى العمامة وعلى خفيه. وذكر باقي الحديث وهو في صحيح مسلم^(٤) وغيره، فقال لهم أصحاب الإمام أحمد: إنما اقتصر على مسح الناصية لأنه كمل مسح بقية الرأس على العمامة، ونحن نقول بذلك وأنه يقع عن الموقع، كما وردت بذلك أحاديث كثيرة، وأنه كان يمسح على العمامة وعلى الخفين، فهذا أولى، وليس لكم فيه دلالة على جواز الاقتصار على مسح الناصية أو بعض الرأس من غير تكميل على العمامة، والله أعلم.

ثم اختلفوا في أنه هل يستحب تكرار مسح الرأس ثلاثاً، كما هو المشهور من مذهب الشافعي، أو يستحب مسحة واحدة كما هو مذهب أحمد بن حنبل ومن تابعه على قولين، فقال عبد الرزاق^(٥)،

(١) مسلم برقم (٢٥٠). (٢) البخاري برقم (١٨٥)، مسلم (٢٣٥).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (١١١)، الترمذي (٤٨)، النسائي (٩١) أحمد (٦٢٦)، من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٤) صحيح: أبو داود (١٢١)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٥) مسلم برقم (٢٧٤).

(٦) صحيح: عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٤/١)، برقم (١٣٩)، انظر صحيح الجامع (٦١٧٦).

عن معمر عن الزهري، عن عطاء بن يزيد الليثي، عن حمران بن أبان، قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فأفرغ على يديه ثلاثاً فغسلهما، ثم تمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه ثلاثاً، ثم غسل يده اليمنى إلى المرفق ثلاثاً، ثم غسل اليسرى مثل ذلك، ثم مسح برأسه، ثم غسل قدمه اليمنى ثلاثاً، ثم اليسرى ثلاثاً مثل ذلك، ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ نحو وضوئي هذا، ثم قال «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه، غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين^(١) من طريق الزهري به نحو هذا. وفي سنن أبي داود^(٢) من رواية عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة، عن عثمان في صفة الوضوء: ومسح برأسه مرة واحدة، وكذا من رواية عبد خير عن علي مثله. واحتج من استحباب تكرار مسح الرأس بعموم الحديث الذي رواه مسلم^(٣) في صحيحه عن عثمان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ توضأ ثلاثاً ثلاثاً.

وقال أبو داود^(٤): حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا الضحاك بن مخلد، حدثنا عبد الرحمن بن وردان، حدثني أبو سلمة بن عبد الرحمن، حدثني حمران قال: رأيت عثمان بن عفان توضأ فذكر نحوه، ولم يذكر المضمضة والاستنشاق، قال فيه: ثم مسح رأسه ثلاثاً، ثم غسل رجليه ثلاثاً ثم قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ هكذا، وقال «من توضأ دون كفاه» تفرد به أبو داود. ثم قال: وأحاديث عثمان في الصحاح تدل على أنه مسح الرأس مرة واحدة.

قوله: ﴿وَأَرْبَابَكُمْ إِلَى الْكَمِينِ﴾ قرئ ﴿وَأَرْبَابَكُمْ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿فَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ وأيديكم.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو زرعة، حدثنا أبو سلمة، حدثنا وهيب عن خالد، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه قرأها ﴿وَأَرْبَابَكُمْ﴾ يقول: رجعت إلى الغسل. وروى عن عبد الله بن مسعود وعروة وعطاء وعكرمة والحسن ومجاهد وإبراهيم والضحاك والسدي ومقاتل بن حيان والزهري وإبراهيم التيمي نحو ذلك، وهذه قراءة ظاهرة في وجوب الغسل، كما قاله السلف، ومن هاهنا ذهب من ذهب إلى وجوب الترتيب في الوضوء كما هو مذهب الجمهور، خلافاً لأبي حنيفة حيث لم يشترط الترتيب، بل لو غسل قدميه، ثم مسح رأسه، وغسل يديه، ثم وجهه، أجزاء ذلك، لأن الآية أمرت بغسل هذه الأعضاء، والواو لا تدل على الترتيب، وقد سلك الجمهور في الجواب عن هذا البحث طرقتاً: فمنهم من قال: الآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء عند القيام إلى الصلاة، لأنه مأمور به بفناء التعقيب وهي مقتضية للترتيب، ولم يقل أحد من الناس بوجوب غسل الوجه أولاً، ثم لا يجب الترتيب بعده، بل القائل اثنان: أحدهما يوجب الترتيب كما هو واقع في الآية، والآخر يقول: لا يجب الترتيب مطلقاً، والآية دلت على وجوب غسل الوجه ابتداء، فوجب الترتيب فيما بعده بالإجماع حيث لا فارق.

ومنهم من قال: لا نسلم أن الواو لا تدل على الترتيب، بل هي دالة كما هو مذهب طائفة من النحاة

(١) البخاري برقم (١٦٠)، مسلم برقم (٢٢٦).

(٢) حسن صحيح: أبو داود (١٠٨)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٣) مسلم برقم (٢٣٠).

(٤) حسن صحيح: أبو داود (١٠٦)، انظر صحيح سنن أبي داود.

وأهل اللغة وبعض الفقهاء، ثم يقول بتقدير تسليم كونها لا تدل على الترتيب اللغوي هي دالة على الترتيب شرعاً فيما من شأنه أن يرتب، والدليل على ذلك أنه ﷺ لما طاف بالبيت خرج من باب الصفا وهو يتلو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن سَعَابِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، ثم قال «أبدأ بما بدأ الله به» لفظ مسلم^(١)، ولفظ النسائي^(٢) «أبدءوا بما بدأ الله به» وهذا لفظ أمر، وإسناده صحيح، فدل على وجوب البداءة بما بدأ الله به، وهو معنى كونها تدل على الترتيب شرعاً، والله أعلم.

ومنهم من قال: لما ذكر الله تعالى هذه الصفة في هذه الآية على هذا الترتيب، فقطع النظر عن النظر، وأدخل الممسوح بين المغسولين، دل ذلك على إرادة الترتيب. ومنهم من قال: لا شك أنه قد روى أبو داود^(٣) وغيره من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه، عن جده أن رسول الله ﷺ توضأ مرة مرة، ثم قال «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به» قالوا: فلا يخلو إما أن يكون توضأ مرتباً فيجب الترتيب، أو يكون توضأ غير مرتب فيجب عدم الترتيب، ولا قائل به، فوجب ما ذكرناه.

وأما القراءة الأخرى وهي قراءة من قرأ: «وَأَرْجُلِكُمْ» بالخفض، فقد احتج بها الشيعة في قولهم بوجود مسح الرجلين، لأنها عندهم معطوفة على مسح الرأس. وقد روى عن طائفة من السلف ما يوهم القول بالمسح فقال ابن جرير: حدثني يعقوب بن إبراهيم، حدثنا ابن علي، حدثنا حميد قال: قال موسى بن أنس لأنس ونحن عنده: يا أبا حمزة، إن الحجاج خطبنا بالأهواز ونحن معه، فذكر الطهور فقال: اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برءوسكم وأرجلكم، وأنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما، فقال أنس: صدق الله، وكذب الحجاج، قال الله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ﴾ قال: وكان أنس إذا مسح قدميه بلهما، إسناد صحيح إليه.

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا مؤمل، حدثنا حماد، حدثنا عاصم الأحول عن أنس قال: نزل القرآن بالمسح والسنة بال غسل. وهذا أيضاً إسناد صحيح. وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا محمد بن قيس الخراساني عن ابن جريج، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: الوضوء غسلتان ومسحتان. وكذا روى سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو معمر المنقري، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا علي بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَمْبَيْنِ﴾ قال: هو المسح، ثم قال: وروى عن ابن عمر وعلقمة وأبي جعفر محمد بن علي والحسن في إحدى الروايات، وجابر بن زيد ومجاهد في إحدى الروايات، نحوه.

وقال ابن جرير: حدثنا يعقوب، حدثنا ابن علي، حدثنا أيوب قال: رأيت عكرمة يمسح على رجله، قال: وكان يقوله.

(١) مسلم (١٢١٨)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) صحيح: النسائي برقم (٢٩٦٢)، انظر صحيح سنن النسائي.

(٣) أخرجه البخاري (١٥٧)، أبو داود (١٣٨)، الترمذي (٣٦) من طريق زيد بن أسلم عن عطاء عن ابن عباس، أما السند المذكور فلم أقف عليه.

وقال ابن جرير: حدثني أبو السائب، حدثنا ابن إدريس عن داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: نزل جبريل بالمسح، ثم قال الشعبي: ألا ترى أن التيمم أن يمسح ما كان غسلاً ويلغى ما كان مسحاً. وحدثنا ابن أبي زياد، حدثنا يزيد أخبرنا إسماعيل قلت لعامر: إن ناساً يقولون: إن جبريل نزل بغسل الرجلين. فقال: نزل جبريل بالمسح. فهذه آثار غريبة جداً، وهي محمولة على أن المراد بالمسح هو الغسل الخفيف لما سنذكره من السنة الثابتة في وجوب غسل الرجلين، وإنما جاءت هذه القراءة بالخفض؛ إما على المجاورة وتناسب الكلام كما في قول العرب: جحر ضبٌ خرب، وكقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ يَأْتِ سُؤْيُ خُضْرٍ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ [الإنسان: ٢١] وهذا ذائع شائع في لغة العرب سانخ.

ومنهم من قال: هي محمولة على مسح القدمين إذا كان عليهما الخفان، قاله أبو عبد الله الشافعي رحمه الله. ومنهم من قال: هي دالة على مسح الرجلين، ولكن المراد بذلك الغسل الخفيف كما وردت به السنة، وعلى كل تقدير فالواجب غسل الرجلين فرضاً لا بد منه للآية والأحاديث التي سنوردها، ومن أحسن ما يستدل به على أن المسح يطلق على الغسل الخفيف ما رواه الحافظ البيهقي^(١) حيث قال: أخبرنا أبو علي الروزباري، حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن محمود العسكري، حدثنا جعفر بن محمد القلانسي، حدثنا آدم، حدثنا شعبة، حدثنا عبد الملك بن ميسرة، سمعت النزال بن سبرة يحدث عن علي بن أبي طالب أنه صلى الظهر، ثم قعد في حوائج الناس في رجة الكوفة حتى حضرت صلاة العصر، ثم أتى بكوز من ماء فأخذ منه حفنة واحدة، فمسح بها وجهه ويديه ورأسه ورجليه، ثم قام فشرب فضله وهو قائم، ثم قال: إن ناساً يكرهون الشرب قائماً، وإن رسول الله ﷺ صنع كما صنعت، وقال «هذا وضوء من لم يحدث». رواه البخاري^(٢) في الصحيح عن آدم ببعض معناه. ومن أوجب من الشيعة مسحهما كما يمسح الخف فقد ضل وأضل، وكذا من جوز مسحهما وجوز غسلهما فقد أخطأ أيضاً، ومن نقل عن أبي جعفر بن جرير أنه أوجب غسلهما للأحاديث، وأوجب مسحهما للآية، فلم يحقق مذهبه في ذلك، فإن كلامه في تفسيره إنما يدل على أنه أراد أنه يجب ذلك الرجلين من دون سائر أعضاء الوضوء، لأنهما يليان الأرض والطين وغير ذلك، فأوجب ذلكهما ليذهب ما عليهما، ولكنه عبر عن ذلك بالمسح، فاعتقد من لم يتأمل كلامه أنه أراد وجوب الجمع بين غسل الرجلين ومسحهما، فحكاه من حكاه كذلك، ولهذا يستشكله كثير من الفقهاء وهو معذور، فإنه لا معنى للجمع بين المسح والغسل، سواء تقدمه أو تأخر عليه لاندراجه فيه، وإنما أراد الرجل ما ذكرته، والله أعلم، ثم تأملت كلامه أيضاً فإذا هو يحاول الجمع بين القراءتين في قوله «وَأَرْجُلِكُمْ» خفضاً على المسح، وهو الدلك، ونصباً على الغسل، فأوجبهما أخذاً بالجمع بين هذه وهذه.



(١) صحيح: البيهقي في «الكبرى» (١/٧٥)، برقم (٣٥٩)، انظر «مختصر الشامل» (١٧٩).

(٢) البخاري برقم (٥٦١٦).

ذكر الأحاديث الواردة في غسل الرجلين وأنه لا بد منه

قد تقدم في حديث أمير المؤمنين عثمان وعلى وابن عباس ومعاوية وعبد الله بن زيد بن عاصم والمقداد بن معد يكره، أن رسول الله ﷺ غسل الرجلين في وضوئه، إما مرة وإما مرتين أو ثلاثاً، على اختلاف رواياتهم، وفي حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، أن رسول الله ﷺ توضأ فغسل قدميه، ثم قال «هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به». وفي الصحيحين^(١) من رواية أبي عوانة عن أبي بشر، عن يوسف بن ماهك، عن عبد الله بن عمرو قال: تخلف عنا رسول الله ﷺ في سفرة سافرناها، فأدركتنا وقد أرهقتنا الصلاة، صلاة العصر، ونحن نتوضأ، فجعلنا نمسح على أرجلنا فنأدى بأعلى صوته «أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار». وكذلك هو في الصحيحين^(٢) عن أبي هريرة. وفي صحيح مسلم^(٣) عن عائشة عن النبي ﷺ أنه قال «أسبغوا الوضوء ويل للأعقاب من النار». وروى الليث بن سعد عن حيوة بن شريح، عن عتبة بن مسلم عن عبد الله بن الحارث بن جزء: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول «ويل للأعقاب وبطون الأقدام من النار» رواه البيهقي والحاكم^(٤)، وهذا إسناد صحيح. وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق أنه سمع سعيد بن أبي كرب أو شعيب بن أبي كرب قال: سمعت جابر بن عبد الله وهو على جمل يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ويل للعراقيب من النار». وحدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عن سعيد بن أبي كرب، عن جابر بن عبد الله قال: رأى النبي ﷺ في رجل رجل مثل الدرهم لم يغسله، فقال «ويل للأعقاب من النار». ورواه ابن ماجه^(٦) عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن أبي الأحوص، عن أبي إسحاق، عن سعيد به نحوه.

وكذا رواه ابن جرير^(٧) من حديث سفيان الثوري وشعبة بن الحجاج وغير واحد، عن أبي إسحاق السبيعي، عن سعيد بن أبي كرب، عن جابر عن النبي ﷺ مثله. ثم قال: حدثنا علي بن مسلم، حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث، حدثنا حفص عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر أن رسول الله ﷺ رأى قومًا يتوضئون لم يصب أعقابهم الماء، فقال «ويل للعراقيب من النار». وقال الإمام أحمد^(٨): حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا أيوب بن عتبة عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن معيقب، قال: قال رسول الله ﷺ «ويل للأعقاب من النار». تفرد به أحمد. وقال ابن جرير^(٩): حدثني علي بن عبد الأعلى، حدثنا المحاربي عن مطروح بن يزيد، عن

(١) البخاري برقم (٦٠)، مسلم برقم (٢٤١).

(٢) البخاري (١٦٥)، مسلم (٢٤٢).

(٣) صحيح: الحاكم في «المستدرک» (١/٢٦٧)، برقم (٥٨٠)، والبيهقي في «الكبرى» (١/٧٠)، برقم (٣٣١)، انظر صحيح الجامع (٧١٣٣).

(٤) صحيح: المسند (١٤٥٤٨)، انظر صحيح الجامع (٧١٣٤).

(٥) صحيح: ابن ماجه (٤٥٤)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٦) صحيح: ابن جرير (١٣٣/٦)، انظر صحيح الجامع (٧١٣٤).

(٧) صحيح لغيره: المسند (١٥٠٨٤)، وفيه أيوب بن عتبة: ثقة إلا في ابن كثير، وللحديث شواهد عدة صحيحة.

(٨) موضوع: ابن جرير (٦١٣٤)، وفيه علي ومطروح: ضعيفان، وعبيد الله بن زحر: صدوق يخطئ.

عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، قال قال رسول الله ﷺ «ويل للأعقاب من النار». قال: فما بقي في المسجد شريف ولا وضيع إلا نظرت إليه يقلب عرقوبيه، ينظر إليهما. وإحدنا أبو كريب، حدثنا حسين عن زائدة عن ليث، حدثني عبد الرحمن بن سابط عن أبي أمامة أو عن أخى أبي أمامة: أن رسول الله ﷺ أبصر قومًا يصلون، وفي عقب أحدهم أو كعب أحدهم، مثل موضع الدرهم أو موضع الظفر لم يمسه الماء، فقال «ويل للأعقاب من النار». قال: فجعل الرجل إذا رأى في عقبه شيئًا لم يصبه الماء، أعاد وضوءه.

ووجه الدلالة من هذه الأحاديث ظاهرة، وذلك أنه لو كان فرض الرجلين مسحهما، أو أنه يجوز ذلك فيهما لما تواعد على تركه، لأن المسح لا يستوعب جميع الرجل، بل يجري فيه ما يجري في مسح الخف، وهكذا وجه الدلالة على الشيعة الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى، وقد روى مسلم^(١) في صحيحه من طريق أبي الزبير عن جابر، عن عمر بن الخطاب: أن رجلاً توضع فترك موضع ظفر على قدمه، فأبصره النبي ﷺ فقال: «ارجع فأحسن وضوءك». وقال الحافظ أبو بكر البيهقي^(٢): أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو العباس محمد بن يعقوب، حدثنا محمد بن إسحاق الصاعاني، حدثنا هارون بن معروف، حدثنا ابن وهب، حدثنا جرير بن حازم أنه سمع قتادة بن دعامة، قال: حدثنا أنس بن مالك أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قد توضع فترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له رسول الله ﷺ «ارجع فأحسن وضوءك». وهكذا رواه أبو داود^(٣) عن هارون بن معروف وابن ماجه عن حرملة بن يحيى، كلاهما عن ابن وهب به. وهذا إسناد جيد، رجاله كلهم ثقات، لكن قال أبو داود: ليس هذا الحديث بمعروف، لم يروه إلا ابن وهب. وحدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، أخبرنا يونس وحמיד عن الحسن: أن رسول الله ﷺ، بمعنى حديث قتادة.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا إبراهيم بن أبي العباس، حدثنا بقية، حدثني بَحِير بن سعد عن خالد بن معدان، عن بعض أزواج النبي ﷺ: أن رسول الله ﷺ رأى رجلاً يصلي، وفي ظهره قدمه لمعة قلدر الدوهم لم يصبها الماء، فأمره رسول الله ﷺ أن يعيد الوضوء. ورواه أبو داود^(٥) من حديث بقية، وزاد: والصلاة. وهذا إسناد جيد قوى صحيح، والله أعلم.

وفي حديث حمران عن عثمان في صفة وضوء النبي ﷺ أنه خلل بين أصابعه. وروى أهل السنن^(٦) من حديث إسماعيل بن كثير عن عاصم بن لقيط بن صبرة، عن أبيه قال: قلت: يا رسول الله أخبرني عن الوضوء. فقال «أسبغ الوضوء، واخلل بين الأصابع، وبالغ في الاستنشاق إلا أن تكون صائماً».

(١) مسلم برقم (٢٤٣).

(٢) صحيح: البيهقي في «الكبرى» (٧٠/١)، برقم (٣٣٣)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٣) صحيح: أبو داود (١٧٣)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٤) صحيح: المسند (١٥٦٠٩)، انظر الإرواء (٨٦).

(٥) صحيح: أبو داود (١٧٥).

(٦) صحيح: أبو داود (١٤٢)، الترمذي (٧٨٨)، النسائي (١١٤)، ابن ماجه (٤٠٧)، أحمد (١٥٩٤٥)، انظر

صحيح سنن أبي داود.

وقال الإمام أحمد^(١) : حدثنا عبد الله بن يزيد أبو عبد الرحمن المقرئ، حدثنا عكرمة بن عمار، حدثنا شداد بن عبد الله الدمشقي قال: قال أبو أمامة: حدثنا عمرو بن عبسة قال: قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الوضوء. قال «ما منكم من أحد يقرب وضوءه ثم يتمضمض ويستنشق ويستنثر إلا خرت خطايا من فمه وخياشيمه، مع الماء حين يستنثر، ثم يغسل وجهه كما أمره الله إلا خرت خطايا وجهه من أطراف لحيته مع الماء، ثم يغسل يديه إلى المرفقين إلا خرت خطايا يديه من أطراف أنامله، ثم يمسح رأسه إلا خرت خطايا رأسه من أطراف شعره مع الماء، ثم يغسل قدميه إلى الكعبين كما أمره الله إلا خرت خطايا قدميه من أطراف أصابعه مع الماء، ثم يقوم فيحمد الله ويشن عليه بالذی هو له أهل، ثم يركع ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه».

قال أبو أمامة: يا عمرو، انظر ما تقول، سمعت هذا من رسول الله ﷺ، أيعطى هذا الرجل كله في مقامه؟ فقال عمرو بن عبسة: يا أبا أمامة، لقد كبرت سنن، ورق عظمي، واقترب أجلي، وما بي حاجة أن أكذب على الله وعلى رسول الله ﷺ، لو لم أسمع من رسول الله ﷺ إلا مرة أو مرتين أو ثلاثاً، لقد سمعته سبع مرات أو أكثر من ذلك. وهذا إسناد صحيح، وهو في صحيح مسلم^(٢) من وجه آخر، وفيه: «ثم يغسل قدميه كما أمره الله». فدل على أن القرآن يأمر بالغسل. وهكذا روى أبو إسحاق السبيعي عن الحارث، عن علي بن أبي طالب رضی الله عنه أنه قال: اغسلوا القدمين إلى الكعبين كما أمرتم. ومن هاهنا يتضح لك المراد من حديث عبد خير عن علي أن رسول الله ﷺ رش على قدميه الماء وهما في الثعلين، فدلکهما، إنما أراد غسلًا خفيفًا، وهما في الثعلين، ولا مانع من إيجاد الغسل والرجل في نعلها، ولكن في هذا رد على المتعمقين والمتنطعين من الموسوسين.

وهكذا الحديث الذي أورده ابن جرير^(٣) على نفسه، وهو من روايته عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة قال: أتى رسول الله ﷺ سباطة قوم، فبال قائمًا ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على نعليه. وهو حديث صحيح وقد أجاب ابن جرير عنه بأن الثقات الحفاظ روه عن الأعمش، عن أبي وائل، عن حذيفة، قال: فبال قائمًا ثم توضأ ومسح على خفيه. قلت: ويحتمل الجمع بينهما؛ بأن يكون في رجله خفان وعليهما نعلان، وهكذا الحديث الذي رواه الإمام أحمد بن حنبل^(٤): حدثنا يحيى عن شعبة، حدثني يعلى عن أبيه، عن أوس بن أبي أوس، قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ ومسح على نعليه، ثم قام إلى الصلاة. وقد رواه أبو داود^(٥) عن مسدد وعباد بن موسى، كلاهما عن هشيم، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن أوس بن أبي أوس قال: رأيت رسول الله ﷺ أتى سباطة قوم، فبال وتوضأ ومسح على نعليه وقدميه.

وقد رواه ابن جرير^(٦) من طريق شعبة ومن طريق هشيم، ثم قال: وهذا محمول على أنه توضأ

(١) المسند (١٦٥٧١)، وفيه عكرمة بن عمار: صدوق ربما وهم في حديثه.

(٢) مسلم برقم (٨٣٢).

(٣) صحيح: ابن جرير (١٣٥/٦)، وقد رواه من طرق متعددة، وانظر «تمام المنة» ص (٦٥).

(٤) المسند (١٥٧٢٥).

(٥) صحيح: أبو داود (١٦٠)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٦) ابن جرير (١٣٥/٦).

كذلك وهو غير محدث، إذ كان غير جائز أن تكون فرائض الله وسنن رسوله متنافية ومتعارضة، وقد صح عنه ﷺ الأمر بعموم غسل القدمين في الوضوء بالماء بالنقل المستفيض القاطع عذر من انتهى إليه وبلغه، ولما كان القرآن أمراً بغسل الرجلين كما في قراءة النصب، وكما هو الواجب في حمل قراءة الخفض عليها، توهم بعض السلف أن هذه الآية ناسخة لرخصة المسح على الخفين، وقد روى ذلك عن علي بن أبي طالب، ولكن لم يصح إسناده، ثم الثابت عنه خلافه، وليس كما زعموه، فإنه قد ثبت أن النبي ﷺ مسح على الخفين بعد نزول هذه الآية الكريمة.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زياد بن عبد الله بن علاثة عن عبد الكريم بن مالك الجزري، عن مجاهد، عن جرير بن عبد الله البجلي قال: أنا أسلمت بعد نزول المائدة، وأنا رأيت رسول الله ﷺ يمسح بعدما أسلمت. تفرد به أحمد. وفي الصحيحين^(٢) من حديث الأعمش عن إبراهيم، عن همام قال: بال جرير ثم توضأ ومسح على خفيه، فقيل: تفعل هذا؟ فقال: نعم، رأيت رسول الله ﷺ بال ثم توضأ ومسح على خفيه. قال الأعمش: قال إبراهيم: فكان يعجبهم هذا الحديث لأن إسلام جرير كان بعد نزول المائدة. لفظ مسلم. وقد ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ مشروعية المسح على الخفين قولاً منه وفعلًا، كما هو مقرر في كتاب الأحكام الكبير مع ما يحتاج إلى ذكره هناك من تأقيت المسح أو عدمه، أو التفصيل فيه، كما هو مبسوط في موضعه.

وقد خالفت الروافض ذلك كله بلا مستند بل بجهل وضلال، مع أنه ثابت في صحيح مسلم من رواية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما ثبت في الصحيحين عنه عن النبي ﷺ النهي عن نكاح المتعة، وهم يستبيحونها، وكذلك هذه الآية الكريمة دالة على وجوب غسل الرجلين مع ما ثبت بالتواتر من فعل رسول الله ﷺ على وفق ما دلت عليه الآية الكريمة، وهم مخالفون لذلك كله وليس لهم دليل صحيح في نفس الأمر، ولله الحمد.

وهكذا خالفوا الأئمة والسلف في الكعبين اللذين في القدمين فعندهم أنهما في ظهر القدم فعندهم في كل رجل كعب، وعند الجمهور أن الكعبين: هما العظمان الناتان عند مفصل الساق والقدم. قال الربيع: قال الشافعي: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين اللذين ذكرهما الله في كتابه في الوضوء هما الناتان، وهما مجمع مفصل الساق والقدم، هذا لفظه، فعند الأئمة رحمهم الله: في كل قدم كعبان، كما هو المعروف عند الناس، وكما دلت عليه السنة، ففي الصحيحين^(٣) من طريق حمران عن عثمان أنه توضأ فغسل رجله اليمنى إلى الكعبين، واليسرى مثل ذلك. وروى البخاري تعليقا مجزوماً به وأبو داود وابن خزيمة^(٤) في صحيحه من رواية أبي القاسم الحسين بن الحارث الجدلي، عن الثعمان بن بشير قال: أقبل علينا رسول الله ﷺ بوجهه فقال «أقيموا صفوفكم - ثلاثاً - والله لتقيمن صفوفكم أو ليخالفن الله بين قلوبكم» قال: فرأيت الرجل يلزق كعبه بكعب صاحبه، وركبته بركبة صاحبه، ومنكبه

(١) أحمد (١٨٧٣٦)، ورجاله ثقات.

(٢) البخاري برقم (٣٨٧)، مسلم برقم (٢٧٢).

(٣) البخاري برقم (١٩٣٤)، مسلم (٢٢٦)، واللفظ لمسلم.

(٤) البخاري برقم (٧١٧) تعليقا، وأبو داود (٦٦٢)، وابن خزيمة (٨٢/١)، برقم (١٦٠).

بمنكبه، لفظ ابن خزيمة، فليس يمكن أن يلزق كعبه بكعب صاحبه، إلا والمراد به العظم الناتئ فى الساق حتى يحاذى كعب الآخر، فدل ذلك على ما ذكرناه من أنهما العظامان الناتئان عند مفصل الساق والقدم كما هو مذهب أهل السنة، وقد قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إسماعيل بن موسى، أخبرنا شريك عن يحيى بن الحارث بن عبد الله التيمى عن الجابر، قال: نظرت فى قتلى أصحاب زيد، فوجدت الكعب فوق ظهر القدم، وهذه عقوبة عوقب بها الشيعة بعد قتلهم، تنكيلاً بهم فى مخالفتهم الحق وإصرارهم عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ عَلَىٰ الْمَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ كل ذلك قد تقدم الكلام عليه فى تفسير آية النساء، فلا حاجة بنا إلى إعادته لثلاث بطول الكلام، وقد ذكرنا سبب نزول آية التيمم هناك، لكن البخارى ^(١) روى هاهنا حديثاً خاصاً بهذه الآية الكريمة فقال: حدثنا يحيى بن سليمان، حدثنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث أن عبد الرحمن بن القاسم حدثه عن أبيه، عن عائشة قالت: سقطت قلادة لى بالبيداء ونحن داخلون المدينة، فأناخ رسول الله ﷺ ونزل، فثنى رأسه فى حجرى راقداً، فأقبل أبو بكر فلكنزنى لكزة شديدة وقال: حبست الناس فى قلادة، فبى الموت لمكان رسول الله ﷺ منى، وقد أوجعنى، ثم إن النبى ﷺ استيقظ، وحضرت الصبح، فالتمس الماء فلم يوجد، فنزلت ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُتِلُوا إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ إلى آخر الآية، فقال أسيد بن الحضير: لقد بارك الله للناس فيكم يا آل أبى بكر ما أنتم إلا بركة لهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ أى فلهذا سهل عليكم ويسر ولم يعسر، بل أباح التيمم عند المرض وعند فقد الماء توسعة عليكم، ورحمة بكم وجعله فى حق من شرع له يقوم مقام الماء إلا من بعض الوجوه كما تقدم بيانه، وكما هو مقرر فى كتاب الأحكام الكبير، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَليُتِمَّ بِكُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أى لعلكم تشكرون نعمه عليكم فيما شرعه لكم من التوسعة والرفقة والرحمة والتسهيل والسماحة، وقد وردت السنة بالحث على الدعاء عقب الوضوء بأن يجعل فاعله من المتطهرين الداخلين فى امثال هذه الآية الكريمة، كما رواه الإمام أحمد ومسلم وأهل السنن ^(٢) عن عقبه بن عامر قال: كانت علينا رعاية الإبل، فجاءت نوبتى فروحتها بعشى، فأدرت رسول الله ﷺ قائماً يحدث الناس، فأدرت من قوله «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلى ركعتين مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه، إلا وجبت له الجنة» قال: قلت: ما أجود هذه، فإذا قائل بين يدي يقول: التى قبلها أجود منها، فنظرت فإذا عمر رضى الله عنه فقال: إني قد رأيتك جثت أنفقا قال: «ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء، يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء» لفظ مسلم. وقال مالك ^(٣) عن سهيل بن أبى صالح، عن أبيه، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا توضأ العبد

(١) البخاري برقم (٦٨٤٥).

(٢) أحمد (١٦٨٦٣)، مسلم (٢٣٤)، أبو داود (١٦٩)، الترمذي (٥٥)، النسائي (١٤٨).

(٣) صحيح: مالك (٦٣)، انظر صحيح الجامع (٤٥٠).

المسلم أو المؤمن فغسل وجهه، خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة بطشتها يده مع الماء أو مع آخر قطر الماء، فإذا غسل رجله خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء، حتى يخرج نقياً من الذنوب» رواه مسلم^(١) عن أبي الطاهر، عن ابن وهب، عن مالك به.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام عن سفيان، عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن كعب بن مرة قال: قال رسول الله ﷺ «ما من رجل يتوضأ فيغسل يديه أو ذراعيه، إلا خرجت خطاياهما، فإذا غسل وجهه خرجت خطاياهما من وجهه، فإذا مسح رأسه خرجت خطاياها من رأسه، فإذا غسل رجله خرجت خطاياها من رجله» هذا لفظه. وقد رواه الإمام أحمد^(٣) عن محمد بن جعفر، عن شعبة عن منصور، عن سالم، عن مرة بن كعب أو كعب بن مرة السلمى، عن النبي ﷺ قال «وإذا توضأ العبد فغسل يديه خرجت خطاياها من بين يديه، وإذا غسل وجهه خرجت خطاياها من وجهه، وإذا غسل ذراعيه خرجت خطاياها من ذراعيه، وإذا غسل رجله خرجت خطاياها من رجله» قال شعبة: ولم يذكر مسح الرأس، وهذا إسناد صحيح. وروى ابن جرير^(٤) من طريق شمر بن عطية عن شهر بن حوشب، عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «من توضأ فأحسن الوضوء ثم قام إلى الصلاة، خرجت ذنوبه من سمعه وبصره ويديه ورجليه» وروى مسلم^(٥) فى صحيحه من حديث يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده مطور، عن أبي مالك الأشعري أن رسول الله ﷺ قال «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السماء والأرض، والصوم نور، والصبر ضياء، والصدقة برهان، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها». وفى صحيح مسلم^(٦) من رواية سماك بن حرب عن مصعب بن سعد، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا صلاة بغير طهور». وقال أبو داود الطيالسى^(٧): حدثنا شعبة عن قتادة، سمعت أبا المليح الهذلى يحدث عن أبيه، قال: كنت مع رسول الله ﷺ فى بيت فسمعت يقول «إن الله لا يقبل صلاة من غير طهور، ولا صدقة من غلول» وكذا رواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه^(٨) من حديث شعبة.

﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَتَأْتِي الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوِيْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ ءَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾﴾

(١) مسلم برقم (٢٤٤).

(٢) ابن جرير (١٣٨/٦)، ورجاله ثقات.

(٣) صحيح: للسند (١٧٥٩٧)، وقد صححه ابن كثير.

(٤) ابن جرير (١٣٨/٦)، وفيه إبراهيم بن يزيد عنده مناكير.

(٥) مسلم (٢٢٣).

(٦) مسلم (٢٢٤).

(٧) صحيح: أبو داود الطيالسى فى «مسنده» (١٨٧/١)، برقم (١٣١٩)، انظر صحيح الجامع (١٨٥٥).

(٨) صحيح: أحمد (٥١٠٢)، أبو داود (٥٩)، والنسائى (٢٥٢٤)، ابن ماجه (٢٧٢)، انظر صحيح سنن أبي داود.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ
 وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٨﴾

يقول تعالى مذكراً عباده المؤمنين نعمته عليهم في شرعه لهم هذا الدين العظيم . وإرساله إليهم هذا الرسول الكريم وما أخذ عليهم من العهد والميثاق في مبايعته على متابعتة ومناصرته ومؤازرته، والقيام بدينه وإبلاغه عنه، وقبوله منه، فقال تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَقَهُ الَّذِي وَاَفْتَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ وهذه هي البيعة التي كانوا يبائعون رسول الله ﷺ عليها عند إسلامهم كما قالوا: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله (١)، وقال الله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقُكُمْ إِن كُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الحديد: ٨]، وقيل: هذا تذكار لليهود بما أخذ عليهم من المواثيق والعهود في متابعة محمد ﷺ والانقياد لشرعه، رواه علي بن أبي طلحة عن ابن عباس .

وقيل: هو تذكار بما أخذ تعالى من العهد على ذرية آدم حين استخرجهم من صلبه ﴿وَأَشْهَدُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا﴾ [الأعراف: ١٧٢] قاله مجاهد ومقاتل بن حيان، والقول الأول أظهر، وهو المحكى عن ابن عباس والسدى واختاره ابن جرير .

ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تأكيد وتحريض على مواظبة التقوى في كل حال، ثم أعلمهم أنه يعلم ما يتخالج في الضمائر والسرائر من الأسرار والخواطر، فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ . وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ أَي كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْحَقِّ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لا لأجل الناس والسمعة، وكونوا ﴿شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل لا بالجور، وقد ثبت في الصحيحين (٢) عن النعمان بن بشير أنه قال: نحلني أبي نحلًا فقالت أمي عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى تشهد عليه رسول الله ﷺ، فجاءه ليشهده على صدقتي، فقال «أكل ولدك، نحلته مثله؟» قال: لا . قال «اتقوا الله واعدوا لى في أولادكم» . وقال «إني لا أشهد على جور» قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ أي لا يحملنكم بغض قوم على ترك العدل فيهم، بل استعملوا العدل في كل أحد صديقًا كان أو عدوًا، ولهذا قال ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ أي عدلكم أقرب إلى التقوى من تركه، ودل الفعل على المصدر الذي عاد الضمير عليه، كما في نظائره من القرآن وغيره، كما في قوله ﴿وَإِن قِيلَ لَكُمْ اتَّبِعُوا فَإْتِمُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٨] .

وقوله: ﴿هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ من باب استعمال أفعل التفضيل في المحل الذي ليس في الجانب الآخر منه شيء، كما في قوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤] وكقول بعض الصحابييات لعمر: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وسيجزىكم على ما علم من أفعالكم التي عملتموها، إن خيرًا فخير، وإن

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٦)، مسلم (١٧٠٩)، من حديث عبادة بن الصامت .

(٢) البخاري برقم (٢٥٨٦)، مسلم برقم (١٦٢٣) .

شراً فشر، ولهذا قال بعده ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ أي لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وهو الجنة التي هي من رحمته على عباده، لا ينالونها بأعمالهم بل برحمة منه وفضل، وإن كان سبب وصول الرحمة إليهم أعمالهم، وهو تعالى الذي جعلها أسباباً إلى نيل رحمته وفضله وعفوه ورضوانه فالكل منه وله، فله الحمد والمنة.

ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وهذا من عدله تعالى، وحكمته وحكمه الذي لا يجور فيه، بل هو الحكم العدل الحكيم القدير. وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾.

قال عبد الرزاق^(١): أخبرنا معمر عن الزهري، ذكره عن أبي سلمة، عن جابر: أن النبي ﷺ نزل منزلاً، وتفرق الناس في العضاة يستظلون تحتها، وعلق النبي ﷺ سلاحه بشجرة، فجاء أعرابي إلى سيف رسول الله ﷺ، فأخذه فسله، ثم أقبل على النبي ﷺ فقال: من يمنك مني؟ قال: «الله عز وجل». قال الأعرابي، مرتين أو ثلاثاً: من يمنك مني؟ والنبي ﷺ يقول «الله». قال: فشام الأعرابي السيف، فدعا النبي ﷺ أصحابه، فأخبرهم خبر الأعرابي، وهو جالس إلى جنبه، ولم يعاقبه، وقال معمر: كان قتادة يذكر نحو هذا، ويذكر أن قوماً من العرب أرادوا أن يفتكروا برسول الله ﷺ فأرسلوا هذا الأعرابي، وتناول ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية، وقصة هذا الأعرابي وهو غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح^(٢). وقال العوفي، عن ابن عباس في هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ وذلك أن قوماً من اليهود صنعوا الرسول الله ﷺ ولأصحابه طعاماً ليقتلوه، فأوحى الله تعالى إليه بشأنهم، فلم يأت الطعام وأمر أصحابه فلم يأتوه، رواه ابن أبي حاتم^(٣). وقال أبو مالك: نزلت في كعب بن الأشرف وأصحابه حين أرادوا أن يغدروا بمحمد وأصحابه في دار كعب بن الأشرف، رواه ابن أبي حاتم. وذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد، أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحي، لما جاءهم يستعينهم في دية العامرين، ووكلوا عمرو بن جحاش بن كعب بذلك، وأمره إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقى تلك الرحي من فوقه، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالثوا عليه، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه، فأنزل الله في ذلك ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسْطُورُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَنْتُمْ اللَّهُ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبَتُوكُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ثم أمر رسول الله ﷺ أن يغدو إليهم، فحاصرهم حتى أنزلهم فأجلاهم. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَلْبَتُوكُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ يعني من توكل على الله كفاه الله ما أهمه، وحفظه من شر الناس وعصمه.

(١) رواه ابن جرير (٣٢/٢) من طريق عبد الرزاق عن معمر عن الزهري به، ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٤١٣٩)، مسلم برقم (٨٤٣)، من حديث جابر.

(٣) أثر ابن عباس: رواه ابن جرير، (١٤٦/٦)، وفيه عطية العوفي وهو ضعيف. وبقية الآثار عن مجاهد وعكرمة

مرسلة ولم يصح منها في سبب النزول شيء.

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٦﴾ فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧﴾ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٨﴾﴾

أربع
الحزب
١١

لما أمر تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق، والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على كل من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، وطردًا عن بابه وجنابه، وحجابًا لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق، وهو العلم النافع، والعمل الصالح، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾ يعني عرفاء على قبائلهم بالمبايعة والسمع والطاعة لله ولرسوله ولكتابه، وقد ذكر ابن عباس ومحمد بن إسحاق وغير واحد أن هذا كان لما توجه موسى عليه السلام لقتال الجبابرة، فأمر بأن يقيم نقيبًا من كل سبط نقيب، قال محمد بن إسحاق: فكان من سبط روبيل شامون بن زكور، ومن سبط شمعون شافاط بن حري، ومن سبط يهوذا كالب بن يوفنا، ومن سبط أبين فيخائيل بن يوسف، ومن سبط يوسف وهو سبط إفرايم يوشع بن نون، ومن سبط بنيامين فلطمي بن رفون، ومن سبط زبلون جدى بن سودى، ومن سبط يوسف وهو منشأ بن يوسف جدى بن سوسى ومن سبط دان خملائيل بن جمل، ومن سبط أسير ساطور بن ملكيل، ومن سبط نفتالى نحى بن وفسى، ومن سبط جاد جولاييل بن ميكي.

وقد رأيت في السفر الرابع من التوراة تعداد النقباء على أسباط بنى إسرائيل وأسماء مخالفة لما ذكره ابن إسحاق، والله أعلم، قال فيها: فعلى بنى روبيل الصونى بن سادون، وعلى بنى شمعون شمواى بن صورشكى، وعلى بنى يهوذا يحشون بن عميآداب، وعلى بنى يساخر شال بن صاعون، وعلى بنى زبلون إلياب بن حالوب، وعلى بنى يوسف إفرايم ومنشا بن عمنهود، وعلى بنى منشأ حمليائيل بن يرصون، وعلى بنى بنيامين أبیدن بن جدعون، وعلى بنى دان جعيذر بن عميشذى، وعلى بنى أسير نحاييل بن عجران، وعلى بنى حاز السيف بن دعواييل، وعلى بنى نفتالى أجدع بن عميتان.

وهكذا لما بايع رسول الله ﷺ الأنصار ليلة العقبة، كان فيهم اثنا عشر نقيبًا: ثلاثة من الأوس: وهم

وأزرتموهم على الحق ﴿وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ وهو الإنفاق فى سبيله وابتغاء مرضاته، ﴿لَأُكْفِرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ أى ذنوبكم أمحوها وأسترها ولا أواخذكم بها، ﴿وَلَأُجَلِّتَنَّ جَنَّتِي تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أى أدفع عنكم المحذور وأحصل لكم المقصود.

وقوله ﴿فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أى فمن خالف هذا الميثاق بعد عقده وتوكيده وشده وججده، وعامله معاملة من لا يعرفه، فقد أخطأ الطريق الواضح، وعدل عن الهدى إلى الضلال، ثم أخبر تعالى عما حل بهم من العقوبة عند مخالفتهم ميثاقه ونقضهم عهده، فقال ﴿فِيمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَتُهُمْ﴾ أى فسبب نقضهم الميثاق الذى أخذ عليهم لعناهم، أى أبعدهناهم عن الحق وطردهناهم عن الهدى، ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَدْسِيَةً﴾ أى فلا يتعظون بموعظة لغلظها وقساوتها، ﴿يُحَرِّثُونَ الْكَيْدَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ أى فسدت فهمهم وساء تصرفهم فى آيات الله، وتأولوا كتابه على غير ما أنزله، وحملوه على غير مراده، وقالوا عليه ما لم يقل، عيادًا بالله من ذلك، ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أى وتركوا العمل به رغبة عنه.

وقال الحسن: تركوا عرى دينهم ووظائف الله تعالى التى لا يقبل العمل إلا بها، وقال غيره: تركوا العمل فصاروا إلى حالة رديئة، فلا قلوب سليمة، ولا فطر مستقيمة، ولا أعمال قوية، ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِبَةٍ مِنْهُمْ﴾ يعنى مكرهم وغدرهم لك ولأصحابك. وقال مجاهد وغيره: يعنى بذلك تمالؤهم على الفتك برسول الله ﷺ ﴿فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ﴾ وهذا هو عين النصر والظفر، كما قال بعض السلف: ما عاملت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وبهذا يحصل لهم تأليف وجمع على الحق، ولعل الله أن يهديهم، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ يعنى به الصفح عن أساء إليك. وقال قتادة: هذه الآية ﴿فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ﴾ منسوخة بقوله ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيءُ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أى ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى يتابعون المسيح ابن مريم عليه السلام وليسوا كذلك، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ، ومناصرته، وموازرته، واقتفاء آثاره، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض، ففعلوا كما فعل اليهود، خالفوا المواثيق، ونقضوا العهود، ولهذا قال تعالى: ﴿فَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى فآلقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم بعضًا، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة، وكذلك طوائف النصارى على اختلاف أجناسهم لا يزالون متباغضين متعادين يكفر بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، فكل فرقة تحرم الأخرى، ولا تدعها تلج معبدها، فالملكية تكفر اليعقوبية، وكذلك الآخرون، وكذلك النسطورية والآريوسية، كل طائفة تكفر الأخرى فى هذه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، ثم قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُعْطِيهِمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَسْتَنْتُونَ﴾ وهذا تهديد ووعد أكيد للنصارى على ما ارتكبوه من الكذب على الله وعلى رسوله، وما نسبوه إلى الرب عز وجل وتعالى وتقدس عن قولهم علوًا كبيرًا، من جعلهم له صاحبة وولداً، تعالى الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد.

﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿٥١﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن نفسه الكريمة أنه قد أرسل رسوله محمداً ﷺ بالهدى ودين الحق إلى جميع أهل الأرض: عربهم وعجمهم، أميهم وكتابيهم، وأنه بعثه بالبينات والفرق بين الحق والباطل، فقال تعالى: ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ أى يبين ما بدلوه وحرفوه وأولوه، واقتروا على الله فيه، ويسكت عن كثير مما غيره ولا فائدة فى بيانه. وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث الحسين بن واقد عن يزيد النحوى، عن عكرمة، عن ابن عباس رضى الله عنه، قال: من كفر بالرجم فقد كفر بالقرآن من حيث لا يحتسب قوله ﴿يَتَأْهَلِ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ فكان الرجم مما أخفوه. ثم قال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ثم أخبر تعالى عن القرآن العظيم الذى أنزله على نبيه الكريم فقال ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانُكُمُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ أى طرق النجاة والسلامة ومناهج الاستقامة، ﴿وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أى ينجيهم من المهالك، ويوضح لهم آيين المسالك فيصرف عنهم المحذور، ويحصل لهم أحب الأمور، وينفى عنهم الضلالة، ويرشدهم إلى أقوم حالة.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ

الْمَصِيرُ ﴿٥٤﴾﴾

يقول تعالى مخبراً وحاكماً بكفر النصارى فى ادعائهم فى المسيح ابن مريم، وهو عبد من عباد الله، وخلق من خلقه أنه هو الله، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، ثم قال مخبراً عن قدرته على الأشياء وكونها تحت قهره وسلطانه ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى لو أراد ذلك، فمن ذا الذى كان يمنعه منه أو من ذا الذى يقدر على صرفه عن ذلك، ثم قال ﴿وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أى جميع الموجودات ملكه وخلقه، وهو القادر على ما يشاء، لا يسأل عما يفعل لقدرته وسلطانه وعده وعظمته، وهذا رد على النصارى عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة.

ثم قال تعالى رادًا على اليهود والنصارى في كذبهم وافتراءهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾ أي نحن منتسبون إلى أنبيائه وهم بنوه، وله بهم عناية، وهو يحبنا، ونقلوا عن كتابهم أن الله تعالى قال لعبده إسرائيل: أنت ابني بكرى، فحملوا هذا على غير تأويله وحرفوه، وقد رد عليهم غير واحد ممن أسلم من عقلائهم وقالوا: هذا يطلق عندهم على الشريف والإكرام، كما نقل النصارى من كتابهم أن عيسى قال لهم: إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، يعني ربي وربكم، ومعلوم أنهم لم يدعوا لأنفسهم من النبوة ما ادعوا في عيسى عليه السلام وإنما أرادوا من ذلك معزتهم لديه وحظوتهم عنده، ولهذا قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه، قال الله تعالى رادًا عليهم ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ أي لو كنتم كما تدعون أبناء وأحباؤه، فلم أعد لكم نار جهنم على كفركم وكذبكم وافتراءكم؟.

وقد قال بعض شيوخ الصوفية لبعض الفقهاء: أين تجد في القرآن أن الحبيب لا يعذب حبيبه، فلم يرد عليه، فتلا عليه الصوفى هذه الآية ﴿قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ وهذا الذي قاله حسن، وله شاهد في المسند للإمام أحمد حيث قال: حدثنا ابن أبي عدي عن حميد، عن أنس، قال: مر النبي ﷺ في نفر من أصحابه، وصبى في الطريق، فلما رأت أمه القوم خشيت على ولدها أن يوطأ، فأقبلت تسمى وتقول: ابني ابني، وسعت فأخذته، فقال القوم: يا رسول الله، ما كانت هذه لتلقى ولدها في النار. قال: فَخَفَّضَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ فقال «لا والله عز وجل ما يلقي حبيبه في النار» تفرد به أحمد، ﴿بَلْ أَنتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقْنَا﴾ أي لكم أسوة أمثالكم من بنى آدم، وهو سبحانه الحاكم في جميع عبادته ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ﴾ أي هو فعال لما يريد، لا معقب لحكمه، وهو سريع الحساب، ﴿وَلِلَّهِ مَلَكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي الجميع ملكه وتحت قهره وسلطانه، ﴿وَأَلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ أي المرجع والمآب إليه، فيحكم في عبادته بما يشاء، وهو العادل الذي لا يجور.

وروى محمد بن إسحاق^(١) عن محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: وأتى رسول الله ﷺ نعمان بن أصا ويحري بن عمرو وشاس بن عدي فكلموه، وكلهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الله، وحذرهم نقمته، فقالوا: ما تخوفنا يا محمد، نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كقول النصارى، فأنزل الله فيهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾ إلى آخر الآية، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، ورويا أيضًا من طريق أسباط عن السدي في قول الله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ﴾ أما قولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ﴾، فإنهم قالوا: إن الله أرحم إلى إسرائيل: ولدًا من ولدك أدخلهم النار، فيكونون فيها أربعين ليلة حتى تطهرهم وتأكل خطاياهم، ثم ينادى مناد: أن أخرجوا كل مختون من ولد إسرائيل، فأخرجوهم فذلك قولهم ﴿إِن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّقْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤].

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرٍ مِّنَ الرَّسُولِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾﴾

يقول تعالى مخاطبًا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدًا ﷺ خاتم

(١) ضعيف: ابن جرير (٦/١٦٤)، وفي إسناده محمد بن أبي عماد: مجهول.

النبیین، الذى لا نبى بعده ولا رسول، بل هو المعقب لجميعهم، ولهذا قال: ﴿عَنْ فَتْرٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أى بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم، وقد اختلفوا فى مقدار هذه الفترة كم هي؟ فقال أبو عثمان النهدى وقتادة فى رواية عنه: كانت ستمائة سنة. ورواه البخارى عن سلمان الفارسى، وعن قتادة: خمسمائة وستون سنة. وقال معمر، عن بعض أصحابه: خمسمائة وأربعون سنة. وقال الضحاك: أربعمائة وبضع وثلاثون سنة. وذكر ابن عساکر فى ترجمة عيسى عليه السلام عن الشعبى أنه قال: ومن رفع المسيح إلى هجرة النبى ﷺ تسعمائة وثلاث وثلاثون سنة، والمشهور هو القول الأول، وهو أنها ستمائة سنة.

ومنهم من يقول: ستمائة وعشرون سنة، ولا منافاة بينهما، فإن القائل الأول أراد ستمائة سنة شمسية، والآخر أرواد قمرية، وبين كل مائة سنة شمسية وبين القمرية نحو من ثلاث سنين، ولهذا قال تعالى فى قصة أهل الكهف ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا سِتَّمَا﴾ [الكهف: ٢٥] أى قمرية لتكميل ثلاثمائة الشمسية التى كانت معلومة لأهل الكتاب، وكانت الفترة بين عيسى ابن مريم آخر أنبياء بنى إسرائيل وبين محمد خاتم النبیین من بنى آدم على الإطلاق، كما ثبت فى صحيح البخارى^(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أولى الناس بابن مريم لأنا؛ لأنه لا نبى بيني وبينه» وهذا فيه رد على من زعم أنه بعث بعد عيسى نبى، يقال له خالد بن سنان، كما حكاه القضاعى وغيره، والمقصود أن الله بعث محمداً ﷺ على فترة من الرسل، وطموس من السبل، وتغير الأديان، وكثرة عبادة الأوثان والنيران والصلبان، فكانت النعمة به أتم النعم، والحاجة إليه أمر عم، فإن الفساد كان قد عم جميع البلاد، والطغيان والجهل قد ظهر فى سائر العباد إلا قليلاً من المتمسكين ببقايا من دين الأنبياء الأقدمين، من بعض أحوار اليهود وعباد النصارى والصابثيين. كما قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا هشام، حدثنا قتادة عن مطرف، عن عياض بن حمار المجاشعى رضى الله عنه أن النبى ﷺ خطب ذات يوم، فقال فى خطبته «وإن ربي أمرني أن أعلمكم مما جهلتم مما علمني فى يومى هذا، كل مال نحلته عبادى حلال، وإنى خلقت عبادى حنفاء كلهم، وإن الشياطين أتتهم فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بى ما لم أنزل به سلطاناً، ثم إن الله عز وجل نظر إلى أهل الأرض فمقتهم: عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب، وقال: إنما بعثتك لأبتيك وأبتي بك، وأنزلت عليك كتاباً لا يغسله الماء، تقرأ نائماً ويقظاناً، ثم إن الله أمرني أن أحرق قريشاً فقلت: يا رب إذن يثلغوا رأسى فيدعوه خبزة، فقال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نغزك، وأنفق عليهم فسنفق عليك، وابعث جيشاً نبعث خمسة أمثاله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك، وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق متصدق، ورجل رحيم رقيق القلب بكل ذى قرى ومسلم، ورجل عفيف فقير ذو عيال متصدق، وأهل النار خمسة: الضعيف الذى لا زير له، والذين هم فيكم تبعاً أو تبعاء - شك يحيى - لا يبتغون أهلاً ولا مالاً، والخائن الذى لا يخفى له طمع وإن دق

(١) البخارى برقم (٣٤٤٢).

(٢) صحيح: المسند (١٧٠٣٠)، انظر المشكاة (٥٣٧١).

إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذاب، والشنظير الفاحش».

ثم رواه الإمام أحمد ومسلم والنسائي^(١) من غير وجه عن قتادة، عن مطرف بن عبد الله بن الشخير، وفي رواية سعيد عن قتادة التصريح بسماع قتادة هذا الحديث من مطرف، وقد ذكر الإمام أحمد في مسنده أن قتادة لم يسمعه من مطرف وإنما سمعه من أربعة عنه، ثم رواه هو عن روح، عن عوف، عن حكيم الأثرم، عن الحسن قال: حدثني مطرف عن عياض بن حمار فذكره. ورواه النسائي من حديث غندر عن عوف الأعرابي به. والمقصود من إيراد هذا الحديث قوله «وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجمهم وعربهم إلا بقايا من بني إسرائيل» وفي لفظ مسلم: من أهل الكتاب، فكان الدين قد التبس على أهل الأرض كلهم حتى بعث الله محمدًا ﷺ، فهدى الخلائق وأخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وتركهم على المحجة البيضاء والشرية الغراء، ولهذا قال تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ﴾ أي لثلاثا تحتجوا وتقولوا يا أيها الذين بدلوا دينهم وغيره ما جاءنا من رسول يبشر بالخير وينذر من الشر، فقد جاءكم بشير ونذير يعني محمدًا ﷺ، ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ قال ابن جرير: معناه إني قادر على عقاب من عصاني، وثواب من أطاعني.

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَا لَمْ يُوْت أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ يُقَوِّمُ أَذْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْدُوا عَلَىٰ أَذْيَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا يَسُوْسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا أَذْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابُ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِنَّ وَعَلَىٰ اللَّهُ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا يَسُوْسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا مُعْدُونُ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ

الْفَاسِقِينَ ﴿٤١﴾

يقول تعالى مخبرًا عن عبده ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام فيما ذكر به قومه من نعم الله عليهم وآلائه لديهم في جمعه لهم خير الدنيا والآخرة، لو استقاموا على طريقتهم المستقيمة، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوِّمُ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ﴾ أي كلما هلك نبي قام فيكم نبي من لدن أبيكم إبراهيم إلى من بعده، وكذلك كانوا لا يزال فيهم الأنبياء يدعون إلى الله ويحذرون نعمته حتى ختموا بعيسى ابن مريم عليه السلام، ثم أوحى الله إلى خاتم الأنبياء والرسول على الإطلاق محمد بن عبد الله المنسوب إلى إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وهو أشرف من كل من تقدمه منهم ﷺ.

(١) صحيح: أحمد (١٧٨٧٦)، ومسلم (٢٨٦٥).

وقوله ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال عبد الرزاق، عن الثوري، عن منصور، عن الحكم أو غيره، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال: الخادم والمرأة والبيت. وروى الحاكم في مستدركه من حديث الثوري أيضًا عن الأعمش، عن مجاهد عن ابن عباس قال: المرأة والخادم ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ آسَدًا مِنْ آلِ الْعَالِيَيْنِ﴾ قال: الذين هم بين ظهرائهم يومئذ. ثم قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه. وروى ميمون بن مهران عن ابن عباس قال: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له الزوجة والخادم والدار، سمي ملكًا.

وقال ابن جرير: حدثنا يونس بن عبد الأعلى، أنبأنا ابن وهب، أنبأنا أبو هانئ أنه سمع أبا عبد الرحمن الحبلي يقول: سمعت عبد الله بن عمرو بن العاص، وسأله رجل فقال: ألسنا من فقراء المهاجرين؟ فقال عبد الله: ألك امرأة تأوى إليها؟ قال: نعم. قال: ألك مسكن تسكنه؟ قال: نعم. قال: فأنت من الأغنياء. فقال: إن لي خادمًا. قال: فأنت من الملوك. وقال الحسن البصري: هل الملك إلا مركب وخادم ودار. رواه ابن جرير، ثم روى عن الحكم ومجاهد ومنصور وسفيان الثوري نحوًا من هذا. وحكاها ابن أبي حاتم عن ميمون بن مهران. وقال ابن شوذب: كان الرجل من بني إسرائيل إذا كان له منزل وخادم واستؤذن عليه، فهو ملك. وقال قتادة: كانوا أول من ملك الخدم.

وقال السدي في قوله ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ قال: يملك الرجل منكم نفسه وماله وأهله، رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم^(١): ذكر عن ابن لهيعة، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ قال: «كان بنو إسرائيل إذا كان لأحدهم خادم ودابة وامرأة، كتب ملكًا». وهذا حديث غريب من هذا الوجه.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا الزبير بن بكار، حدثنا أبو ضمرة أنس بن عياض، سمعت زيد بن أسلم يقول: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ فلا أعلم إلا أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان له بيت وخادم فهو ملك». وهذا مرسل غريب، وقال مالك: بيت وخادم وزوجة. وقد ورد في الحديث «من أصبح منكم معالي في جسده، أمنا في سربه، عنده قوت يومه، فكانما حيزت له الدنيا بحذافيرها»^(٣).

وقوله ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ آسَدًا مِنْ آلِ الْعَالِيَيْنِ﴾ يعني عالمي زمانكم، فإنهم كانوا أشرف الناس في زمانهم من اليونان والقبط وسائر أصناف بني آدم، كما قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْمِذْقَةَ وَالنَّبِيَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْهَا الطَّيِّبَاتِ وَقَضَلْنَاكَمْ عَلَى الْعَالِيَيْنِ﴾ [الجمانية: ١٦] وقال تعالى إخبارًا عن موسى لما قالوا ﴿أَجْمَلْ لَنَا إِلَهُكُمْ كَمَا لَكُمْ إِلَهُهُ﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ إِنَّ هَذَا لَهُمْ مَثَرٌ مَا هُمْ فِيهِ بِمُتَوَلِّينَ مَا كَانُوا يَمْشَرُونَ قَالَ أَعْبَدُوا اللَّهَ أَتَيْتَكُمْ إِلَهُهَا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالِيَيْنِ﴾ [الأمراء: ١٣٨-١٤٠] والمقصود أنهم كانوا أفضل أهل زمانهم، وإلا فهذه الأمة أشرف منهم، وأفضل عند الله، وأكمل شريعة، وأقوم منهاجًا، وأكرم نبيًا، وأعظم ملكًا، وأغزر أرزاقًا، وأكثر أموالًا وأولادًا، وأوسع مملكة، وأدوم عزًا. قال الله تعالى ﴿كُنْتُمْ

(١) ضعيف: في إسناده ابن لهيعة وقد اختلط، ودراج أبو السمع عن أبي الهيثم قال الحافظ: صدوق؛ في حديثه عن أبي الهيثم ضعف.

(٢) حسن: ابن جرير (١٦٩/٦).

(٣) حسن: أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، ابن ماجه (٤١٤١) من حديث عبد الله بن محسن، انظر صحيح جامع الترمذي.

خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴿[آل عمران: ١١٠] وقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقد ذكرنا الأحاديث المتواترة في فضل هذه الأمة وشرفها وكرمها عند الله عند قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] من سورة آل عمران.

وروى ابن جرير عن ابن عباس وأبي مالك وسعيد بن جبير أنهم قالوا في قوله ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾: يعنى أمة محمد ﷺ، وكانهم أرادوا أن هذا الخطاب فى قوله ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا﴾ مع هذه الأمة، والجمهور على أنه خطاب من موسى لقومه، وهو محمول على عالمى زمانهم كما قدمنا، وقيل: المراد ﴿وَمَا آتَاكُمْ مَا لَمْ يَأْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ يعنى بذلك ما كان تعالى نزله عليهم من المن والسلوى، ويظللهم به من الغمام وغير ذلك مما كان تعالى يخصهم به من خوارق العادات، فالله أعلم.

ثم قال تعالى مخبراً عن تحريض موسى عليه السلام لبنى إسرائيل على الجهاد والدخول إلى بيت المقدس الذى كان بأيديهم فى زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام، ثم لم يزلوا بها حتى خرجوا مع موسى، فوجدوا فيها قوماً من العمالقة الجبارين قد استحوزوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها ويقتال أعدائهم ويشرهم بالنصرة والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب فى التيه والتمادى فى سيرهم حائرين لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد، مدة أربعين سنة عقوبة لهم على تفریطهم فى أمر الله تعالى. فقال تعالى مخبراً عن موسى أنه قال: ﴿يَقُولُ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ﴾ أى المطهرة. وقال سفيان الثورى، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمَقْدَسَةَ﴾ قال: هى الطور وما حوله، وكذا قال مجاهد وغير واحد.

وروى سفيان الثورى عن أبى سعيد البقال، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: هى أريحاء، وكذا ذكر عن غير واحد من المفسرين، وفى هذا نظر، لأن أريحاء ليست هى المقصودة بالفتح، ولا كانت فى طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوهم فرعون، اللهم إلا أن يكون المراد بأريحاء أرض بيت المقدس، كما قاله السدى فيما رواه ابن جرير عنه، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة فى طرف الغور شرقى بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ أى التى وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه ورائة من آمن منكم، ﴿وَلَا تَزِدُوا عَلَآءَ آذَانِكُمْ﴾ أى ولا تنكلوا عن الجهاد ﴿فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنَنذِرُهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ﴾ أى اعتذروا بأن فى هذه البلدة التى أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قوماً جبارين أى ذوى خلق هائلة وقوى شديدة، وإننا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم.

وقد قال ابن جرير ^(١): حدثنى عبد الكريم بن الهيثم، حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان قال:

(١) ابن جرير (٦/١٧٤)، ويشبه أن يكون هذا من الإسرائيليات التى أخذها ابن عباس من كتبهم، ولذا قال الحافظ: وفى هذا الإسناد نظر.

قال أبو سعيد: قال عكرمة، عن ابن عباس قال: أمر موسى أن يدخل مدينة الجبارين، قال: فسار موسى بمن معه حتى نزل قريباً من المدينة، وهي أريحاء، فبعث إليهم اثني عشر عيِّناً من كل سبط منهم عين، ليأتوه بخير القوم، قال: فدخلوا المدينة فرأوا أمراً عظيماً من هيئتهم وجسمهم وعظمتهم، فدخلوا حائطاً لبعضهم، فجاء صاحب الحائط ليجتنى الثمار من حائطه، فجعل يجتنى الثمار وينظر إلى آثارهم، فتبعهم فكلما أصاب واحداً منهم أخذه فجعله في كفه مع الفاكهة، حتى التقط الاثني عشر كلهم، فجعلهم في كفه مع الفاكهة، وذهب بهم إلى ملكهم فترهم بين يديه، فقال لهم الملك: قد رأيتم شأننا وأمرنا، فاذهبوا فأخبروا صاحبكم، قال: فرجعوا إلى موسى فأخبروه بما عاينوا من أمرهم، وفي هذا الإسناد نظر. وقال علي بن أبي طلحة: عن ابن عباس لما نزل موسى وقومه، بعث منهم اثني عشر رجلاً، وهم النقباء الذين ذكرهم الله، فبعثهم ليأتوه بخبرهم، فساروا فلقبهم رجل من الجبارين، فجعلهم في كسائه، فحملهم حتى أتى بهم المدينة، ونادى في قومه فاجتمعوا إليه، فقالوا من أنتم؟ قالوا: نحن قوم موسى، بعثنا نأتيه بخبركم، فأعطوهم حبة من عنب تكفي الرجل، فقالوا لهم اذهبوا إلى موسى وقومه، فقولوا لهم هذا قدر فاكهتهم، فرجعوا إلى موسى فأخبروه، بما رأوا، فلما أمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم وقتالهم، قالوا: يا موسى ﴿فَأَذْهَبَ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هَاهُنَا قَوَدُونَ﴾ رواه ابن أبي حاتم، ثم قال: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي مريم، حدثنا يحيى بن أيوب، عن يزيد بن الهاد، حدثني يحيى بن عبد الرحمن، قال: رأيت أنس بن مالك، أخذ عصا فلذوع فيها بشيء لا أدري كم ذرع، ثم قاس بها في الأرض خمسين أو خمسين وخمسين، ثم قال: هكذا طول العماليق، وقد ذكر كثير من المفسرين هاهنا أخباراً من وضع بني إسرائيل في عظمة خلق هؤلاء الجبارين، وأنه كان فيهم منهم عوج بن عنق بن آدم عليه السلام، وأنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع وثلاثمائة وثلاثة وثلاثون ذراعاً وثلث ذراع، تحرير الحساب، وهذا شيء يستحى من ذكره، ثم هو مخالف لما ثبت في الصحيحين^(١)، أن رسول الله ﷺ قال «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ آدَمَ وَطَوَّلَهُ سِتُونَ ذِرَاعًا، ثُمَّ لَمْ يَزَلِ الْخَلْقُ يَنْقُصُ حَتَّى الْآنَ» ثم ذكروا أن هذا الرجل كان كافراً، وأنه كان ولد زنية، وأنه امتنع من ركوب سفينة نوح، وأن الطوفان لم يصل إلى ركبته، وهذا كذب وافتراء، فإن الله تعالى ذكر أن نوحاً دعا على أهل الأرض من الكافرين، فقال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ ذِيئَارًا﴾ [نوح: ٢٦] وقال تعالى: ﴿فَأَنبَتْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ الشَّجَرُونَ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩-١٢٠] وقال تعالى: ﴿لَا عَلَيْكَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَجَعًا﴾ [هود: ٤٣] وإذا كان ابن نوح الكافر، غرق فكيف يبقى عوج بن عنق وهو كافر وولد زنية؟ هذا لا يسوغ في عقل ولا شرع. ثم في وجود رجل يقال له عوج بن عنق نظر، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا﴾ أي فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى عليه السلام، حرضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه، وقرأ بعضهم ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ﴾ أي ممن لهم مهابة وموضع من الناس، ويقال إنهما يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا. قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وعطية

(١) أخرجه البخاري برقم (٣٣٢٦)، ومسلم برقم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

والسدى، والربيع بن أنس، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله فقالا ﴿أَدْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أى متى توكلتم على الله واتبعتم أمره، ووافقتم رسوله، نصركم الله على أعدائكم وأيدكم وظفركم بهم، ودخلتم البلد التى كتبها الله لكم، فلم ينفع ذلك فيهم شيئاً ﴿قَالُوا يَمْشُونَ إِنَّا لَنَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبِ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَتِيدُونَ﴾ وهذا نكول منهم عن الجهاد، ومخالفة لرسولهم، وتخلف عن مقاتلة الأعداء، ويقال: إنهم لما نكلوا عن الجهاد، وعزموا على الانصراف والرجوع إلى مصر، سجد موسى وهارون عليهما السلام، قدام ملأ من بنى إسرائيل، إعظاماً لما هموا به، وشق يوشع بن نون وكالب بن يوفنا، ثيابهما، ولما قومهما على ذلك، فيقال إنهم رجموهما، وجرى أمر عظيم، وخطر جليل، وما أحسن ما أجاب به الصحابة رضى الله عنهم يوم بدر رسول الله ﷺ حين استشارهم فى قتال النضير، الذين جاءوا لمنع العير، الذى كان مع أبى سفيان، فلما فات اقتناص العير، واقترب منهم النفير، وهم فى جمع ما بين التسعمائة إلى الألف فى العدة، والبيض واليلب، فتكلم أبو بكر رضى الله عنه فأحسن، ثم تكلم من تكلم من الصحابة من المهاجرين، ورسول الله ﷺ يقول «أشيروا على أيها المسلمون»^(١) وما يقول ذلك، إلا ليستعلم ما عند الأنصار، لأنهم كانوا جمهور الناس يومئذ، فقال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول الله، والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر، فضضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصبر فى الحرب صدق فى اللقاء لعل الله أن يريك منا ما تقر به عينك فسر بنا على بركة الله، فسر رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك وقال أبو بكر بن مردويه^(٢): حدثنا على بن الحسين، حدثنا أبو حاتم الرازى، حدثنا محمد بن عبد الله الأنصارى، حدثنا حميد عن أنس أن رسول الله ﷺ لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار إياكم يريد رسول الله ﷺ قالوا: إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبِ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَتِيدُونَ﴾ والذى بعثك بالحق لو ضربت أكبادها إلى برك الغماد لاتبعناك، ورواه الإمام أحمد^(٣) عن عبيدة بن حميد عن جميل الطويل، عن أنس به، ورواه النسائى عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن حميد به، ورواه ابن حبان^(٤) عن أبى يعلى عن عبد الأعلى بن حماد، عن معمر بن سليمان، عن حميد به.

وقال ابن مردويه: أنا عبد الله بن جعفر، أنا إسماعيل بن عبد الله، حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم، حدثنا محمد بن شعيب عن الحسن بن أيوب، عن عبد الله بن ناسج، عن عتبة بن عبيد السلمى، قال: قال النبى ﷺ لأصحابه «ألا تقاتلون»؟ قالوا نعم، ولا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبِ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلْنَا إِنَّا هَاهُنَا قَتِيدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكم مقاتلون، وكان ممن أجاب يومئذ المقداد بن عمرو الكندى رضى الله عنه، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع،

(١) صحيح: أخرجه ابن هشام فى «السيرة النبوية» بنحوه (٣/١٦٢)، وانظر فقه السيرة، ص (٢٢٣).

(٢) صحيح: أحمد (١١٦١١)، انظر السلسلة الصحيحة (٣٣٤٠).

(٣) صحيح: المسند (١٢٥٤٢)، انظر السلسلة الصحيحة (٣٣٤٠).

(٤) صحيح: ابن حبان (٢٣/١١) برقم (٤٧٢١)، انظر السلسلة الصحيحة (٣٣٤٠).

حدثني سفيان عن مخارق بن عبد الله الأحمسي، عن طارق هو ابن شهاب، أن المقداد قال لرسول الله ﷺ يوم بدر: يا رسول الله، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَوَدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون. هكذا رواه أحمد من هذا الوجه، وقد رواه ^(١) من طريق أخرى فقال: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل عن مخارق، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبد الله هو ابن مسعود رضى الله عنه: لقد شهدت من المقداد شهيداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلى مما عدل به، أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين فقال: يا رسول الله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَوَدُونَ﴾ ولكننا نقاتل عن يمينك وعن يسارك ومن بين يديك ومن خلفك، فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك وسر بذلك.

وهكذا رواه البخاري ^(٢) في المغازي وفي التفسير من طرق عن مخارق به، ولفظه في كتاب التفسير عن عبد الله، قال: قال المقداد يوم بدر: يا رسول الله، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَوَدُونَ﴾ ولكن امض ونحن معك. فكانه سرى عن رسول الله ﷺ، ثم قال البخاري: رواه وكيع عن سفيان، عن مخارق، عن طارق، أن المقداد قال للنبي ﷺ.

وقال ابن جرير ^(٣): حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد، حدثنا قتادة، قال: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم الحديبية حين صد المشركون الهدى، وحيل بينهم وبين مناسكهم «إني ذاهب بالهدى فتاحره عند البيت» فقال له المقداد بن الأسود: أما والله لا نكون كالملأ من بنى إسرائيل إذ قالوا للنبيهم ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتَلَا إِنَّا هُنَا قَوَدُونَ﴾ ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فلما سمعها أصحاب رسول الله ﷺ تابعوا على ذلك، وهذا إن كان محفوظاً يوم الحديبية فيحتمل أنه كرر هذه المقالة يومئذ كما قاله يوم بدر.

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ يعنى لما نكل بنو إسرائيل عن القتال غضب عليهم موسى عليه السلام، وقال داعياً عليهم ﴿رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ أى ليس أحد يطيعنى منهم فيمثل أمر الله ويوجب إلى ما دعوت إليه إلا أنا وأخى هارون ﴿فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ قال العوفي عن ابن عباس: يعنى اقض بينى وبينهم، وكذا قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وكذا قال الضحاك: اقض بيننا وبينهم، وافتح بيننا وبينهم، وقال غيره: افرق افصل بيننا وبينهم، كما قال الشاعر:

يا رب فافرق بينه وبينى أشد ما فرقت بين اثنين

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتَّبِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ الآية، لما دها عليهم موسى عليه السلام حين نكلوا عن الجهاد حكم الله عليهم بتحريم دخولها قدر مدة أربعين سنة فوقعوا فى التيه عليهم يسرون دائماً لا يهتدون للخروج منه وفيه كانت أمور عجيبة

(١) صحيح: المسند (٣٦٩٠)، ورجاله ثقات.

(٢) مرسل: ابن جرير (٦/١٨٠).

(٣) البخاري برقم (٣٩٥٢).

وخوارق كثيرة من تظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم ، ومن إخراج الماء الجارى من صخرة صماء تحمل معهم على ذابة ، فإذا ضربها موسى بعصاه انفجرت من ذلك الحجر اثنتا عشرة عيناً تجرى لكل شعب عين ، وغير ذلك من المعجزات التى أيد الله بها موسى بن عمران . وهناك أنزلت التوراة وشرعت لهم الأحكام ، وعملت قبة العهد ويقال لها : قبة الزمان ، قال يزيد بن هارون عن أصبغ بن زيد ، عن القاسم بن أبى أيوب ، عن سعيد بن جبير : سألت ابن عباس عن قوله : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ الآية قال : فتأهروا فى الأرض أربعين سنة يصبحون كل يوم يسيرون ليس لهم قرار ، ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه ، وأنزل عليهم المن والسلوى ، وهذا قطعة من حديث الفتون ^(١) ، ثم كانت وفاة هارون عليه السلام ، ثم بعده بمدة ثلاث سنين وفاة موسى الكليم عليه السلام ، وأقام الله فيهم يوشع بن نون عليه السلام ، نبياً خليفة عن موسى بن عمران ، ومات أكثر بنى إسرائيل هناك فى تلك المدة ، ويقال : إنه لم يبق منهم أحد سوى يوشع وكالب ، ومن هاهنا قال بعض المفسرين فى قوله ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ هذا وقف تام ، وقوله ﴿ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ منصوب بقوله ﴿ يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ فلما انقضت المدة ، خرج بهم يوشع بن نون عليه السلام ، أو بمن بقى منهم ، وبسائر بنى إسرائيل من الجيل الثانى ، فقصدهم بيت المقدس فحاصرها ، فكان فتحها يوم الجمعة بعد العصر ، فلما تضيفت الشمس للغروب وخشى دخول السبت عليهم ، قال : إنك مأمورة ، وأنا مأمور ، اللهم احبسها على . فحبسها الله تعالى حتى فتحها ، وأمر الله يوشع بن نون ، أن يأمر بنى إسرائيل حين يدخلون بيت المقدس ، أن يدخلوا بابها سجداً ، وهم يقولون : حطة أى حط عنا ذنوبنا ، فبدلوا ما أمروا به ، ودخلوا يزحفون على أستاههم وهم يقولون : حبة فى شعرة ، وقد تقدم هذا كله فى سورة البقرة .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن أبى عمر العدنى ، حدثنا سفيان عن أبى سعيد ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، رضى الله عنه ، قوله ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ ﴾ قال : فتأهروا أربعين سنة ، قال : فهلك موسى وهارون فى التيه ، وكل من جاوز الأربعين سنة ، فلما مضت الأربعون سنة ، ناهضهم يوشع بن نون ، وهو الذى قام بالأمر بعد موسى ، وهو الذى افتتحها ، وهو الذى قيل له ، اليوم يوم الجمعة ، فهموا بافتتاحها وذنت الشمس للغروب ، فخشى إن دخلت ليلة السبت أن يستوا ، فنادى الشمس : إنى مأمور ، وإنك مأمورة ، فوقفت حتى افتتحها ، فوجد فيها من الأموال ما لم ير مثله قط ، فقربوه إلى النار فلم تأته ، فقال فيكم الغلول ، فدعا رءوس الأسباط وهم اثنا عشر رجلاً فبايعهم والتصقت يد رجل منهم بيده فقال : الغلول عندك فأخرجه ، فأخرج رأس بقرة من ذهب لها عينان من ياقوت وأسنان من لؤلؤ فوضعه مع القربان ، فأنت النار فأكلته ، وهذا السياق له شاهد فى الصحيح .

وقد اختار ابن جرير أن قوله : ﴿ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ ﴾ هو العامل فى أربعين سنة وأنهم مكثوا لا يدخلونها أربعين سنة ، وهم تائهون فى البرية لا يهتدون لمقصد ، قال : ثم خرجوا مع موسى عليه السلام ، ففتح بهم بيت المقدس ، ثم احتج على ذلك من قال بإجماع علماء أخبار الأولين ، أن ^(١) سبق تخريجه .

عوج بن عنق قتله موسى عليه السلام، قال: فلو كان قتله إياه قبل التيه، لما رهبت بنو إسرائيل من العماليق فدل على أنه كان بعد التيه، قال: وأجمعوا على أن بلعام بن باعورا أعان الجبارين بالدعاء على موسى، قال: وما ذلك إلا بعد التيه، لأنهم كانوا قبل التيه لا يخافون من موسى وقومه، هذا استدلاله، ثم قال: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن عطية، حدثنا قيس عن أبي إسحاق، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كانت عصا موسى عشرة أذرع، ووثبته عشرة أذرع، وطوله عشرة أذرع، فوثب فأصاب كعب عوج فقتله، فكان جسراً لأهل النيل سنة^(١)، وروى أيضاً عن محمد بن بشار: حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان عن أبي إسحاق، عن نوف هو البكالي قال: كان سرير عوج ثمانمائة ذراع، وكان طول موسى عشرة أذرع، وعصاه عشرة أذرع، ووثب في السماء عشرة أذرع، فضرب عوجاً فأصاب كعبه فسقط ميتاً، وكان جسراً للناس يمرون عليه^(٢).

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْرِ الْفَافِيَةِ﴾ تسلياً لموسى عليه السلام عنهم، أى لا تتأسف ولا تحزن عليهم فهمما حكمت عليهم به، فإنهم مستحقون ذلك، وهذه القصة تضمنت تقرير اليهود، وبيان فضائحهم ومخالفتهم لله ولرسوله ونكولهم عن طاعتها فيما أمراهم به من الجهاد، فضعت أنفسهم عن مصابرة الأعداء ومجالدتهم ومقاتلتهم، مع أن بين أظهرهم رسول الله ﷺ وكليمه وصفيه من خلقه فى ذلك الزمان، وهو يعدهم بالنصر والظفر بأعدائهم، هذا مع ما شاهدوا ما أحل الله بعدوهم فرعون من العذاب والنكال والغرق له ولجنوده فى اليم وهم ينظرون لتقر به أعينهم، وما بالعهد من قدم، ثم يتكلمون عن مقاتلة أهل بلدهم بالنسبة إلى ديار مصر لا توازى عشر المعشار فى عدة أهلها وعددهم، فظهرت قبائح صنيعهم للخاص والعام، وانفضحوا فضيحة لا يغطيها الليل، ولا يسترها الليل، هذا وهم فى جهلهم يعمهون وفى غيهم يترددون، وهم البغضاء إلى الله وأعدائه ويقولون مع ذلك: ﴿مَنْ أَسْبَغَ اللَّهُ وَأَجْبَدُهُ﴾^(٣) فقيح الله وجوههم التى مسخ منها الخنازير والقرود، وألزمهم لعنة تصحبهم إلى النار ذات الوقود، ويقضى لهم فيها بتأييد الخلود، وقد فعل وله الحمد من جميع الوجود.

﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُقْبَلْ مِنَ الْآخَرِ﴾^{١٢}
 قَالَ لِأَقْنَلْنِكَ قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٣﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاطِلٍ
 يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ
 أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفَافِيَةِ ﴿١٥﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ ﴿١٦﴾ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِرَبِّهِ كَيْفَ يُؤَدِّي سُوَّةَ أَخِيهِ قَالَ يُوتَلَقَّ
 أَعْرَجْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْفَرَابِ فَأُؤَدِّي سُوَّةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿١٧﴾

يقول تعالى مبيّناً وخيم عاقبة البغى والحسد والظلم قى خبر ابني آدم لصلبه فى قول الجمهور، وهما قابيل وهابيل كيف عدا أحدهما على الآخر فقتله، بغياً عليه وحسداً له، فيما وهبه الله من النعمة

(١) فى إسناده أبو إسحاق السبيعي وهو مدلس وقد عنعن.

(٢) موضوع: عليه علامات الوضع وفى الإسناد نوف البكالي: مستور، وأبو إسحاق مدلس والإسناد أيضاً مرسل.

وتقبل القربان الذى أخلص فيه لله عز وجل ، ففاز المقتول بوضع الآثام والدخول إلى الجنة ، وخاب القاتل ورجع بالصفقة الخاسرة فى الدارين ، فقال تعالى : ﴿ وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ﴾ ، أى واقصص على هؤلاء البغاة الحسدة إخوان الخنازير والقردة من اليهود وأمثالهم وأشباههم خبر ابنى آدم ، وهما هابيل وقابيل ، فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف .

وقوله ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أى على الجلية والأمر الذى لا لبس فيه ولا كذب ، ولا وهم ولا تبديل ، ولا زيادة ولا نقصان ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَقْعُ الْحَقُّ ﴾ [إك همران : ٦٢] . وقوله تعالى : ﴿ مَخْنُ نَقَضَ عَلَيْهِ نِبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾ [الكهف : ١٣] وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ ﴾ [مریم : ٣٤] ، وكان من خبرهما فيما ذكره غير واحد من السلف والخلف ، أن الله تعالى : شرع لآدم عليه السلام ، أن يزوج بناته من بنيه لضرورة الحال ، ولكن قالوا : كان يولد له فى كل بطن ذكر وأنثى ، فكان يزوج أنثى هذا البطن لذكر البطن الآخر ، وكانت أخت هابيل دميمة وأخت قابيل وضيئة ، فأراد أن يستأثر بها على أخيه ، فأبى آدم ذلك ، إلا أن يقربا قرباناً ، فمن تقبل منه فهى له ، فقربا فتقبل من هابيل ولم يتقبل من قابيل ، فكان من أمرهما ما قصه الله فى كتابه .

ذكر أقوال المفسرين هاهنا : قال السدى فيما ذكر عن أبى مالك ، وعن أبى صالح عن ابن عباس ، وعن مرة عن ابن مسعود ، وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ : إنه كان لا يولد لآدم مولود إلا ولد معه جارية ، فكان يزوج غلام هذا البطن جارية هذا البطن الآخر ، ويزوج جارية هذا البطن غلام هذا البطن الآخر ، حتى ولد له ابنان يقال لهما : هابيل وقابيل وكان قابيل صاحب زرع ، وكان هابيل صاحب ضرع ، وكان قابيل أكبرهما ، وكان له أخت أحسن من أخت هابيل ، وأن هابيل طلب أن ينكح أخت قابيل ، فأبى عليه ، وقال هى أختى ولدت معى ، وهى أحسن من أختك وأنا أحق أن أتزوج بها ، فأمره أبوه أن يزوجه هابيل فأبى ، وأنهما قربا قرباناً إلى الله عز وجل أيهما أحق بالجارية ، وكان آدم عليه السلام قد غاب عنهما ، أتى مكة ينظر إليها ، قال الله عز وجل : هل تعلم أن لى بيتاً فى الأرض؟ قال : اللهم لا . قال : إن لى بيتاً فى مكة ، فأتته ، فقال آدم للسماة : احفظى ولدى بالأمانة فأبت ، وقال للأرض فأبت ، وقال للجبال فأبت ، فقال لقابيل ، فقال : نعم ، تذهب وترجع وتجد أهلك كما يسرك ، فلما انطلقت آدم قربا قرباناً ، وكان قابيل يفخر عليه ، فقال : أنا أحق بها منك هى أختى وأنا أكبر منك وأنا وصى والدى ، فلما قربا قرب هابيل جذعة سميمة وقرب قابيل حزمة سنبل فوجد فيها سنبله عظيمة ، ففركها وأكلها فنزلت النار ، فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قابيل ، فغضب وقال : لأقتلنك حتى لا تنكح أختى ، فقال هابيل إنما يتقبل الله من المتقين ، رواه ابن جرير ^(١) .

وقال ابن أبى حاتم ^(٢) : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح ، حدثنا حجاج عن ابن جريج أخبرنى ابن خثيم قال : أقبلت مع سعيد بن جبير ، فحدثنى عن ابن عباس ، قال : نهى أن تنكح المرأة أخاها توأمها وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها ، وكان يولد له فى كل بطن رجل وامرأة ، فبينما هم كذلك ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة ، فقال أخو الدميمة : أنكحنى أختك وأنكحك أختى ، فقال لا ، أنا

(١) ابن جرير (٦/١٨٩) .

(٢) عزاه المصنف لابن أبى حاتم من حديث ابن خثيم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : إسناده جيد .

أحق بأختي، فقربا قرباناً فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله. إسناده جيد، وحدثنا أبي، حدثنا أبو سلمة، حدثنا حماد بن سلمة عن عبد الله بن عثمان بن خثيم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس وقوله ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا﴾ فقربا قربانهما، فجاء صاحب الغنم بكبش أعين أقرن أبيض، وصاحب الحرث بصبرة من طعامه، فقبل الله الكبش فخزنه في الجنة أربعين خريفاً، وهو الكبش الذي ذبحه إبراهيم عليه السلام. إسناده جيد.

وقال ابن جرير^(١) : حدثنا ابن بشار، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف عن أبي المغيرة عن عبد الله بن عمرو، قال: إن ابني آدم اللذين قربا قرباناً فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، كان أحدهما صاحب حرث والآخر صاحب غنم، وإنهما أمرا أن يقربا قرباناً، وإن صاحب الغنم قرب أكرم غنمه وأسمنها وأحسنها طيبة بها نفسه، وإن صاحب الحرث قرب أشد حرثه الكردين والزوان، غير طيبة بها نفسه، وإن الله عز وجل، تقبل قربان صاحب الغنم، ولم يتقبل قربان صاحب الحرث، وكان من قصتهما ما قص الله في كتابه، قال: وإيم الله إن كان المقتول لأشد الرجلين ولكن منعه التخرج أن يبسط يده إلى أخيه. وقال إسماعيل بن رافع المدني القاص: بلغني أن ابني آدم لما أمرا بالقربان، كان أحدهما صاحب غنم وكان أنتج له حمل في غنمه، فأحبه حتى كان يؤثره بالليل، وكان يحمله على ظهره من حبه، حتى لم يكن له مال أحب إليه منه، فلما أمر بالقربان قرب له لله عز وجل فقبله الله منه، فما زال يرتع في الجنة حتى فدى به ابن إبراهيم عليه السلام، رواه ابن جرير.

وقال ابن أبي حاتم^(٢) : حدثنا أبي، حدثنا الأنصاري، حدثنا القاسم بن عبد الرحمن، حدثنا محمد بن علي بن الحسين، قال: قال آدم عليه السلام لهابيل وقابيل: إن ربي عهد إلى أنه كائن من ذريتي من يقرب القربان، فقربا قرباناً حتى تقر عيني، إذا تقبل قربانكما فقربا وكان هابيل صاحب غنم فقرب أكلة غنم خير ماله، وكان قابيل صاحب زرع، فقرب مشاققة من زرعه، فانطلق آدم معهما، ومعهما قربانهما، فصعدا الجبل، فوضعا قربانهما ثم جلسوا ثلاثتهم آدم وهما ينظران إلى القربان، فبصفت الله نلوا حتى إذا كانت فوقهما دنا منها عنق، فاحتمل قربان هابيل، وترك قربان قابيل، فانصرفوا، وعلم آدم أن قابيل مسخوط عليه، فقال: ويلك يا قابيل رد عليك قربانك، فقال قابيل: أحببته فصليت على قربانه ودعوت له فتقبل قربانه ورد على قرباني، فقال قابيل لهابيل لأقتلنك وأستريح منك، دعا لك أبوك فصلى على قربانك فتقبل منك، وكان يتوعده بالقتل إلى أن احتبس هابيل ذات عشية في غنمه، فقال آدم: يا قابيل، أين أخوك؟ قال: وبعثني له راعياً لا أدرى، فقال آدم: ويلك يا قابيل، انطلق فاطلب أخاك، فقال قابيل في نفسه: الليلة أقتله، وأخذ معه حديدة فاستقبله وهو منقلب، فقال: يا هابيل تقبل قربانك ورد على قرباني لأقتلنك، فقال هابيل: قربت أطيب مالي، وقربت أنت أحب مالك وإن الله لا يقبل إلا الطيب إنما يتقبل الله من المتقين، فلما قالها غضب قابيل، فرفع الحديدة وضربه بها، فقال: ويلك يا قابيل، أين أنت من الله كيف يجزيك بعملك؟ فقتله، فطرحة في جوبة من الأرض، وحشى عليه شيئاً من التراب.

(١) ابن جرير (٦/١٨٧)، وفيه أبو المغيرة: مجهول.

(٢) ضعيف: في إسناده القاسم بن عبد الرحمن قال عنه أبو زرعة: منكر الحديث.

وروى محمد بن إسحاق^(١) عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: أن آدم أمر ابنه قين أن ينكح أخته توامة هابيل، وأمر هابيل أن ينكح أخته توامة قين، فسلم لذلك هابيل ورضى، وأبى ذلك قين وكره تكرماً عن أخت هابيل، ورغب بأخته عن هابيل وقال: نحن من ولادة الجنة، وهما من ولادة الأرض، وأنا أحق بأختي. ويقول بعض أهل العلم بالكتاب الأول: كانت أخت قين من أحسن الناس، ففضن بها على أخيه وأرادها لنفسه، والله أعلم أى ذلك كان، فقال له أبوه: يا بنى إنها لا تحل لك فأبى قابيل أن يقبل ذلك من قول أبيه، قال له أبوه: يا بنى قرب قرباناً ويقرب أخوك هابيل قرباناً فأيكما تقبل قربانه فهو أحق بها، وكان قين على بذر الأرض، وكان هابيل على رعاية الماشية، فقرب قين قمحاً وقرب هابيل أبكاراً من أبكار غنمه، وبعضهم يقول: قرب بقرة، فأرسل الله ناراً بيضاء فأكلت قربان هابيل وتركت قربان قين، وبذلك كان يقبل القربان إذا قبله، رواه ابن جرير.

وروى العوفي عن ابن عباس قال: كان من شأنهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه وإنما كان القربان يقربه الرجل فيبنا ابنا آدم قاعدان، إذ قالوا لو قربنا قرباناً، وكان الرجل إذا قرب قرباناً فرضيه الله أرسل إليه ناراً فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار، فقربا قرباناً، وكان أحدهما راعياً وكان الآخر حراثاً، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرعه، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشى فى الناس وقد علموا أنك قربت قرباناً فتقبل منك ورد على، فلا والله لا ينظر الناس إلى وأنت خير منى فقال: لأقتلنك، فقال له أخوه: ما ذنبى؟ إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير^(٢). فهذا الأثر يقتضى أن تقرب القربان كان لا عن سبب ولا عن تدارى فى امرأة كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم وهو ظاهر القرآن ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ فالسياق يقتضى أنه إنما غضب عليه وحسده بقبول قربانه دونه، ثم المشهور عند الجمهور أن الذى قرب الشاة هو هابيل وأن الذى قرب الطعام هو قابيل وأنه تقبل من هابيل شاته، حتى قال ابن عباس وغيره: إنها الكبش الذى فدى به الذبيح وهو مناسب، والله أعلم، ولم يتقبل من قابيل، كذلك نص عليه غير واحد من السلف والخلف وهو المشهور عن مجاهد أيضاً، ولكن روى ابن جرير عنه أنه قال الذى قرب الزرع قابيل وهو المتقبل منه، وهذا خلاف المشهور، ولعله لم يحفظ عنه جيداً، والله أعلم.

ومعنى قوله ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ أى ممن اتقى الله فى فعله ذلك، وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا إبراهيم بن العلاء بن زريق، حدثنا إسماعيل بن عياش، حدثنى صفوان بن عمرو عن تميم يعنى ابن مالك المقرئ، قال: سمعت أبا الدرداء يقول: لأن أستيقن أن الله قد تقبل لى صلاة واحدة أحب إلى من الدنيا وما فيها إن الله يقول ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾.

وحدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن عمران حدثنا إسحاق بن سليمان يعنى الرازى عن المغيرة بن مسلم، عن ميمون بن أبى حمزة، قال: كنت جالساً عند أبى وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف

(١) عزاه المصنف لمحمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول وهذا يدل على أنه من الإسرائيليات وفيها مخالفة كما تقدم.

(٢) ضعيف: تفسير ابن جرير (١٨٧/٦) وهو من طريق عطية العوفي وهو شيعى مدلس.

من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة: يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل؟ قال: بلى سمعته يقول: يحبس الناس في بقيع واحد فينادى مناد: أين المتقون؟ فيقومون في كنف من الرحمن، لا يحتجب الله منهم ولا يستتر. قلت: من المتقون؟ قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا العبادة فيمرون إلى الجنة^(١).

وقوله ﴿لَيْنًا بَسَطَ إِلَٰهُ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاطِلٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ يقول له أخوه الرجل الصالح الذي تقبل الله قربانه لتقواه، حين توعده أخوه بالقتل على غير ما ذنب منه إليه ﴿لَيْنًا بَسَطَ إِلَٰهُ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاطِلٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ﴾ أى لا أقابلك على صنيعك الفاسد بمثله فأكون أنا وأنت سواء في الخطيئة ﴿إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ أى من أن أصنع كما تريد أن تصنع بل أصبر وأحتسب، قال عبد الله بن عمرو: وإيم الله إن كان لأشد الرجلين ولكن منعه التخرج يعني الورع، ولهذا ثبت في الصحيحين^(٢) عن النبي ﷺ أنه قال «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار» قالوا: يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال «إنه كان حريصاً على قتل صاحبه»

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ليث بن سعد عن عياش بن عباس، عن بكير بن عبد الله، عن بسر بن سعيد أن سعد بن أبي وقاص قال عند فتنة عثمان: أشهد أن رسول الله ﷺ قال «إنها ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشى، والماشى خير من الساعي» قال: أفرأيت إن دخل على بيتي فبسط يده إلى ليقتلني فقال «كن كابن آدم»، وكذا رواه الترمذي^(٤) عن قتيبة بن سعيد وقال: هذا حديث حسن، وفي الباب عن أبي هريرة وخباب بن الارت وأبي بكر وابن مسعود وأبي واقد وأبي موسى وخرشة، ورواه بعضهم عن الليث بن سعد وزاد في الإسناد رجلاً، قال الحافظ ابن عساكر: الرجل هو حسين الأشجعي، قلت: وقد رواه أبو داود^(٥) من طريقه فقال: حدثنا يزيد بن خالد الرملي، حدثنا المفضل بن عياش بن عباس، عن بكير عن بسر بن سعيد، عن حسين بن عبد الرحمن الأشجعي أنه سمع سعد بن أبي وقاص عن النبي ﷺ في هذا الحديث قال: فقلت: يا رسول الله أ رأيت إن دخل بيتي وبسط يده ليقتلني؟ قال: فقال رسول الله ﷺ «كن كابن آدم» وتلا يزيد ﴿لَيْنًا بَسَطَ إِلَٰهُ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاطِلٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾.

قال أيوب السختياني: إن أول من أخذ بهذه الآية من هذه الأمة ﴿لَيْنًا بَسَطَ إِلَٰهُ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاطِلٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَنَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْمَلَكِينَ﴾ لعثمان بن عفان رضى الله عنه، رواه ابن أبي حاتم. وقال الإمام أحمد^(٦): حدثنا مرحوم، حدثني أبو عمران الجوني عن عبد الله بن الصامت،

(١) ضعيف: فيه أبو حمزة القصاب قال الحافظ: ضعيف.

(٢) البخاري (٣١)، مسلم (٢٨٨٨)، من حديث الحسن بن الأحنف بن قيس.

(٣) صحيح: المسند (١٦١٢)، انظر صحيح الجامع (٢٤٣١).

(٤) صحيح: الترمذي (٢١٩٤)، انظر صحيح جامع الترمذي.

(٥) صحيح: أبو داود (٤٢٥٦)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٦) المسند (٢٠٨١٨)، ورجاله ثقات.

عن أبي ذر، قال: ركب النبي ﷺ حمازًا وأردفني خلفه وقال «يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك كيف تصنع؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال «تعفف» قال «يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس موت شديد يكون البيت فيه بالعبء يعني القبر كيف تصنع؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: اصبر، قال «يا أبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضًا، يعني حتى تغرق حجارة الزيت من الدماء كيف تصنع؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال «اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك» قال: فإن لم أترك، قال «فأت من أنت منهم فكن منهم» قال: فأخذ سلاحى، قال «فإذا تشاركهم فيما هم فيه ولكن إذا خشيت أن يروعك شعاع السيف فألق طرف رداك على وجهك كى يبوء بإثمهم وإثمك»، ورواه مسلم وأهل السنن^(١) سوى النسائى، من طرق عن أبى عمران الجونى عن عبد الله بن الصامت به، ورواه أبو داود وابن ماجه^(٢) من طريق حماد بن زيد عن أبى عمران، عن المشعث بن طريف، عن عبد الله بن الصامت، عن أبى ذر بنحوه، قال أبو داود: ولم يذكر المشعث فى هذا الحديث غير حماد بن زيد، وقال ابن مردويه: حدثنا محمد بن على بن دحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا قبيصة بن عقبة، حدثنا سفيان عن منصور، عن ربعى، قال: كنا فى جنازة حذيفة فسمعت رجلاً يقول: سمعت هذا يقول فى ناس، مما سمعت من رسول الله ﷺ «لئن اقتلتهم لأنظرن إلى أقصى بيت فى دارى فلا لجنه، فلئن دخل على فلان لأقولن ها، بؤ بإثمى وإثمك فأكون كخير ابنى آدم».

وقوله: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والسدى فى قوله ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ أى بإثم قتلى وإثمك الذى عليك قبل ذلك، قاله ابن جرير.

وقال آخرون: يعنى بذلك إنى أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمل وزرها وإثمك فى قتلك إياى، وهذا قول وجدته عن مجاهد وأخشى أن يكون غلطاً لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه، يعنى ما رواه سفيان الثورى عن منصور عن مجاهد ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي﴾ قال: بقتلك إياى ﴿وَإِثْمِكَ﴾ قال: بما كان منك قبل ذلك، وكذا روى عيسى بن أبى نجيح، عن مجاهد مثله، وروى شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ يقول إنى أريد أن يكون عليك خطيئتى ودمى فتبوء بهما جميعاً.

﴿قُلْتُ﴾: وقد يتوهم كثير من الناس هذا القول، ويذكرون فى ذلك حديثاً لا أصل له «ما ترك القتال على المقتول من ذنب»^(٣) وقد روى الحافظ أبو بكر البزار^(٤) حديثاً يشبه هذا ولكن ليس به فقال: حدثنا عمرو بن على، حدثنا عامر بن إبراهيم الأصبهاني، حدثنا يعقوب بن عبد الله، حدثنا عتبة بن سعيد عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ «قتل الصبر لا يمر بذنب

(١) مسلم (٦٤٨)، أبو داود (٤٣١)، الترمذي (١٧٦)، ابن ماجه (١٢٥٦)، والدارمي (١٢٢٨).

(٢) صحيح: أبو داود (٤٢٦١)، وابن ماجه (٣٩٥٨)، انظر صحيح سنن أبى داود.

(٣) قال الألباني: لا أصل له، انظر السلسلة الضعيفة (٢٨٧).

(٤) قال الهيثمي فى «المجمع» (٢٦٦/٦): رواه البزار وقال: لا نعلمه يروى عن النبي ﷺ إلا من هذا الوجه.

إلا محاه، وهذا بهذا لا يصح، ولو صح فمعناه أن الله يكفر عن المقتول بألم القتل ذنوبه فأما أن يتحمل على القاتل فلا، ولكن قد يتفق هذا في بعض الأشخاص وهو الغالب، فإن المقتول يطالب القاتل في العرصات، فيؤخذ له من حسناته بقدر مظلمته فإن نفذت ولم يستوف حقه، أخذ من سيئات المقتول، فطرحت على القاتل، فربما لا يبقى على المقتول خطيئة إلا وضعت على القاتل، وقد صح الحديث بذلك عن رسول الله ﷺ في المظالم كلها، والقتل من أعظمها وأشدّها والله أعلم.

وأما ابن جرير فقال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن تأويله إنى أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي وذلك هو معنى قوله ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي﴾ وأما معنى ﴿وَإِنَّكَ﴾ فهو إثمه بغير قتله وذلك معصية الله عز وجل في أعمال سواه وإنما قلنا ذلك هو الصواب لإجماع أهل التأويل عليه وأن الله عز وجل أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه وإذا كان هذا حكمه في خلقه فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذاً بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبتها بنفسه دون ما ركبته قتيله، هذا لفظه، ثم أورد على هذا سؤالا حاصله كيف أراد هابيل أن يكون على أخيه قابيل إثم قتله وإثم نفسه مع أن قتله له محرم، وأجاب بما حاصله: أن هابيل أخبر عن نفسه بأنه لا يقاتل أخاه إن قاتله، بل يكف عنه يده طالبا إن وقع قتل أن يكون من أخيه لا منه، قلت: وهذا الكلام متضمن موعظة له لو اتعظ، وزجرا له لو انزجر، ولهذا قال ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِنَّكَ﴾ أي تتحمل إثمى وإثمك ﴿فَتَكُونَ مِنَ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ وقال ابن عباس: خوفه بالنار فلم يتته ولم ينزجر.

وقوله تعالى: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ أي فحسنت وسولت له نفسه وشجعت على قتل أخيه فقتله، أي بعد هذه الموعظة وهذا الزجر، وقد تقدم في الرواية عن أبي جعفر الباقر وهو محمد بن علي بن الحسين أنه قتله بحديدة في يده، وقال السدي، عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مرة عن عبد الله، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ، ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾ فطلبه ليقته، فراغ الغلام منه في رءوس الجبال، فاتاه يوما من الأيام وهو يرعى غنما له وهو نائم، فرفع صخرة فشدخ بها رأسه فتركه بالعراء، رواه ابن جرير. وعن بعض أهل الكتاب أنه قتله خنقا وعصا كما تقتل السباع.

وقال ابن جرير: لما أراد أن يقتله جعل يلوى عنقه، فأخذ إبليس دابة فوضع رأسها على حجر، ثم أخذ حجرا آخر فضرب به رأسها حتى قتلها وابن آدم ينظر، ففعل بأخيه مثل ذلك، رواه ابن أبي حاتم، وقال عبد الله بن وهب، عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: أخذ برأسه ليقته فاضطجع له وجعل يغمز رأسه وعظامه ولا يدري كيف يقتله، فجاءه إبليس فقال: أتريد أن تقتله؟ قال: نعم. قال: فخذ هذه الصخرة فاطرحها على رأسه، قال: فأخذها فألقاها عليه فشدخ رأسه، ثم جاء إبليس إلى حواء مسرعا فقال: يا حواء إن قابيل قتل هابيل، فقالت له: ويحك وأي شيء يكون القتل؟ قال: لا يأكل ولا يشرب ولا يتحرك، قالت: ذلك الموت. قال: فهو الموت، فجعلت تصيح حتى دخل عليها آدم وهي تصيح، فقال: ما لك؟ فلم تكلمه، فرجع إليها مرتين فلم تكلمه، فقال: عليك الصيحة وعلى بناتك، وأنا وابني منها برآء، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله ﴿فَأَصْحَبَ مِنَ الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أى فى الدنيا والآخرة، وأى خسارة أعظم من هذه؟ وقد قال الإمام أحمد^(١): حدثنا أبو معاوية ووكيع قال: حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة، عن مسروق، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها، لأنه كان أول من سن القتل» وقد أخرجه الجماعة^(٢) سوى أبى داود من طرق عن الأعمش به.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثني حجاج قال: قال ابن جريج: قال مجاهد: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذه من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجهه فى الشمس حيثما دارت دار، عليه فى الصيف حظيرة من نار، وعليه فى الشتاء حظيرة من ثلج. قال: وقال عبد الله بن عمرو: وإنما لنجد ابن آدم القاتل يقاسم أهل النار قسمة صحيحة العذاب عليه شطر عذابهم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد حدثنا سلمة عن ابن إسحاق، عن حكيم بن حكيم أنه حدث عن عبد الله بن عمرو أنه كان يقول: إن أشقى أهل النار رجلاً ابن آدم الذى قتل أخاه، ما سفك دم فى الأرض منذ قتل أخاه إلى يوم القيامة إلا لحق به منه شر، وذلك أنه أول من سن القتل. وقال إبراهيم النخعي: ما من مقتول يقتل ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول والشيطان كفل منه. رواه ابن جرير أيضاً.

وقوله تعالى: ﴿بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارَى سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارَى سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣٦﴾﴾ قال السدي بإسناده المتقدم إلى الصحابة رضى الله عنهم: لما مات الغلام تركه بالعراء، ولا يعلم كيف يدفن، فبعث الله غرابين أخوين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، فحفر له ثم حشى عليه، فلما رآه قال ﴿يُنَوِّلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارَى سَوْءَةَ أَخِي﴾^(٣) وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، قال: جاء غراب إلى غراب ميت، فبحث عليه من التراب حتى واره، فقال الذى قتل أخاه ﴿يُنَوِّلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارَى سَوْءَةَ أَخِي﴾^(٤). وقال الضحاك، عن ابن عباس: مكث يحمل أخاه فى جراب على عاتقه سنة حتى بعث الله الغرابين، فرأهما يبحثان، فقال ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ﴾ فدفن أخاه، وقال ليث بن أبى سليم، عن مجاهد: كان يحمله على عاتقه مائة سنة ميتاً لا يدرى ما يصنع به، يحمله ويضعه إلى الأرض حتى رأى الغراب يدفن الغراب، فقال ﴿يُنَوِّلَتِي أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُؤَارَى سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ رواه ابن جرير وابن أبى حاتم، وقال عطية العوفى: لما قتله ندم فضمه إليه حتى أروح، وعكفت عليه الطيور والسباع تنتظر متى يرمى به فتأكله، رواه ابن جرير.

وروى محمد بن إسحاق عن بعض أهل العلم بالكتاب الأول: لما قتله سقط فى يده، أى ولم يدر كيف يواريه، وذلك أنه كان فيما يزعمون أول قتيل فى بنى آدم، وأول ميت ﴿بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي

(١) صحيح: المسند (٣٦٢٣)، انظر صحيح الجامع (٧٣٨٧).

(٢) البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (١٦٧٧)، والترمذي (٢٦٧٣)، والنسائي (٣٩٨٥)، وابن ماجه (٢٦١٦)، وأحمد (٣٦٢٣).

(٣) هذا الإسناد عن ابن مسعود وعن ابن عباس. تقدم قول ابن كثير فيه: إنه يقع فيه إسرائيليات كثيرة (البقرة ٣٤).

(٤) منقطع: علي بن أبى طلحة لم يسمع من ابن عباس، والرواية الثالثة له: ضعيفة فهي من طريق سفيان بن وكيع: ضعيف، والضحاك بن مزاحم عن ابن عباس منقطع.

الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَ أَخِيهِ قَالَ يَتُولَجْ أَخَعِزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْفَرَابِ فَأُورِي سَوَاءَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ ﴿١﴾ . قال: وزعم أهل التوراة أن قيناً لما قتل أخاه هابيل، قال له الله عز وجل: يا قين أين أخوك هابيل؟ قال: ما أدري ما كنت عليه رقيباً، فقال الله: إن صوت دم أخيك ليناديني من الأرض، والآن أنت ملعون من الأرض التي فتحت فاهما فتلقت دم أخيك من يدك، فإن أنت عملت في الأرض فإنها لا تعود تعطيك حرثها حتى تكون فرعاً تائها في الأرض.

وقوله ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾ قال الحسن البصري: علاه الله بندامة بعد الخسران، فهذه أقوال المفسرين في هذه القصة، وكلهم متفقون على أن هذين ابنا آدم لصلبه، كما هو ظاهر القرآن، وكما نطق به الحديث في قوله «إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه أول من سن القتل» وهذا ظاهر جلي، ولكن قال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا سهل بن يوسف عن عمرو، عن الحسن هو البصري، قال: كان الرجلان اللذان في القرآن اللذان قال الله: ﴿وَأْتَلُ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ﴾ من بنى إسرائيل، ولم يكونا ابني آدم لصلبه، وإنما كان القربان من بنى إسرائيل، وكان آدم أول من مات، وهذا غريب جداً، وفي إسناده نظر^(١)، وقد قال عبد الرزاق^(٢)، عن معمر عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ «إن ابني آدم عليه السلام ضربا لهذه الأمة مثلاً، فخذوا بالخير منهما» ورواه ابن المبارك^(٣)، عن عاصم الأحول، عن الحسن، قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله ضرب لكم ابني آدم مثلاً، فخذوا من خيرهم ودعوا شرهم»، وكذا أرسل هذا الحديث بكر بن عبد الله المزني، روى ذلك كله ابن جرير. وقال سالم بن أبي الجعد: لما قتل ابن آدم أخاه مكث آدم مائة سنة حزينا لا يضحك، ثم أتى فقيل له: حياك الله وبياك، أي أضحكك، رواه ابن جرير، ثم قال: حدثنا ابن حميد، حدثنا سلمة عن غياث بن إبراهيم، عن أبي إسحاق الهمداني قال: قال علي بن أبي طالب لما قتل ابن آدم أخاه بكاه آدم فقال:

تغيرت البلاد ومن عليها
تغير كل ذي لون وطعم
فلون الأرض مغبر قبيح
وقل بشاشة الوجه المليح
فأجيب آدم عليه الصلاة والسلام:

أبا هابيل قد قتلا جميعاً
وجاء بشرة قد كان منها
وصار الحي كالميت الذبيح
على خوف فجاء بها يصيح

والظاهر أن قابيل عوجل بالعقوبة، كما ذكره مجاهد بن جبير: أنه علقت ساقه بفخذه إلى يوم القيامة، وجعل الله وجهه إلى الشمس حيث دارت عقوبة له وتنكيلاً به، وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قال «ما من ذنب أجد أن يعجل الله عقوبته في الدنيا مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم»^(٤) وقد اجتمع في فعل قابيل هذا وهذا، فإننا لله وإنا إليه راجعون.

(١) من الإسرائيليات. مرسل: من مراسيل الحسن.
(٢) مرسل: ابن جرير (١٩٩/٦) من طريق ابن المبارك عن عاصم الأحول عن الحسن به.
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، الترمذي (٢٥١١)، ابن ماجه (٤٢١١) من حديث أبي بكر، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٤)

﴿ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لُمُسْرِفُونَ ﴿٦٦﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْرَأُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٨﴾ ﴾

يقول تعالى: من أجل قتل ابن آدم أخاه ظلماً وعدواناً ﴿ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى شرعنا لهم وأعلمناهم ﴿ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ أى من قتل نفساً بغير سبب من قصاص أو فساد فى الأرض، واستحل قتلها بلا سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعاً، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أى حرم قتلها واعتقد ذلك، فقد سلم الناس كلهم منه بهذا الاعتبار، ولهذا قال: ﴿ فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وقال الأعمش وغيره، عن أبى صالح، عن أبى هريرة، قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك، وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعاً وإياى معهم؟ قلت: لا، قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحداً فكأنما قتلت الناس جميعاً، فانصرف مأذوناً لك مأجوراً غير مأزور. قال: فانصرفت ولم أقاتل^(١). وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: هو كما قال الله تعالى: ﴿ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ وإحياؤها ألا يقتل نفساً حرماً الله، فذلك الذى أحيا الناس جميعاً يعنى أنه من حرم قتلها إلا بحق حياى الناس منه، وهكذا قال مجاهد: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا ﴾ أى كف عن قتلها.

وقال العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾، يقول: من قتل نفساً واحدة حرماً الله، فهو مثل من قتل الناس جميعاً.

وقال سعيد بن جبیر: من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعاً، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعاً، هذا قول وهو الأظهر، وقال عكرمة والعوفى عن ابن عباس: من قتل نبياً أو إمام عدل، «فكأنما قتل الناس جميعاً» ومن شد على عضد نبى أو إمام عدل فكأنما أحيا الناس جميعاً، رواه ابن جرير. وقال مجاهد فى رواية أخرى عنه: من قتل نفساً بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعاً، وذلك لأنه من قتل النفس فله النار فهو كما لو قتل الناس كلهم، قال ابن جريج، عن الأعرج، عن مجاهد فى قوله: ﴿ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ من قتل النفس المؤمنة متعمداً، جعل الله جزاءه جهنم، وغضب عليه ولعنه، وأعد له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على مثل ذلك العذاب، قال ابن جريج: قال مجاهد: ﴿ وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ﴾ قال: من لم يقتل أحداً فقد حياى الناس منه.

(١) صحيح: ابن سعد (٧٠/٣)، ورجاله ثقات.

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: من قتل نفساً فكأنما قتل الناس، يعنى فقد وجب عليه القصاص، فلا فرق بين الواحد والجماعة، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أى عفا عن قاتل وليه فكأنما أحيا الناس جميعاً، وحكى ذلك عن أبيه، رواه ابن جرير، وقال مجاهد فى رواية: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ أى أنجاها من غرق أو حرق أو هلكة، وقال الحسن وقتادة فى قوله: ﴿أَنْتَ مَنْ قَتَلْتَ نَفْسًا بَغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَأَوِ الْآرِضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، هذا تعظيم لتعاطى القتل، قال قتادة: عظم والله وزرها، وعظم والله أجرها. وقال ابن المبارك، عن سلام بن مسكين، عن سليمان بن على الريمى، قال: قلت للحسن: هذه الآية لنا يا أبا سعيد كما كانت لبنى إسرائيل، فقال: إى والذى لا إله غيره، كما كانت لبنى إسرائيل وما جعل دماء بنى إسرائيل أكرم على الله من دماننا، وقال الحسن البصرى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾، قال: وزراً، ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾، قال: أجراً. وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا حى بن عبد الله عن أبى عبد الرحمن الحبلى، عن عبد الله بن عمرو قال: جاء حمزة بن عبد المطلب إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، اجعلنى على شىء أعيش به. فقال رسول الله ﷺ: «يا حمزة نفس تحيها أحب إليك أم نفس تميتها؟» قال: بل نفس أحياها. قال «عليك بنفسك».

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أى بالحجج والبراهين والدلائل الواضحة، ﴿ثُمَّ إِذَا كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمْ يُرَوْا﴾ وهذا تقريع لهم وتوبيخ على ارتكابهم المحارم بعد علمهم بها، كما كانت بنو قريظة والنضير وغيرهم من بنى قينقاع ممن حول المدينة من اليهود الذين كانوا يقاتلون مع الأوس والخزرج، إذا وقعت بينهم الحروب فى الجاهلية، ثم إذا وضعت الحروب أوزارها. فدوا من أسروه وودوا من قتلوه، وقد أنكر الله عليهم ذلك فى سورة البقرة حيث يقول ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ثُمَّ أَنْتُمْ هُنَا لَا تَقُولُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ قَرِيبًا مِّنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَطَّهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمِ وَالْقُدُورِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى فَعُدُّوهُمْ وَهُوَ حَرَمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفْشَوْسُونَ بَعْضُ الْكُتُبِ وَتَكْفُرُونَ بَعْضٌ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَوْمٌ أَلِيمٌ يَرُدُّونَ إِلَيْهِ أَشَدَّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٤-٨٥].

قوله ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ الآية، المحاربة هى المضادة والمخالفة، وهى صداقة على الكفر وعلى قطع الطريق وإخافة السبيل، وكذا الإفساد فى الأرض يطلق على أنواع من الشر، حتى قال كثير من السلف، منهم سعيد بن المسيب: إن قرض الدراهم والدنانير من الإفساد فى الأرض.

وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسِقَ﴾ [البقرة: ٢٠٥] ثم قال بعضهم: نزلت هذه الآية الكريمة فى المشركين، كما قال ابن جرير^(٢): حدثنا ابن

(١) ضعيف: المسند (٦٦٠١)، انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١٣١٣).

(٢) ابن جرير (٢٠٦/٦)، وفيه الحسين بن واقد: صدوق يعم.

حميد، حدثنا يحيى بن واضح، حدثنا الحسين بن واقد عن يزيد عن عكرمة والحسن البصرى، قالوا ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ - إلى - ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٩] نزلت هذه الآية فى المشركين، فمن تاب منهم من قبل أن تقدروا عليه، لم يكن عليه سبيل، وليست تحرز هذه الآية الرجل المسلم من الحد إن قتل، أو أفسد فى الأرض، أو حارب الله ورسوله، ثم لحق بالكفار قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذى أصاب، ورواه أبو داود والنسائى^(١) من طريق عكرمة، عن ابن عباس: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، نزلت فى المشركين فمن تاب منهم قبل أن يقدر عليه، لم يمنعه ذلك أن يقام عليه الحد الذى أصابه. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ الآية، قال: كان قوم من أهل الكتاب بينهم وبين النبى ﷺ عهد وميثاق، فنقضوا العهد وأفسدوا فى الأرض، فخير الله رسوله إن شاء أن يقتل وإن شاء أن يقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، رواه ابن جرير^(٢).

وروى شعبة عن منصور عن هلال بن يساف، عن مصعب بن سعد، عن أبيه قال: نزلت فى الحرورية ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ رواه ابن مردويه^(٣)، والصحيح أن هذه الآية عامة فى المشركين وغيرهم ممن ارتكب هذه الصفات كما رواه البخارى ومسلم^(٤) من حديث أبى قلابة واسمه عبد الله بن زيد الجرهمى البصرى عن أنس بن مالك أن نفرًا من عكل ثمانية، قدموا على رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام، فاستوخموا المدينة، وسقمت أجسامهم فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك، فقال «ألا تخرجوا مع راعينا فى إبله، فتصيبوا من أبوالها وألبانها» فقالوا: بلى، فخرجوا فشربوا من أبوالها وألبانها فصحوا، فقتلوا الراعى، وطرردوا الإبل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث فى آثارهم فأدركوا فجىء بهم، فأمر بهم فقطعت أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم، ثم نبذوا فى الشمس حتى ماتوا، لفظ مسلم، وفى لفظ لهما: من عكل أو عرينة، وفى لفظ: وألقوا فى الحرة فجعلوا يستسقون، فلا يسقون.

وفى لفظ لمسلم: ولم يحسمهم، وعند البخارى قال أبو قلابة: فهؤلاء سرقوا وقتلوا وكفروا بعد إيمانهم، وحاربوا الله ورسوله، ورواه مسلم من طريق هشيم عن عبد العزيز بن صهيب، وحميد عن أنس، فذكره نحوه وعنده فارتدوا، وقد أخرجاه من رواية قتادة عن أنس بنحوه، وقال سعيد عن قتادة: من عكل وعرينة، وراه مسلم من طريق سليمان التيمى، عن أنس قال: إنما سمل النبى ﷺ أعين أولئك، لأنهم سملوا أعين الرعاء، ورواه مسلم من حديث معاوية بن قررة عن أنس قال: أتى رسول الله ﷺ نفر من عرينة فأسلموا وبايعوه، وقد وقع بالمدينة الموم وهو البرسام، ثم ذكر نحو حديثهم وزاد: عنده شباب من الأنصار قريب من عشرين فارسًا، فأرسلهم وبعث معهم قائفًا يقفون

(١) حسن: أبو داود (٤٣٧٢)، النسائى (٤٠٤٦)، انظر صحيح سنن أبى داود.

(٢) ضعيف: ابن جرير (١٥/٧)، وإسناده منقطع، فعلى بن أبى طلحة لم يدرك ابن عباس.

(٣) عزاه المصنف لابن مردويه وإسناده صحيح.

(٤) البخارى (٣٠١٨)، مسلم (١٦٧١).

أثرهم . وهذه كلها ألفاظ مسلم رحمه الله .

وقال حماد بن سلمة : حدثنا قتادة وثابت البناني وحמיד الطويل عن أنس بن مالك أن ناساً من عرينة قدموا المدينة فاجتووها ، فبعثهم رسول الله ﷺ في إبل الصدقة ، وأمرهم أن يشربوا من أبوها وألبانها ، ففعلوا فصحوا ، فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعى ، واستاقوا الإبل ، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم فجاء بهم فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمر أعينهم وألقاهم في الحرة . قال أنس : فلقد رأيت أحدهم يكدم الأرض بفيه عطشاً حتى ماتوا ، ونزلت ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية ، وقد رواه أبو داود والترمذى والنسائى وابن مردويه وهذا لفظه ، وقال الترمذى : حسن صحيح .

وقد رواه ابن مردويه من طرق كثيرة عن أنس بن مالك ، منها ما رواه من طريقين عن سلام بن أبى الصهباء ، عن ثابت ، عن أنس بن مالك ، قال : ما ندمت على حديث ، ما ندمت على حديث سألنى عنه الحجاج ، قال : أخبرنى عن أشد عقوبة عاقب بها رسول الله ﷺ . قال : قلت : قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة من البحرين ، فشكوا إلى رسول الله ﷺ ما لقوا من بطونهم ، وقد اصفرت ألوانهم ، وضمرت بطونهم ، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يأتوا إبل الصدقة فيشربوا من أبوها وألبانها ، حتى إذا رجعت إليهم ألوانهم وانخضت بطونهم ، عدوا إلى الراعى فقتلوه ، واستاقوا الإبل ، فأرسل رسول الله ﷺ في آثارهم فقطع أيديهم وأرجلهم وسمر أعينهم ، ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا . فكان الحجاج إذا صعد المنبر يقول : إن رسول الله ﷺ قد قطع أيدي قوم وأرجلهم ، ثم ألقاهم في الرمضاء حتى ماتوا لحال ذود من الإبل ، فكان الحجاج يحتج بهذا الحديث على الناس .

وقال ابن جرير : حدثنا على بن سهل ، حدثنا الوليد يعنى ابن مسلم ، حدثنى سعيد ، عن قتادة ، عن أنس ، قال : كانوا أربعة نفر من عرينة ، وثلاثة نفر من عكل ، فلما أتى بهم قطع أيديهم وأرجلهم ، وسمر أعينهم ، ولم يحسمهم وتركهم يتلفون الحجارة بالحرة ، فأنزل الله في ذلك ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ الآية .

وقال ابن أبى حاتم ^(١) : حدثنا على بن حرب الموصلى ، حدثنا أبو مسعود يعنى عبد الرحمن بن الحسن الزجاج ، حدثنا أبو سعد يعنى البقال ، عن أنس بن مالك قال : كان رهط من عرينة أتوا رسول الله ﷺ وبهم جهد ، مصفرة ألوانهم ، عظيمة بطونهم ، فأمرهم أن يلحقوا بالإبل فيشربوا من أبوها وألبانها ، ففعلوا فصفت ألوانهم ، وخضت بطونهم ، وسمنوا ، وقتلوا الراعى ، واستاقوا الإبل ، فبعث النبى ﷺ في طلبهم ، فأتى بهم ، فقتل بعضهم ، وسمر أعين بعضهم ، وقطع أيدي بعضهم وأرجلهم ، ونزلت ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﴾ إلى آخر الآية وقال أبو جعفر بن جرير ^(٢) : حدثنا أبو على بن سهل ، حدثنا الوليد بن مسلم ، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن عبد الملك بن مروان كتب إلى أنس يسأله عن هذه الآية ، فكتب إليه أنس يخبره أن هذه الآية نزلت في أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة ، قال أنس : فارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعى ، واستاقوا الإبل ،

(١) انظر «الكامل في ضعفاء الرجال» (٣/٣٨٤) .

(٢) ضعيف : ابن جرير (٦/٢٠٨) ، وفيه ابن لهيعة : اختلط ، والوليد بن مسلم : مدلس تدليس تسوية .

وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام. وقال حدثني يونس، أخبرنا ابن وهب، أخبرني عمرو بن الحارث عن سعيد بن أبي هلال، عن أبي الزناد، عن عبد الله بن عبيد الله، عن عبد الله بن عمرو بن عمرو - شك يونس - عن رسول الله ﷺ بذلك، يعنى بقصة العرنيين، ونزلت فيهم آية المحاربة، ورواه أبو داود والنسائي من طريق أبي الزناد، وفيه عن ابن عمر من غير شك.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا محمد بن خلف، حدثنا الحسن بن حماد عن عمرو بن هاشم، عن موسى بن عبيدة، عن محمد بن إبراهيم، عن جرير، قال: قدم على رسول الله ﷺ قوم من عرينة حفاة مضرورين، فأمر بهم رسول الله ﷺ فلما صحوا واشتدوا، قتلوا رعاء اللقاح، ثم خرجوا باللقاح عامدين بها إلى أرض قومهم، قال جرير فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين حتى أدركناهم بعدما أشرفوا على بلاد قومهم، فقدمنا بهم على رسول الله ﷺ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسمل أعينهم، فجعلوا يقولون: الماء، ورسول الله ﷺ يقول: النار حتى هلكوا، قال: وكره الله عز وجل سمل الأعين، فأنزل الله هذه الآية ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ إلى آخر الآية، هذا حديث غريب، وفي إسناده الربذي وهو ضعيف، وفي إسناده فائدة، وهو ذكر أمير هذه السرية، وهو جرير بن عبد الله البجلي، وتقدم في صحيح مسلم أن هذه السرية كانوا عشرين فارساً من الأنصار، وأما قوله: فكره الله سمل الأعين، فأنزل الله هذه الآية، فإنه منكر، وقد تقدم في صحيح مسلم أنهم سملوا أعين الرعاء، فكان ما فعل بهم قصاصاً، والله أعلم.

وقال عبد الرزاق^(٢) عن إبراهيم بن محمد الأسلمي، عن صالح مولى التوأمة، عن أبي هريرة، قال: قدم على رسول الله ﷺ رجال من بني فزارة قد ماتوا هزلاً، فأمرهم النبي ﷺ إلى لقاحه، فشربوا منها حتى صحوا، ثم عمدوا إلى لقاحه فسرقوها، فطلبوا فأتى بهم النبي ﷺ فقطع أيديهم وأرجلهم، وسمر أعينهم. قال أبو هريرة ففيهم نزلت هذه الآية ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾، فترك النبي ﷺ سمر الأعين بعد، وروى من وجه آخر عن أبي هريرة.

وقال أبو بكر بن مردويه^(٣): حدثنا أحمد بن إسحاق حدثنا الحسين بن إسحاق التستري، حدثنا أبو القاسم محمد بن الوليد عن عمرو بن محمد المدني، حدثنا محمد بن طلحة عن موسى بن محمد بن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن سلمة بن الأكوع قال: كان للنبي ﷺ غلام يقال له يسار، فنظر إليه يحسن الصلاة فأعتقه، وبعثه في لقاح له بالحرّة فكان بها، قال: فأظهر قوم الإسلام من عرينة، وجاءوا وهم مرضى موعوكون قد عظمت بطونهم قال: فبعث بهم النبي ﷺ إلى يسار، فكانوا يشربون من ألبان الإبل حتى انطوت بطونهم، ثم عدوا على يسار فذبحوه، وجعلوا الشوك في عينيه، ثم أطردوا الإبل، فبعث النبي ﷺ في آثارهم خيلاً من المسلمين، أميرهم كرز بن جابر الفهري، فلحقهم فجاء بهم إليه فقطع أيديهم وأرجلهم وسمل أعينهم، غريب

(١) ابن جرير (٢٠٧/٦)، وقد ضعفه ابن كثير.

(٢) عبد الرزاق في «مصنفه» (١٠٧/١٠)، ورجاله ثقات.

(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (٢٩٤/٦): رواه الطبراني وفيه موسى بن محمد بن إبراهيم بن الحرث التيمي: وهو ضعيف.

جداً، وقد روى قصة العرنيين من حديث جماعة من الصحابة منهم جابر وعائشة وغير واحد، وقد اعتنى الحافظ الجليل أبو بكر بن مردويه بطرق هذا الحديث من وجوه كثيرة جداً فرحمه الله وأثابه.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا محمد بن علي بن الحسن بن شقيق، سمعت أبي يقول: سمعت أبا حمزة عن عبد الكريم وسئل عن أبوال إبل فقال: حدثني سعيد بن جبيرة عن المحاربين فقال: كان أناس أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: نبأيعك على الإسلام، فبايعوه وهم كذبة، وليس الإسلام يريدون، ثم قالوا: إنا نجتوى المدينة، فقال النبي ﷺ هذه اللقاح تغدوا عليكم وتروح، فاشربوا من أبوالها وألبانها، قال: فبينما هم كذلك إذ جاءهم الصريخ، فصرخ إلى رسول الله ﷺ فقال: قتلوا الراعي، واستاقوا النعم، فأمر النبي ﷺ فنودي في الناس «أن يا خيل الله اركبي» قال: فركبوا لا ينتظر فارس فارساً، قال: وركب رسول الله ﷺ على إثرهم، فلم يزالوا يطلبونهم حتى أدخلوهم آمنهم، فرجع صحابة رسول الله ﷺ وقد أسروا منهم، فأتوا بهم النبي ﷺ فأنزل الله ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، قال: فكان نفيهم أن نفوهم حتى أدخلوهم آمنهم وأرضهم، ونفوهم من أرض المسلمين، وقتل نبي الله ﷺ منهم وصلب، وقطع وسمر الأعين، قال: فما مثل رسول الله ﷺ قبل ولا بعد، قال: ونهى عن المثلة، قال: «ولا تمثلوا بشيء» قال: وكان أنس يقول ذلك، غير أنه قال: أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم، قال: وبعضهم يقول: هم ناس من بنى سليم، ومنهم من عرينة، ناس من بجيلة.

وقد اختلف الأئمة في حكم هؤلاء العرنيين: هل هو منسوخ، أو محكم؟ فقال بعضهم: هو منسوخ بهذه الآية، وزعموا أن فيها عتاباً للنبي ﷺ كما في قوله ﴿عَمَّا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٢٣]، ومنهم من قال: هو منسوخ بنهى النبي ﷺ عن المثلة، وهذا القول فيه نظر، ثم قائله مطالب ببيان تأخر الناسخ الذي ادعاه عن المنسوخ، وقال بعضهم: كان هذا قبل أن تنزل الحدود، قاله محمد بن سيرين، وفي هذا نظر، فإن قصتهم متأخرة، وفي رواية جرير بن عبد الله لقصتهم ما يدل على تأخرها، فإنه أسلم بعد نزول المائدة، ومنهم من قال لم يسمل النبي ﷺ أعينهم، وإنما عزم على ذلك حتى نزل القرآن فبين حكم المحاربين، وهذا القول أيضاً فيه نظر، فإنه قد تقدم في الحديث المتفق عليه أنه يسمل، وفي رواية سمر أعينهم.

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم قال: ذكرت الليث بن سعد ما كان من سمل النبي ﷺ أعينهم، وتركه حسمهم حتى ماتوا، فقال: سمعت محمد بن عجلان يقول: أنزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ معاتبة في ذلك، وعلمه عقوبة مثلهم من القتل والقطع والنفي، ولم يسمل بعدهم غيرهم قال: وكان هذا القول ذكر لأبي عمرو يعني الأوزاعي، فأنكر أن يكون نزلت معاتبة، وقال: بل كانت عقوبة أولئك النفر بأعيانهم ثم نزلت هذه الآية في عقوبة غيرهم ممن حارب بعدهم، ورفع عنهم السمل. ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور من العلماء في ذهابهم إلى أن المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء لقوله ﴿وَتَسَوَّانَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ وهذا مذهب مالك والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل، حتى قال مالك في الذي يغتال الرجل

(١) ابن جرير (٢٠٧/٦)، ورجاله ثقات.

فيخذه حتى يدخله بيتًا فيقتله، ويأخذ ما معه: إن هذه محاربة، ودمه إلى السلطان لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل. وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا، لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق لبعده ممن يغيثه ويعينه.

وأما قوله ﴿أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُكَبَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِّنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: من شهر السلاح في قبة الإسلام، وأخاف السبيل ثم ظفر به وقدر عليه فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله. وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء والحسن البصرى وإبراهيم النخعي والضحاك وروى ذلك كله أبو جعفر بن جرير وحكى مثله عن مالك بن أنس رحمه الله، ومستند هذا القول أن ظاهر «أو» للتخيير كما في نظائر ذلك من القرآن كقوله في جزاء الصيد ﴿فَجَزَاءُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَعْبَرَةً مَّطَعًا مَّسْكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ [المائدة: ٩٥] وكقوله في كفارة الترفه ﴿فَن كَانَ مِنكُمْ مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَعِدَّةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٌ أَوْ سَلْيٌ﴾ [البقرة: ١٩٦] وكقوله في كفارة اليمين ﴿إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِّنْ أَوْسَطِ مَا تَطْوَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَبَّةٍ﴾ [المائدة: ٨٩] هذه كلها على التخيير فكذلك فلتكن هذه الآية.

وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال، كما قال أبو عبد الله الشافعى: أنبأنا إبراهيم هو ابن أبى يحيى عن صالح مولى التوأمة، عن ابن عباس في قطاع الطريق، إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا، وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا، وإذا أخذوا المال ولم يقطعوا أيديهم وأرجلهم من خلاف، وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض، وقد رواه ابن أبى شيبة عن عبد الرحيم بن سليمان، عن حجاج، عن عطية عن ابن عباس بنحوه، وعن أبى مجلز وسعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي والحسن وقتادة والسدى وعطاء الخراساني نحو ذلك، وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة، واختلفوا: هل يصلب حيًا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو يقتله برمح أو نحوه، أو يقتل أولًا ثم يصلب تنكيلًا وتشديدًا لغيره من المفسدين، وهل يصلب ثلاثة أيام ثم ينزل أو يترك حتى يسيل صديده؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه، وبالله الثقة وعليه التكلان.

ويشهد لهذا التفصيل الحديث الذى رواه ابن جرير فى تفسيره إن صح سنده فقال: حدثنا على بن سهل، حدثنا الوليد بن مسلم، عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب أن عبد الملك بن مروان، كتب إلى أنس بن مالك يسأله عن هذه الآية، فكتب إليه يخبره أنها نزلت فى أولئك النفر العرنيين وهم من بجيلة، قال أنس: فارتدوا عن الإسلام، وقتلوا الراعى، واستاقوا الإبل، وأخافوا السبيل، وأصابوا الفرج الحرام، قال أنس: فسأل رسول الله ﷺ جبرائيل عليه السلام عن القضاء فىمن حارب فقال: من سرق وأخاف السبيل، فاقطع يده بسرقة ورجله بإخافته، ومن قتل فاقته، ومن قتل وأخاف السبيل واستحل الفرج الحرام فاصلبه.

وأما قوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام، رواه ابن جرير عن ابن عباس، وأنس بن مالك وسعيد بن جبيرة

والضحاك والربيع بن أنس والزهرى والليث بن سعد ومالك بن أنس وقال آخرون: هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر أو يخرج السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية. وقال الشعبي: ينفيه - كما قال ابن هبيرة - من عمله كله. وقال عطاء الخراساني: ينفى من جند إلى جند سنين، ولا يخرج من دار الإسلام. وكذا قال سعيد بن جبير وأبو الشعثاء والحسن والزهرى والضحاك ومقاتل بن حبان: إنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام. وقال آخرون: المراد بالنفى هاهنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه، واختار ابن جرير أن المراد بالنفى هاهنا أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى هذا الذى ذكرته من قتلهم ومن صلبهم وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ونفيهم، خزي لهم بين الناس فى هذه الحياة الدنيا مع ما ادخر الله لهم من العذاب العظيم يوم القيامة، وهذا قد يتأيد به من ذهب إلى أن الآية نزلت فى المشركين، فأما أهل الإسلام فى صحيح مسلم^(١) عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال: أخذ علينا رسول الله ﷺ كما أخذ على النساء ألا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزنى، ولا نقتل أولادنا، ولا يعضه بعضنا بعضاً، فمن وفى منكم فأجره على الله تعالى، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب فهو كفارة له، ومن ستره الله فأمره إلى الله: إن شاء عذبه وإن شاء غفر له. وعن على قال: قال رسول الله ﷺ «من أذنب ذنباً فى الدنيا فعوقب به، فالله أعدل من أن يثنى عقوبته على عبده، ومن أذنب ذنباً فى الدنيا فستره الله عليه وعفا عنه، فالله أكرم من أن يعود فى شيء قد عفا عنه». رواه الإمام أحمد والترمذى وابن ماجه^(٢)، وقال الترمذى: حسن غريب. وقد سنل الحافظ الدارقطنى عن هذا الحديث، فقال: روى مرفوعاً وموقوفاً، قال: ورفعه صحيح.

وقال ابن جرير فى قوله: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾ يعنى شر وعار ونكال وذلة وعقوبة فى عاجل الدنيا قبل الآخرة. ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أى إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ مع الجزاء الذى جازيتهم به فى الدنيا، والعقوبة التى عاقبتهم بها فى الدنيا فيها ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يعنى عذاب جهنم، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٤] أما على قول من قال: إنها فى أهل الشرك فظاهر، وأما المحاربون المسلمون فإذا تابوا قبل القدرة عليهم، فإنه يسقط عنهم انحتم القتل والصلب وقطع الرجل، وهل يسقط قطع اليد أم لا؟ فيه قولان للعلماء، وظاهر الآية يقتضى سقوط الجميع، وعليه عمل الصحابة، كما قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو أسامة، عن مجالد، عن الشعبي قال: كان حارثة بن بدر التميمى من أهل البصرة، وكان قد أفسد فى الأرض وحارب، فكلم رجلاً من قريش منهم الحسن بن على وابن عباس وعبد الله بن جعفر، فكلّموا علياً فيه فلم يؤمنه، فأتى سعيد بن قيس الهمداني فخلفه فى داره، ثم أتى علياً، فقال: يا أمير المؤمنين، أرايت من حارب الله ورسوله، وسعى فى الأرض فساداً، فقرأ حتى بلغ ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٣٤] قال: فكتب له أماناً، قال سعيد بن قيس: فإنه حارثة بن بدر، وكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن مجالد عن

(١) مسلم برقم (١٧٠٩).

(٢) ضعيف: أحمد (٧٧٧)، الترمذى (٢٦٢٦)، ابن ماجه (٢٦٠٤)، انظر ضعيف جامع الترمذى.

الشعبي به، وزاد فقال حارثة بن بدر:

ألا أبلغن همدان إماً لقيتها على النأى لا يسلم عدو يعيها
لعمر أبيها إن همدان تتقى ال إله ويقضى بالكتاب خطيبها

وروى ابن جرير من طريق سفيان الثوري عن السدي، ومن طريق أشعث، كلاهما عن عامر الشعبي قال: جاء رجل من مراد إلى أبي موسى وهو على الكوفة في إمارة عثمان رضى الله عنه بعدما صلى المكتوبة، فقال: يا أبا موسى هذا مقام العائذ بك، أنا فلان بن فلان المرادى، وإنى كنت حاربت الله ورسوله وسعيت في الأرض فساداً، وإنى تبت من قبل أن تقدروا على، فقال أبو موسى فقال: إن هذا فلان بن فلان، وإنه كان حارب الله ورسوله وسعى في الأرض فساداً، وإنه تاب من قبل أن تقدر عليه فمن لقيه فلا يعرض له إلا بخير، فإن يك صادقاً فسيب من صدق، وإن يك كاذباً تدركه ذنوبه، فأقام الرجل ما شاء الله، ثم إنه خرج فأدركه الله تعالى بذنوبه فقتله، ثم قال ابن جرير: حدثني علي، حدثنا الوليد بن مسلم قال: قال الليث: وكذلك حدثني موسى بن إسحاق المدني، وهو الأمير عندنا، أن علياً الأسدي حارب وأخاف السبيل وأصاب الدم والمال فطلبه الأئمة والعامّة، فامتنع ولم يقدروا عليه حتى جاء تائباً، وذلك أنه سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿قُلْ يَجَادِبُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] فوقف عليه فقال: يا عبد الله أعد قراءتها. فأعادها عليه، فغمد سيفه، ثم جاء تائباً حتى قدم المدينة من السحر، فاغتسل ثم أتى مسجد رسول الله ﷺ فصلى الصبح ثم قعد إلى أبي هريرة في أغمار أصحابه، فلما أسفروا عرفه الناس فقاموا إليه فقال: لا سبيل لكم عليّ جئت تائباً من قبل أن تقدروا عليّ، فقال أبو هريرة: صدق، وأخذ بيده حتى أتى مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة في زمن معاوية فقال: هذا على جاء تائباً ولا سبيل لكم عليه ولا قتل، قال: فترك من ذلك كله، قال: وخرج على تائباً مجاهدًا في سبيل الله في البحر، فلحقوا الروم فقبروا سفينته إلى سفينة من سفنهم فاقتحم على الروم في سفينتهم فهربوا منه إلى شقها الآخر، فمالت به وبهم ففرقوا جميعاً.

﴿يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَاءَ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٥٧﴾﴾

يقول تعالى أمرًا عباده المؤمنين بتقواه، وهي إذا قرنت بطاعته كان المراد بها الانكفاف عن المحارم وترك المنهيات، وقد قال بعدها ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ قال سفيان الثوري، عن طلحة عن عطاء، عن ابن عباس: أي القرية، وكذا قال مجاهد وعطاء وأبو وائل والحسن وقتادة وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد. وقال قتادة: أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه، وقرأ ابن زيد ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء: ٥٧] وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه. وأنشد عليه ابن جرير قول الشاعر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلنا وعاد التصافى بيننا والوسائل
والوسيلة هي التي يتوصل بها إلى تحصيل المقصود، والوسيلة أيضًا علم على أعلى منزلة في الجنة
وهي منزلة رسول الله ﷺ وداره في الجنة، وهي أقرب أمكنة الجنة إلى العرش، وقد ثبت في صحيح
البخاري^(١) من طريق محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «من قال حين
يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة، والصلاة القائمة، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة، وابعته
مقامًا محمودًا الذي وعدته، إلا حلت له الشفاعة يوم القيامة».

(حديث آخر): - في صحيح مسلم^(٢) من حديث كعب بن علقمة، عن عبد الرحمن بن جبير،
عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه سمع النبي ﷺ يقول «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم
صلوا عليّ، فإنه من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة
في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت عليه
الشفاعة».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان عن ليث، عن كعب، عن
أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «إذا صليتم عليّ فسلوا لي الوسيلة». قيل: يا رسول الله، وما
الوسيلة؟ قال «أعلى درجة في الجنة، لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو». ورواه
الترمذي^(٤) عن بندار، عن أبي عاصم، عن سفيان هو الثوري، عن ليث بن أبي سليم، عن كعب
قال: حدثني أبو هريرة به، ثم قال: غريب، وكعب ليس بمعروف، لا نعرف أحدًا روى عنه غير
ليث بن أبي سليم.

(طريق أخرى): - عن أبي هريرة رضى الله عنه، قال أبو بكر بن مردويه^(٥): حدثنا عبد الباقي بن
قانع، حدثنا محمد بن نصر الترمذي، حدثنا عبد الحميد بن صالح، حدثنا أبو شهاب عن ليث، عن
المعلّى، عن محمد بن كعب، عن أبي هريرة رفعه، قال «صلوا على صلواتكم وسلوا الله لي الوسيلة»
فسألوه، أو أخبرهم أن الوسيلة درجة في الجنة ليس ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا.

(حديث آخر): - قال الحافظ أبو القاسم الطبراني^(٦): أنا أحمد بن علي الأبار، حدثنا الوليد بن
عبد الملك الحراني، حدثنا موسى بن أعين عن ابن أبي ذئب، عن محمد بن عمرو بن عطاء، عن ابن
عباس قال: قال رسول الله ﷺ «سلوا الله لي الوسيلة، فإنه لم يسألها لي عبد في الدنيا إلا كنت له
شهيدًا أو شفيعًا يوم القيامة»، ثم قال الطبراني لم يروه عن ابن أبي ذئب إلا موسى بن أعين، كذا قال.
وقد رواه ابن مردويه^(٧): حدثنا محمد بن علي بن دحيم، حدثنا أحمد بن حازم، حدثنا عبيد الله بن
موسى، حدثنا موسى بن عبيدة عن محمد بن عمرو بن عطاء، فذكر بإسناده نحوه.

(١) البخاري برقم (٦١٤).

(٢) مسلم (٣٨٤).

(٣) صحيح: المسند (٧٥٤٤)، انظر المشكاة (٥٧٦٧).

(٤) صحيح: الترمذي (٣٦١٢)، انظر صحيح جامع الترمذي.

(٥) عزاه المصنف لابن مردويه، وفي الحديث السابق بعض معناه.

(٦) حسن: الطبراني في «الأوسط» (١٩٨/١) برقم (٦٣٣)، انظر صحيح الجامع (٣٦٣٧).

(٧) عزاه المصنف لابن مردويه بإسناده نحو سابقه.

(حديث آخر): روى ابن مردويه^(١) بإسناده عن عمارة بن غزية، عن موسى بن وردان أنه سمع أبا سعيد الخدري يقول: قال رسول الله ﷺ «إن الوسيلة درجة عند الله ليس فوقها درجة، فسلوا الله أن يؤتيني الوسيلة على خلقه».

(حديث آخر): - روى ابن مردويه^(٢) أيضًا من طريقين عن عبد الحميد بن بحر، حدثنا شريك، عن أبي إسحاق، عن الحارث عن علي، عن النبي ﷺ قال «فى الجنة درجة تدعى الوسيلة، فإذا سألت الله فسلوا لى الوسيلة» قالوا: يا رسول الله، من يسكن معك؟ قال: «على وفاطمة والحسن والحسين» هذا حديث غريب منكر من هذا الوجه. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا الحسن الدشتكى، حدثنا أبو زهير، حدثنا سعد بن طريف عن على بن الحسين الأزدي مولى سالم بن ثوبان، قال: سمعت على بن أبى طالب ينادى على منبر الكوفة: يا أيها الناس إن فى الجنة لؤلؤتين: إحداهما بيضاء، والأخرى صفراء، أما الصفراء فإنها إلى بطنان العرش، والمقام المحمود من اللؤلؤة البيضاء سبعون ألف غرفة، كل بيت منها ثلاثة أميال، وغرفها وأبوابها وأسرتها وكأنها من عرق واحد، واسمها الوسيلة، هى لمحمد ﷺ وأهل بيته، والصفراء فيها مثل ذلك هى لإبراهيم عليه السلام وأهل بيته، وهذا أثر غريب أيضًا.

وقوله ﴿وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لما أمرهم بترك المحارم وفعل الطاعات، أمرهم بقتال الأعداء من الكفار والمشركين الخارجين عن الطريق المستقيم، والتاركين للدين القويم، ورغبتهم فى ذلك بالذى أعده للمجاهدين فى سبيله يوم القيامة من الفلاح، والسعادة العظيمة المخالدة المستمرة التى لا تبيد ولا تحول ولا تزول فى الغرف العالية الرفيعة، الآمنة الحسنة مناظرها، الطيبة مساكنها، التى من سكنها ينعم لا ييأس، ويحىى لا يموت، لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه.

ثم أخبر تعالى بما أعده لأعدائه الكفار من العذاب والنكال يوم القيامة فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فى الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى لو أن أحدهم جاء يوم القيامة بملء الأرض ذهبًا وبمثله ليفتدى بذلك من عذاب الله الذى قد أحاط به، وتيقن وصوله إليه ما تقبل ذلك منه، بل لا مندوحة عنه ولا محيص له ولا مناص، ولهذا قال ﴿وَلَوْ أَنَّ عَذَابَ أَلِيمٍ﴾ أى موجع ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يُخْرَجُوا مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أُعِيدُوا فِيهَا﴾ الآية [الصح: ٢٣٣]، فلا يزالون يريدون الخروج مما هم فيه من شدته وأليم مسه ولا سبيل لهم إلى ذلك، وكلما رفعهم اللهب فصاروا فى أعلى جهنم ضربتهم الزبانية بالمقامع الحديد فيردوهم إلى أسفلها ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أى دائم مستمر لا خروج لهم منها، ولا محيد لهم عنها.

وقد قال حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ «يؤتى بالرجل من أهل النار فيقال له: يا ابن آدم، كيف وجدت مضجعك؟ فيقول: شر مضجع، فيقال: هل تفتدى

(١) عزاه لابن مردويه كذلك عن عمارة بن غزية عن موسى بن وردان.

(٢) منكر: مسلسل بالضعفاء، وفيه عبد الحميد بن بحر: ضعيف جدًا، وأبو إسحاق: مدلس، وقد عنعن، والحارث الأعور: متهم بالكذب.

بقراب الأرض ذهباً؟ قال: فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: كذبت، قد سألتك أقل من ذلك فلم تفعل، فيؤمر به إلى النار»^(١)، رواه مسلم والنسائي من طريق^(٢) حماد بن سلمة بنحوه.

وكذا رواه البخارى ومسلم أخرجاه من طريق معاذ بن هشام الدستوائى عن أبيه عن قتادة عن أنس به، وكذا أخرجاه من طريق أبى عمران الجونى واسمه عبد الملك بن حبيب عن أنس بن مالك به، ورواه مطر الوراق عن أنس بن مالك، ورواه ابن مردويه من طريقه عنه.

ثم روى ابن مردويه^(٣) من طريق المسعودى عن يزيد بن صهيب الفقير عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال «يخرج من النار قوم فيدخلون الجنة» قال: فقلت لجابر بن عبد الله: يقول الله ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا﴾ قال: اتل أول الآية ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ﴾ الآية، ألا إنهم الذين كفروا. وقد روى الإمام أحمد ومسلم هذا الحديث: من وجه آخر عن يزيد الفقير، عن جابر، وهذا أبسط سياقاً.

وقال ابن أبى حاتم^(٤): حدثنا الحسين بن محمد بن شنبه الواسطى، حدثنا يزيد بن هارون، أخبرنا مبارك بن فضالة، حدثنى يزيد الفقير قال: جلست إلى جابر بن عبد الله وهو يحدث، فحدث أن ناساً يخرجون من النار، قال: وأنا يومئذ أنكر ذلك، فغضبت وقلت: ما أعجب من الناس، ولكن أعجب منكم يا أصحاب محمد تزعمون أن الله يخرج ناساً من النار، والله يقول ﴿يُرِيدُونَ أَن يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنْهَا﴾ الآية، فانتهرنى أصحابه، وكان أحلمهم، فقال: دعوا الرجل إنما ذلك للكفار، فقرأ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ حتى بلغ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أما تقرأ القرآن؟ قلت: بلى قد جمعت، قال: أليس الله يقول ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] فهو ذلك المقام، فإن الله تعالى يحتسب أقواماً بخطاياهم فى النار ما شاء، لا يكلمهم فإذا أراد أن يخرجهم أخرجهم، قال: فلم أهد بعد ذلك إلى أن أكذب به.

ثم قال ابن مردويه^(٥): حدثنا دعلج بن أحمد، حدثنا عمرو بن حفص السدوسى، حدثنا عاصم بن على، أخبرنا العباس بن الفضل، حدثنا سعيد بن المهلب، حدثنى طلق بن حبيب قال: كنت من أشد الناس تكذيباً بالشفاعة حتى لقيت جابر بن عبد الله، فقرأت عليه كل آية أقدر عليها، يذكر الله فيها خلود أهل النار، فقال: يا طلق، أترأى أقرأ لكتاب الله وأعلم بسنة رسول الله مني؟ إن الذين قرأت هم أهلها هم المشركون، ولكن هؤلاء قوم أصابوا ذنوباً فعذبوا، ثم أخرجوا منها، ثم أهرى بيديه إلى أذنيه فقال: صمّتا إن لم أكن سمعت رسول الله ﷺ يقول «يخرجون من النار بعدما دخلوا» ونحن نقرأ كما قرأت.

(١) المسند (١٢٧٥٠)، ورجاله ثقات.

(٢) مسلم برقم (١٨٧٧)، النسائي برقم (٣١٦٠).

(٣) صحيح: في إسناده المسعودى: اختلط ويشهد له الرواية القادمة وهي مختصرة دون مراجعة يزيد الفقير لجابر، مسلم (١٩١).

(٤) حسن: رجاله ثقات، ومبارك بن فضالة: مدلس تدليس تسوية، ولكنه صرح بالسماع في الإسناد.

(٥) في إسناده طلق بن حبيب: كان مرجئاً، وقد تركه بعضهم.

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾
 فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ
 لَكُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى حاكماً وأمراً بقطع يد السارق والسارقة، وروى الثوري عن جابر بن يزيد الجعفي، عن
 عامر بن شراحيل الشعبي أن ابن مسعود كان يقرأها ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ وهذه قراءة
 شاذة، وإن كان الحكم عند جميع العلماء موافقاً لها لا بها، بل هو مستفاد من دليل آخر، وقد كان
 القطع معمولاً به في الجاهلية، فقرر في الإسلام، وزيدت شروط آخر كما سنذكره إن شاء الله تعالى،
 كما كانت القسامة والدية والقراض وغير ذلك من الأشياء التي ورد الشرع بتقريرها على ما كانت عليه
 وزيادات هي من تمام المصالح ويقال: إن أول من قطع الأيدي في الجاهلية قريش، قطعوا رجلاً يقال
 له: دويك مولى لبنى مليح بن عمرو من خزاعة، كان قد سرق كنز الكعبة، ويقال: سرقه قوم فوضعه
 عنده، وقد ذهب بعض الفقهاء من أهل الظاهر إلى أنه متى سرق السارق شيئاً قطعت يده به، سواء كان
 قليلاً أو كثيراً للعموم هذه الآية ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ فلم يعتبروا نصاباً ولا حرزاً، بل
 أخذوا بمجرد السرقة.

وقد روى ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عبد المؤمن عن نجدة الحنفي، قال: سألت ابن عباس
 عن قوله ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ أخاص أم عام؟ فقال: بل عام، وهذا يحتمل أن يكون
 موافقة من ابن عباس لما ذهب إليه هؤلاء، ويحتمل غير ذلك، فالله أعلم. وتمسكوا بما ثبت في
 الصحيحين^(١) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطع يده،
 ويسرق الحبل فتقطع يده» وأما الجمهور، فاعتبروا النصاب في السرقة وإن كان قد وقع بينهم الخلاف
 في قدره، فذهب كل من الأئمة الأربعة إلى قول علي حدة، فعند الإمام مالك بن أنس رحمه الله
 النصاب ثلاثة دراهم مضروبة خالصة، فمتى سرقها أو ما يبلغ ثمنها فما فوقه، وجب القطع، واحتج
 في ذلك بما رواه عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قطع في مجن ثمنه ثلاثة دراهم، أخرجاه في
 الصحيحين^(٢)، قال مالك رحمه الله: وقطع عثمان رضي الله عنه في أترجة قومت بثلاثة دراهم، وهو
 أحب ما سمعت في ذلك. وهذا الأثر عن عثمان رضي الله عنه قد رواه مالك عن عبد الله بن أبي بكر
 عن أبيه، عن عمرة بنت عبد الرحمن أن سارقاً سرق في زمن عثمان أترجة، فأمر بها عثمان أن تقوم
 فقومت بثلاثة دراهم من صرف اثني عشر درهماً بدينار، فقطع عثمان يده. قال أصحاب مالك: ومثل
 هذا الصنيع يشتهر، ولم ينكر، فمن مثله يحكى الإجماع السكوتي، وفيه دلالة على القطع في الثمار
 خللاً للحنفية، وعلى اعتبار ثلاثة دراهم خلافاً لهم في أنه لا بد من عشرة دراهم، وللشافعية في اعتبار
 ربع دينار، والله أعلم.

(١) البخاري برقم (٦٧٨٣)، ومسلم برقم (١٦٨٧).

(٢) البخاري برقم (٦٧٩٥)، ومسلم برقم (١٦٨٦).

وذهب الشافعي رحمه الله إلى أن الاعتبار في قطع يد السارق بربع دينار أو ما يساويه من الأثمان أو العروض فصاعداً، والحجة في ذلك: ما أخرجه الشيخان البخاري ومسلم^(١) من طريق الزهري عن عمرة، عن عائشة رضی الله عنها أن رسول الله ﷺ قال «تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً» ولمسلم^(٢) من طريق أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، عن عمرة، عن عائشة رضی الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقطع يد السارق إلا في ربع دينار فصاعداً» قال أصحابنا: فهذا الحديث فاصل في المسألة، ونص في اعتبار ربع الدينار لا ما ساواه. قالوا: وحديث ثمن المجن، وأنه كان ثلاثة دراهم لا ينافي هذا لأنه إذ ذاك كان الدينار بائني عشر درهماً، فهي ثمن ربع دينار، فأمكن الجمع بهذا الطريق، ويروى هذا المذهب عن عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلى بن أبي طالب رضی الله عنهم، وبه يقول عمر بن عبد العزيز والليث بن سعد والأوزاعي والشافعي وأصحابه، وإسحاق بن راهويه في رواية عنه، وأبو ثور وداود بن علي الظاهري، رحمهم الله.

وذهب الإمام أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية عنه، إلى أن كل واحد من ربع الدينار والثلاثة دراهم مرد شرعي، فمن سرق واحداً منهما أو ما يساويه، قطع عملاً بحديث ابن عمر ويحديث عائشة رضی الله عنها، ووقع في لفظ عند الإمام أحمد^(٣) عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال «اقطعوا في ربع دينار، ولا تقطعوا فيما هو أدنى من ذلك» وكان ربع الدينار يومئذ ثلاثة دراهم، والدينار اثني عشر درهماً. وفي لفظ للنسائي «لا تقطع يد السارق فيما دون ثمن المجن». قيل لعائشة: ما ثمن المجن؟ قالت: ربع دينار، وهذه كلها نصوص دالة على عدم اشتراط عشرة دراهم، والله أعلم.

وأما الإمام أبو حنيفة وأصحابه أبو يوسف ومحمد وزفر، وكذا سفيان الثوري، رحمهم الله، فإنهم ذهبوا إلى أن النصاب عشرة دراهم مضروبة غير مغشوشة، واحتجوا بأن ثمن المجن الذي قطع فيه يد السارق على عهد رسول الله ﷺ كان ثمنه عشرة دراهم. وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة^(٤): حدثنا ابن نمير وعبد الأعلى، عن محمد بن إسحاق عن أيوب بن موسى، عن عطاء، عن ابن عباس قال: كان ثمن المجن على عهد النبي ﷺ عشرة دراهم، ثم قال: حدثنا عبد الأعلى عن محمد بن إسحاق، عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده قال: قال رسول الله ﷺ «لا تقطع يد السارق في دون ثمن المجن»^(٥) وكان ثمن المجن عشرة دراهم، قالوا: فهذا ابن عباس وعبد الله بن عمرو قد خالفا ابن عمر في ثمن المجن، فالاحتياط بالأخذ بالأكثر، لأن الحدود تدرأ بالشبهات.

وذهب بعض السلف إلى أنه تقطع يد السارق في عشرة دراهم أو دينار أو ما يبلغ قيمته واحداً منهما، يحكى هذا عن علي وابن مسعود وإبراهيم النخعي وأبي جعفر الباقر رحمهم الله تعالى. وقال

(١) البخاري برقم (٦٧٩٠)، ومسلم برقم (١٦٨٤).

(٢) مسلم برقم (١٦٨٤).

(٣) ضعيف المسند (٢٣٩٩٤)، انظر الإرواء (٢٤٠٩).

(٤) ضعيف: ابن أبي شيبة (٤٧٦/٥) برقم (٢٨١٠٤)، وفيه محمد بن إسحاق: وقد اختلف عليه فيه.

(٥) حسن لغيره: دون قوله (وكان ثمن المجن عشرة دراهم)، والحديث أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٤٧٥/٥) برقم (٢٨٠٩٠)، وفيه محمد بن إسحاق: مدلس قد عنعن.

بعض السلف: لا تقطع الخمس إلا في خمس، أى في خمسة دنائير أو خمسين درهماً، وينقل هذا عن سعيد بن جبير رحمه الله. وقد أجاب الجمهور عما تمسك به الظاهرية من حديث أبي هريرة «يسرق البيضة فتقطع يده، ويسرق الحبل فتقطع يده» بأجوبة:

(أحدها): أنه منسوخ بحديث عائشة، وفي هذا نظر، لأنه لا بد من بيان التاريخ.

(والثاني): أنه مؤول ببيضة الحديد وحبل السفن، قاله الأعمش فيما حكاه البخارى وغيره عنه.

(والثالث): أن هذه وسيلة إلى التدرج فى السرقة من القليل إلى الكثير الذى تقطع فيه يده، ويحتمل أن يكون هذا خرج مخرج الإخبار عما كان الأمر عليه فى الجاهلية حيث كانوا يقطعون فى القليل والكثير، فلعن السارق الذى يبذل يده الثمينة فى الأشياء المهينة، وقد ذكروا أن أبا العلاء المعرى لما قدم بغداد، اشتهر عنه أنه أورد إشكالاً على الفقهاء فى جعلهم نصاب السرقة ربع دينار، ونظم فى ذلك شعراً دل على جهله وقلة عقله، فقال:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت فى ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له وأن نعوذ بمولانا من النار

ولما قال ذلك واشتهر عنه تطلبه الفقهاء فهرب منهم، وقد أجابه الناس فى ذلك، فكان جواب القاضى عبد الوهاب المالكى رحمه الله أنه قال: لما كانت أمينة، كانت ثمينة، ولما خانت هانت. ومنهم من قال: هذا من تمام الحكمة والمصلحة وأسرار الشريعة العظيمة، فإنه فى باب الجنایات ناسب أن تعظم قيمة اليد بخمسائة دينار لثلاث يجرى عليها. وفى باب السرقة ناسب أن يكون القدر الذى تقطع فيه ربع دينار، لثلاث يتسارع الناس فى سرقة الأموال، فهذا هو عين الحكمة عند ذوى الألباب ولهذا قال: ﴿جَزَاءُ يَمَّا كَسَبَا تَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أى مجازاة على صنيعهما السيئ فى أخذهما أموال الناس بأيديهم، فناسب أن يقطع ما استعانا به فى ذلك ﴿تَكَالًا مِّنَ اللَّهِ﴾ أى تنكيلاً من الله بهما على ارتكاب ذلك، ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أى فى انتقامه، ﴿حَكِيمٌ﴾ أى فى أمره ونهيه وشرعه وقدره. ثم قال تعالى: ﴿فَن تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أى من تاب بعد سرقة وأتاب إلى الله فإن الله يتوب عليه فيما بينه وبينه، فأما أموال الناس فلا بد من ردها إليهم أو بدلها عند الجمهور.

وقال أبو حنيفة: متى قطع وقد تلفت فى يده فإنه لا يرد بدلها، وقد روى الحافظ أبو الحسن الدارقطنى^(١) من حديث محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ أتى بسارق قد سرق شملة، فقال: ما إخاله سرق، فقال السارق: بلى يا رسول الله. قال اذهبوا به فاقطعوه، ثم احسموه، ثم اثنوني به فقطع فأتى به فقال «تب إلى الله» فقال: تبت إلى الله، فقال «تاب الله عليك». وقد روى من وجه آخر مرسلًا، ورجح إرساله على بن المدينى وابن خزيمة رحمهما الله.

وروى ابن ماجه^(٢) من حديث ابن لهيعة، عن يزيد بن أبى حبيب، عن عبد الرحمن بن ثعلبة

(١) الدارقطنى (١٠٢/٣) برقم (٧١)، وقال الهيثمى (٢٧٦/٦): رواه البزار عن شيخه أحمد بن أبان القرشى: وثقه ابن حبان وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) ضعيف: ابن ماجه (٢٥٨٨)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

الأنصاري، عن أبيه أن عمرو بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس، جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنني سرقت جملًا لبني فلان، فطهرني. فأرسل إليهم النبي ﷺ فقالوا: إنا افتقدنا جملًا لنا، فأمر به فقطعت يده، قال ثعلبة: أنا أنظر إليه حين وقعت يده، وهو يقول: الحمد لله الذي طهرني منك، أردت أن تدخلي جسدي النار.

وقال ابن جرير^(١): حدثنا أبو كريب، حدثنا موسى بن داود، حدثنا ابن لهيعة عن حبي بن عبد الله، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: سرقت امرأة حليًا فجاء الذين سرقتهم، فقالوا: يا رسول الله، سرقتنا هذه المرأة، فقال رسول الله ﷺ «اقطعوا يدها اليمنى» فقالت المرأة: هل من توبة؟ فقال رسول الله ﷺ «أنت اليوم من خطيبتك كيوم ولدتك أمك»، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقد رواه الإمام أحمد^(٢) بأبسط من هذا فقال: حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثني حبي بن عبد الله عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو أن امرأة سرقت على عهد رسول الله ﷺ، فجاء بها الذين سرقتهم، فقالوا: يا رسول الله، إن هذه المرأة سرقتنا. قال قومها: فنحن نغديها، فقال رسول الله ﷺ «اقطعوا يدها»، فقالوا: نحن نغديها بخمسمائة دينار، فقال «اقطعوا يدها» قال: فقطعت يدها اليمنى، فقالت المرأة: هل لي من توبة يا رسول الله؟ قال «نعم أنت اليوم من خطيبتك كيوم ولدتك أمك»، فأنزل الله في سورة المائدة ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذه المرأة هي المخزومية التي سرقت، وحديثها ثابت في الصحيحين^(٣) من رواية الزهري عن عروة، عن عائشة أن قريشًا أهمهم شأن المرأة التي سرقت، في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ، فأتى بها رسول الله ﷺ، فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال «أشفع في حد من حدود الله عز وجل؟» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي، قام رسول الله ﷺ فاخطب فأتى على الله بما هو أهله، ثم قال «أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإنني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يدها»، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها. قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتي بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ، وهذا لفظ مسلم. وفي لفظ له عن عائشة قالت: كانت امرأة مخزومية تستعير المتاع وتجحده، فأمر النبي ﷺ بقطع يدها.

وهن ابن عمر قال: كانت امرأة مخزومية تستعير متاعًا على السنة جاراتها وتجحده، فأمر رسول الله ﷺ بقطع يدها، رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي^(٤) وهذا لفظه، وفي لفظ له: أن امرأة كانت

(١) في إسناده ابن لهيعة: اختلط.

(٢) المسند (٦٦١٩)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، وحبي بن عبد الله: فيه نظر.

(٣) البخاري برقم (٣٤٧٥)، مسلم (١٦٨٨).

(٤) صحيح: أحمد (٦٣٤٧)، وأبو داود (٤٣٩٥)، والنسائي (٤٨٨٧)، انظر صحيح سنن أبي داود.

تستعير الحلى للناس ثم تمسكه، فقال رسول الله ﷺ «لتب هذه المرأة إلى الله وإلى رسوله، وترد ما تأخذ على القوم»، ثم قال رسول الله ﷺ «قم يا بلال فخذ بيدها فاقطعها». وقد ورد فى أحكام السرقة أحاديث كثيرة مذكورة فى كتاب الأحكام، ولله الحمد والمنة، ثم قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَقَمَّ أَنْ اللَّهُ لَمْ يَمَلِكْ أَلَسَمَكُوتَ وَالْأَرْضِ﴾ أى هو المالك لجميع ذلك، الحاكم فيه، الذى لا معقب لحكمه، وهو الفعال لما يريد ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

رب
الحزب
١٢

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْكَرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّوْنَ لِلْكَذِبِ سَمَّوْنَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ سَمَّوْنَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّخْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَصُرُوا شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿١١﴾ وَكَفَى بِمُحْكِمَاتِكُمْ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَضُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَآخَشَوْا وَلَا تَشْتَرُوا بِإِيتَانِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿١٣﴾﴾

نزلت هذه الآيات الكريمات فى المسارعين فى الكفر، الخارجين عن طاعة الله ورسوله، المقدمين آراءهم وأهواءهم على شرائع الله عز وجل ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّوْنَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَحْرِفُونَ الْكَلِمَةَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أى يتأولونه على غير تأويله، ويبدلونه من بعد ما عقلوه، وهم يعلمون، ﴿يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا﴾ قيل: نزلت فى أقوام من اليهود قتلوا قتيلاً، وقالوا: تعالوا حتى نتحاكم إلى محمد، فإن أفتانا بالدية فخذوا ما قال، وإن حكم بالقصاص فلا تسمعوا منه، والصحيح أنها نزلت فى اليهوديين اللذين زنيا وكانوا قد بدلوا كتاب الله الذى بأيديهم من الأمر برجم من أحسن منهم، فحرفوا واصطلحوا فيما بينهم على الجلد مائة جلدة، والتحميم والإركاب على حمار مقلوبين، فلما وقعت تلك الكائنة بعد هجرة النبي ﷺ قالوا فيما بينهم: تعالوا حتى نتحاكم إليه، فإن حكم بالجلد والتحميم فخذوا عنه واجعلوه حجة بينكم وبين الله، ويكون نبي من أنبياء الله قد حكم بينكم

بذلك، وإن حكم بالرجم فلا تتبعوه في ذلك.

وقد وردت الأحاديث في ذلك: قال مالك، عن نافع، عن عبد الله بن عمر رضی الله عنهما أنه قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلاً منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويجلدون، قال عبد الله بن سلام: كذبتهم، إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما، فرأيت الرجل يحنى على المرأة يقبها بالحجارة، أخرجه (١)، وهذا لفظ البخاري، وفي لفظ له: فقال لليهود «ما تصنعون بهما؟» قالوا: نسخم وجوههما ونخزيهما، قال «فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [آل عمران: ٩٣] فجاءوا فقالوا لرجل منهم ممن يرضون أعور: اقرأ فقرأ حتى انتهى إلى موضع منها، فوضع يده عليه فقال: ارفع يدك فرفع، فإذا آية الرجم تلوح، قال: يا محمد إن فيها آية الرجم ولكننا نتكاته بيننا، فأمر بهما فرجما.

وعتد مسلم: أن رسول الله ﷺ أتى يهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله ﷺ حتى جاء يهود فقال «ما تجدون في التوراة على من زنى؟» قالوا: نسود وجوههما ونحملهما ونخالف بين وجوههما ويطاف بهما. قال «فَأَتُوا بِالتَّورَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» [آل عمران: ٩٣] قال: فجاءوا بها فقرءوها حتى إذا مر بآية الرجم، وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله ﷺ: مُرهُ فَليرفع يده فرفع يده، فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله ﷺ فرجما. قال عبد الله بن عمر: كنت فيمن رجمهما، فلقد رأيته يقبها من الحجارة بنفسه. وقال أبو داود (٢): حدثنا أحمد بن سعيد الهمداني، حدثنا ابن وهب، حدثنا هشام بن سعد أن زيد بن أسلم حدثه عن ابن عمر قال: أتى نفر من اليهود فدعوا رسول الله ﷺ إلى القف، فأتاهم في بيت المدراس، فقالوا: يا أبا القاسم، إن رجلاً منا زنى بامرأة فاحكم. قال: ووضعوا الرسول الله ﷺ وبهادة فجلس عليها، ثم قال «اتنوني بالتوراة»، فأتى بها، فترع الوسادة من تحته ووضع التوراة عليها، وقال «أمنت بك وبمن أنزلك» ثم قال «اتنوني بأعلمكم» فأتى بفتى شاب ثم ذكر قصة الرجم نحو حديث مالك عن نافع.

وقال الزهري: سمعت رجلاً من مزينة ممن يتبع العلم ويعيه، ونحن عند ابن المسيب، عن أبي هريرة قال: زنى رجل من اليهود بامرأة فقال بعضهم لبعض: اذهبوا إلى هذا النبي فإنه بعث بالتخفيف، فإن أفتانا بفتيا دون الرجم قبلنا واحتججنا بها عند الله، قلنا: فتيا نبي من أنبيائك. قال: فأتوا النبي ﷺ وهو جالس في المسجد في أصحابه، فقالوا: يا أبا القاسم، ما تقول في رجل وامرأة منهم زنيا؟ فلم يكلمهم كلمة حتى أتى بيت مدراسهم، فقام على الباب فقال «أنشدكم بالله الذي أنزل التوراة على موسى ما تجدون في التوراة على من زنى إذا أحسن؟» قالوا: يحمم ويجه ويجلد، والتجبية أن يحمل الزانيان على حمار وتقابل أفقيتهما ويطاف بهما، قال: وسكت شاب منهم، فلما رآه رسول الله ﷺ

(١) البخاري برقم (٣٦٣٥)، مسلم برقم (١٦٩٩).

(٢) حسن: أبو داود (٤٤٤٩)، انظر صحيح سنن أبي داود.

سكت، أظن به رسول الله ﷺ النشدة، فقال: اللهم إذ نشدتنا فإننا نجد في التوراة الرجم، فقال النبي ﷺ «فما أول ما ارتخصتم أمر الله» قال: زنى ذو قرابة من ملك من ملوكنا فأخر عنه الرجم، ثم زنى رجل في إثره من الناس فأراد رجمه، فحال قومه دونه وقالوا: لا نرجم صاحبنا حتى تجيء بصاحبك فترجمه، فاصطلحوا هذه العقوبة بينهم، فقال النبي ﷺ «فإني أحكم بما في التوراة» فأمر بهما فرجما، قال الزهري: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا﴾ فكان النبي ﷺ منهم، رواه أحمد وأبو داود^(١) وهذا لفظه، وابن جرير.

قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا أبو معاوية، حدثنا الأعمش عن عبد الله بن مرة، عن البراء بن عازب، قال: مرّ على رسول الله ﷺ يهودى محمم مجلود، فدعاهم، فقال «أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟» فقالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم فقال «أنشدك بالذى أنزل التوراة على موسى، أهكذا تجدون حد الزانى فى كتابكم؟» فقال: لا والله، ولولا أنك نشدتنى بهذا لم أخبرك، نجد حد الزانى فى كتابنا الرجم، ولكنه كثر فى أشرافنا فكننا إذا أخذنا الشريف تركناه، وإذا أخذنا الضعيف أقمنا عليه الحد، فقلنا: تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والوضيع، فاجتمعنا على التحميم والجلد، فقال النبي ﷺ «اللهم إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» قال: فأمر به فرجم، قال: فأنزل الله عز وجل ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله ﴿يَقُولُونَ إِنَّا أَوْتِينَا هَذَا فَخَذُّوهُ﴾ أى يقولون: اتنا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا، إلى قوله ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال فى اليهود، إلى قوله ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] قال فى اليهود ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: فى الكفار كلهم، انفرد بإخراجه مسلم دون البخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه^(٣) من غير وجه عن الأعمش به.

وقال الإمام أبو بكر عبد الله بن الزبير الحميدى^(٤) فى مسنده: حدثنا سفيان بن عيينة، عن مجالد بن سعيد الهمداني عن الشعبي، عن جابر بن عبد الله، قال: زنى رجل من أهل فدك، فكتب أهل فدك إلى ناس من اليهود بالمدينة، أن سلوا محمداً عن ذلك، فإن أمركم بالجلد فخذوه عنه، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوا عنه، فسألوه عن ذلك، فقال «أرسلوا إلى أعلم رجلين فيكم» فجاءوا برجل أعور يقال له ابن صوريا، وآخر، فقال لهما النبي ﷺ «أنتما أعلم من قبلكما» فقالا: قد دعانا قوماً لذلك، فقال النبي ﷺ لهما «أليس عندكما التوراة فيها حكم الله» قالا: بلى، فقال النبي ﷺ «فأنشدكم بالذى فلق البحر لبنى إسرائيل، وظلل عليكم الغمام، وأنجاكم من آل فرعون، وأنزل المن والسلوى على بنى إسرائيل، ما تجدون فى التوراة فى شأن الرجم؟» فقال أحدهما للآخر: ما نشدت بمثله قط، ثم قال: نجد ترداد النظر زنية، والاعتناق زنية، والتقبيل زنية، فإذا شهد أربعة أنهم رأوه يبدى ويعيد،

(١) ضعيف: أحمد (٧٧٠٣)، وأبو داود (٤٤٥٠)، وابن جرير (٢٤٩/٦)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٢) المسند (١٨٠٥٤)، ورجاله ثقات.

(٣) مسلم (٤٤٤٧)، وأبو داود (٤٤٤٨)، وابن ماجه (٢٥٥٨).

(٤) ضعيف: بهذا النحو: الحميدى (٥٤١/٢) برقم (١٢٩٤)، وفيه مجالد بن سعيد: ليس بالقوى.

كما يدخل الميل فى المكحلة، فقد وجب الرجم، فقال النبى ﷺ «هو ذاك» فأمر به فرجم، فنزلت ﴿فَإِنْ جَاءَكَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضْرُوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. ورواه أبو داود وابن ماجه (١) من حديث مجالد به نحوه.

ولفظ أبى داود عن جابر، قال: جاءت اليهود برجل وامرأة منهم زنيا، فقال ﷺ «انتونى بأعلم رجلين منكم» فأتوه بابنى سوريا، فنشدهما «كيف تجدان أمر هذين فى التوراة؟» قالا: نجد إذا شهد أربعة أنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل الميل فى المكحلة، رجما، قال «فما يمنعكم أن ترجموهما؟» قالا: ذهب سلطاننا فكرهنا القتل، فدعا رسول الله ﷺ بالشهود، فجاء أربعة، فشهدوا أنهم رأوا ذكره فى فرجها مثل الميل فى المكحلة، فأمر رسول الله ﷺ برجمهما، ثم رواه أبو داود عن الشعبى وإبراهيم النخعى مرسلًا، ولم يذكر فيه: فدعا بالشهود فشهدوا. فهذه أحاديث دالة على أن رسول الله ﷺ، حكم بموافقة حكم التوراة، وليس هذا من باب الإلزام لهم بما يعتقدون صحته، لأنهم مأمورون باتباع الشرع المحمدي لا محالة، ولكن هذا بوحي خاص من الله عز وجل إليه بذلك، وسؤاله إياهم عن ذلك، ليقرهم على ما بأيديهم مما تراضوا على كتمانهم وجحدته وعدم العمل به تلك الدهور الطويلة، فلما اعترفوا به مع عملهم على خلافه بان زيغهم وعنادهم وتكذيبهم لما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم، وعودتهم إلى تحكيم الرسول ﷺ إنما كان عن هوى منهم، وشهوة لموافقة آرائهم لا لاعتقادهم صحة ما يحكم به، ولهذا قالوا ﴿إِنْ أُرْتِيْتُمْ هَذَا﴾ أى: الجلد والتحميم، ﴿فَخَذُوهُ﴾ أى اقبلوه، ﴿وَإِنْ لَمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذُوا﴾ أى من قبوله واتباعه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْتَرِمْ قُلُوبَهُمْ كَفَمٌ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ سَنَنْتُوكَ لِلكَذِبِ﴾ أى الباطل ﴿أَكْثَلُونَ لِلسُّخْتِ﴾ أى الحرام، وهو الرشوة، كما قاله ابن مسعود وغير واحد، أى ومن كانت هذه صفته كيف يطهر الله قلبه وأنى يستجيب له، ثم قال لنبىه ﴿فَإِنْ جَاءَكَ﴾ أى يتحاكمون إليك ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَنْ يَضْرُوكَ شَيْئًا﴾ أى فلا عليك أن لا تحكم بينهم، لأنهم لا يقصدون بتحاكمهم إليك اتباع الحق بل ما وافق أهواءهم، قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والسدى وزيد بن أسلم وعطاء الخراسانى: هى منسوخة بقوله ﴿وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة: ٤٩]. ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾ أى بالحق والعدل، وإن كانوا ظلمة خارجين عن طريق العدل ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

ثم قال تعالى منكرًا عليهم فى آرائهم الفاسدة، ومقاصدهم الزائفة فى تركهم ما يعتقدون صحته من الكتاب الذى بأيديهم، الذى يزعمون أنهم مأمورون بالتمسك به أبدًا، ثم خرجوا عن حكمه، وعدلوا إلى غيره مما يعتقدون فى نفس الأمر بطلانه وعدم لزومه لهم، فقال ﴿وَكَيْفَ يُحْكِمُوكَ وَعِنْدَهُمُ التَّورَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ثم مدح التوراة التى أنزلها على عبده ورسوله موسى بن عمران، فقال ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ أى لا يخرجون عن حكمها ولا يبدلونها ولا يحرفونها، ﴿وَالرَّبِّيبُونَ وَالْأَجْبَارُ﴾ أى وكذلك

(١) صحيح: أبو داود (٤٤٥٢)، ابن ماجه (٢٣٢٨)، انظر صحيح سنن أبى داود.

الريانيون، وهم العلماء العباد، والأخبار هم العلماء ﴿يَمَّا اسْتُخْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ أى بما استودعوا من كتاب الله الذى أمروا أن يظهروه ويعملوا به، ﴿وَكَاثُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَأَخْسَبُونَ﴾ أى لا تخافوا منهم وخافوا منى، ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِإِنْتِنَىٰ تَمَنَّا قَلِيلًا وَمَنْ لَّمْ يَجْحَدْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه قولان سيأتى بيانهما.

سبب آخر فى نزول هذه الآيات الكريمات : قال الإمام أحمد ^(١) : حدثنا إبراهيم بن العباس ، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه ، عن عبيد الله بن عبد الله ، عن ابن عباس ، قال : إن الله أنزل : ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجْحَدْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ و ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ و ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، قال : قال ابن عباس : أنزلها الله فى الطائفتين من اليهود ، كانت إحداهما قد قهرت الأخرى فى الجاهلية حتى ارتضوا واصطلحوا على أن كل قتيل قتله العزيرة من الذليلة فديته خمسون وسقاً ، وكل قتيل قتله الذليلة من العزيرة فديته مائة وسق ، فكانوا على ذلك حتى قدم النبى ﷺ ، فقتلت الطائفتان كلتاهما ؛ لمقدم رسول الله ﷺ ويومئذ لم يظهر ، ولم يوطئها عليه وهو فى الصلح ، فقتلت الذليلة من العزيرة قتيلاً ، فأرسلت العزيرة إلى الذليلة أن ابعثوا لنا مائة وسق ، فقالت الذليلة : وهل كان هذا فى حين قط دينهما واحد ، ونسبهما واحد ، وبلدهما واحد ، دية بعضهم نصف دية بعض ، إنما أعطيناكم هذا ضيماً منكم لنا وفرقاً منكم فأما إذ قدم محمد فلا نعطيكم ، فكادت الحرب تهيج بينهما ثم ارتضوا على أن يجعلوا رسول الله ﷺ بينهم ، ثم ذكرت العزيرة ، فقالت : والله ما محمد بمعطيكم منهم ضعف ما يعطيهم منكم ، ولقد صدقوا ، ما أعطونا هذا إلا ضيماً منا وقهراً لهم فديسوا إلى محمد من يخبر لكم رأيه إن أعطاكم ما تريدون حكمتومه ، وإن لم يعطكم حذرتم فلم تحكموه ، فديسوا إلى رسول الله ﷺ ناساً من المنافقين ليخبروا لهم رأى رسول الله ﷺ ، فلما جاءوا رسول الله ﷺ ، أخبر الله رسوله ﷺ بأمرهم كله وما أرادوا ، فأنزل الله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الرَّمْوَذُ لَا يَجْرُؤُكَ الَّذِينَ يُسَكِّرُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] ، ففيهم والله أنزل ، وإياهم عنى الله عز وجل ، ورواه أبو داود من حديث ابن أبى الزناد عن أبيه بنحوه .

وقال أبو جعفر بن جرير حدثنا هناد بن السرى وأبو كريب ، قالوا : حدثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق ، حدثنى داود بن الحصين عن عكرمة ، عن ابن عباس : أن الآيات التى فى المائدة قوله ﴿فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَن يَضْرُوكَ شَيْئًا وَإِن حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ إنما أنزلت فى الدية فى بنى النضير وبنى قريظة ، وذلك أن قتلى بنى النضير كان لهم شرف ، تودى لهم الدية كاملة ، وأن قريظة كانوا يودون لهم نصف الدية ، فتحاكموا فى ذلك إلى رسول الله ﷺ ، فأنزل الله ذلك فيهم ، فحملهم رسول الله ﷺ على الحق فى ذلك ، فجعل الدية فى ذلك سواء ، والله أعلم أى ذلك كان ، ورواه أحمد وأبو داود والنسائى من حديث ابن إسحاق بنحوه .

ثم قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب حدثنا عبيد الله بن موسى عن على بن صالح ، عن سماك ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : كانت قريظة والنضير ، وكانت النضير أشرف من قريظة ، فكان إذا قتل

(١) صحيح : المسند (٢٢١٣) ، انظر السلسلة الصحيحة (٢٥٥٢) .

رجل من قريظة رجلاً من النضير قتل به، وإذا قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، ودى بمائة وسق من تمر، فلما بعث رسول الله ﷺ قتل رجل من النضير رجلاً من قريظة، فقالوا: ادفعوا إليه، فقالوا: بيننا وبينكم رسول الله ﷺ، فنزلت ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ﴾، ورواه أبو داود والنسائي وابن حبان والحاكم في المستدرک من حديث عبيد الله بن موسى بنحوه، وهكذا قال قتادة ومقاتل بن حيان وابن زيد وغير واحد.

وقد روى العوفي وعلى بن أبي طلحة الوالبي عن ابن عباس أن هذه الآيات نزلت في اليهوديين اللذين زنيا، كما تقدمت الأحاديث بذلك، وقد يكون اجتماع هذان السببان في وقت واحد، فنزلت هذه الآية في ذلك كله، والله أعلم، ولهذا قال بعد ذلك ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ أَنْفَسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَمِيرِ بِالْمَمِينِ﴾ [المائدة: ٤٥] إلى آخرها، وهذا يقوى أن سبب النزول قضية القصاص، والله سبحانه وتعالى أعلم، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّئِي يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال البراء بن عازب وحذيفة بن اليمان وابن عباس وأبو مجلز وأبو رجاء العطاردي وعكرمة وعبيد الله بن عبد الله والحسن البصري وغيرهم: نزلت في أهل الكتاب، زاد الحسن البصري: وهي علينا واجبة. وقال عبد الرزاق عن سفيان الثوري، عن منصور عن إبراهيم، قال: نزلت هذه الآيات في بنى إسرائيل، ورضى الله لهذه الأمة بها، رواه ابن جرير.

وقال ابن جرير أيضاً: حدثنا يعقوب، حدثنا هشيم أخبر عبد الملك بن أبي سليمان عن سلمة بن كهيل، عن علقمة ومسروق أنهما سألا ابن مسعود عن الرشوة. فقال: من السحت، قال: فقالا: وفي الحكم، قال: ذاك الكفر، ثم تلا: ﴿وَمَنْ لَّئِي يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ وقال السدي: ﴿وَمَنْ لَّئِي يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ يقول: ومن لم يحكم بما أنزلت فتركه عمداً أو جارا وهو يعلم، فهو من الكافرين.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس قوله ﴿وَمَنْ لَّئِي يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم فهو ظالم فاسق، رواه ابن جرير، ثم اختار أن الآية المراد بها أهل الكتاب، أو من جحد حكم الله المنزل في الكتاب، وقال عبد الرزاق، عن الثوري، عن زكريا، عن الشعبي: ومن لم يحكم بما أنزل الله، قال للمسلمين.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المنثي، حدثنا عبد الصمد، حدثنا شعبة عن ابن أبي السفر، عن الشعبي: ﴿وَمَنْ لَّئِي يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: هذا في المسلمين ﴿وَمَنْ لَّئِي يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥] قال: هذا في اليهود ﴿وَمَنْ لَّئِي يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ النَّاسِئُونَ﴾ [المائدة: ٤٧] قال: هذا في النصارى، وكذا رواه هشيم والثوري، عن زكريا بن أبي زائدة، عن الشعبي وقال عبد الرزاق أيضاً: أخبرنا معمر عن ابن طاوس، عن أبيه قال: سئل ابن عباس عن قوله ﴿وَمَنْ لَّئِي يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، قال: هي به كفر، قال ابن طاوس: وليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله، وقال الثوري، عن ابن جريج، عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق، رواه ابن جرير، وقال وكيع، عن سعيد المكي، عن طاوس: ﴿وَمَنْ لَّئِي يَحْكُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بكفر ينقل عن الملة.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرئ، حدثنا سفيان بن عيينة، عن هشام بن حجير، عن طاوس، عن ابن عباس في قوله ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال: ليس بالكفر الذي تذهبون إليه. ورواه الحاكم في مستدرکه من حديث سفيان بن عيينة، وقال: صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.

﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأَذْنَ بِالْأَذْنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ فِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٥﴾﴾

وهذا أيضًا مما وبخت به اليهود وقرعوا عليه، فإن عندهم في نص التوراة أن النفس بالنفس، وهم يخالفون حكم ذلك عمدًا وعنادًا، ويقيدون النضري من القرظي، ولا يقيدون القرظي من النضري، بل يعدلون إلى الدية كما خالفوا حكم التوراة المنصوص عندهم في رجم الزاني المحصن، وعدلوا إلى ما اصطلحوا عليه من الجلد والتحميم والإشهار ولهذا قال هناك ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] لأنهم جحدوا حكم الله قصدًا منهم وعنادًا وعمدًا، وقال هاهنا ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لأنهم لم ينصفوا المظلوم من الظالم في الأمر الذي أمر الله بالعدل والتسوية بين الجميع فيه، فخالفوا وظلموا وتعدي بعضهم على بعض.

وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابن المبارك عن يونس بن يزيد، عن أبي علي بن يزيد أخى يونس بن يزيد، عن الزهري، عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قرأها ﴿وَكُنْتُمْ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ﴾ نصب النفس ورفع العين.

وكذا رواه أبو داود والترمذي^(٢) والحاكم في مستدرکه من حديث عبد الله بن المبارك، وقال الترمذي: حسن غريب. وقال البخاري: تفرد ابن المبارك بهذا الحديث. وقد استدلل كثير ممن ذهب من الأصوليين والفقهاء إلى أن شرع من قبلنا شرع لنا إذا حكى مقررًا ولم ينسخ، كما هو المشهور عن الجمهور، وكما حكاه الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني عن نص الشافعي، وأكثر الأصحاب بهذه الآية حيث كان الحكم عندنا على وفقها في الجنایات عند جميع الأئمة.

وقال الحسن البصري: هي عليهم وعلى الناس عامة، رواه ابن أبي حاتم: وقد حكى الشيخ أبو زكريا النووي في هذه المسألة ثلاثة أوجه، ثالثها أن شرع إبراهيم حجة دون غيره، وصحح منها عدم الحجية، ونقلها الشيخ أبو إسحاق الإسفراييني أقولاً عن الشافعي، ورجح أنه حجة عند الجمهور من أصحابنا، فإله أعلم.

وقد حكى الإمام أبو نصر بن الصباغ رحمه الله في كتابه «الشامل» إجماع العلماء على الاحتجاج بهذه الآية على ما دلت عليه، وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يقتل بالمرأة بعموم هذه الآية الكريمة، وكذا ورد في الحديث الذي رواه النسائي وغيره أن رسول الله ﷺ كتب في كتاب عمرو بن

(١) المسند (١٢٨٣٧)، وفيه أبو علي بن يزيد: قيل: مجهول.

(٢) ضعيف: أبو داود (٣٩٧٦)، الترمذي (٢٩٢٩)، والحاكم (٢٥٨/٢) برقم (٢٩٢٨)، انظر ضعيف سنن أبي

حزم «أن الرجل يقتل المرأة»^(١)، وفي الحديث الآخر «المسلمون تتكافأ دماؤهم»^(٢)، وهذا قول جمهور العلماء، وعن أمير المؤمنين على بن أبي طالب أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها إلا أن يدفع وليها إلى أوليائه نصف الدية، لأن ديتها على النصف من دية الرجل، وإليه ذهب أحمد في رواية، وحكى عن الحسن وعطاء وعثمان البتي، ورواية عن أحمد أن الرجل إذا قتل المرأة لا يقتل بها بل تجب ديتها، وهكذا احتج أبو حنيفة رحمه الله تعالى بعموم هذه الآية على أنه يقتل المسلم بالكافر الذمي، وعلى قتل الحر بالعبد، وقد خالفه الجمهور فيهما، ففي الصحيحين^(٣) عن أمير المؤمنين على بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لا يقتل مسلم بكافر».

وأما العبد ففيه عن السلف آثار متعددة أنهم لم يكونوا يقيدون العبد من الحر، ولا يقتلون حرًا بعبد، وجاء في ذلك أحاديث لا تصح، وحكى الشافعي الإجماع على خلاف قول الحنفية في ذلك، ولكن لا يلزم من ذلك بطلان قولهم إلا بدليل مخصص للآية الكريمة.

ويؤيد ما قاله ابن الصباغ من الاحتجاج بهذه الآية الكريمة الحديث الثابت في ذلك، كما قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا محمد بن أبي عدي، حدثنا حميد عن أنس بن مالك أن الربيع عمه أنس، كسرت ثنية جارية، فطلبوا إلى القوم العفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فقال «القصاص»، فقال أخوها أنس بن النضر: يا رسول الله، تكسر ثنية فلانة، فقال رسول الله ﷺ «يا أنس كتاب الله القصاص» قال: فقال: لا والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنية فلانة. قال: فرضى القوم فعفوا وتركوا القصاص، فقال رسول الله ﷺ «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» أخرجاه في الصحيحين^(٥)، وقد رواه محمد بن عبد الله بن المثنى الأنصاري في الجزء المشهور من حديثه، عن حميد، عن أنس بن مالك أن الربيع بنت النضر عمته لطمت جارية فكسرت ثنيتهما، فعرضوا عليهم الأرض فأبوا، فطلبوا الأرض والعفو فأبوا، فأتوا رسول الله ﷺ فأمرهم بالقصاص، ففجأ أخوها أنس بن النضر فقال: يا رسول الله، أتكسر ثنية الربيع؟ والذي بعثك بالحق لا تكسر ثنيتهما، فقال النبي ﷺ «يا أنس كتاب الله القصاص» فعفا القوم، فقال رسول الله ﷺ «إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره» رواه البخاري^(٦) عن الأنصاري. فأما الحديث الذي رواه أبو داود^(٧): حدثنا أحمد بن حنبل، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبي عن قتادة، عن أبي نضرة، عن عمران بن حصين أن غلامًا لأناس فقراء، قطع أذن غلام لأناس أغنياء، فأتى أهله النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إنا أناس فقراء، فلم يجعل عليه شيئًا، وكذا رواه النسائي^(٨) عن إسحاق بن راهويه، عن معاذ بن هشام الدستوائي، عن أبيه، عن قتادة به. وهذا إسناد قوي، رجاله كلهم ثقات، وهو حديث مشكل، اللهم إلا أن يقال: إن الجاني كان قبل البلوغ فلا

(١) ضعيف: أخرجه النسائي (٤٨٥٣)، الدارمي (٢٣٥٤) من حديث عمرو بن حزم، وانظر ضعيف سنن النسائي.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) المسند (١١٨٩٣)، ورجاله ثقات.

(٥) البخاري برقم (٢٧٠٣)، ومسلم برقم (١٦٧٥).

(٦) انظر السابق.

(٧) صحيح: أبو داود (٤٥٩٠)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٨) صحيح: النسائي (٤٧٥١)، انظر صحيح سنن النسائي.

قصاص عليه، ولعله تحمل أرش ما نقص من غلام الأغنياء عن الفقراء أو استعفاهم عنه .
 وقوله تعالى: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: تقتل النفس بالنفس، وتفقد العين بالعين، ويقطع الأنف بالأنف، وتنزع السن بالسن، وتقتص الجراح بالجراح، فهذا يستوى فيه أحرار المسلمين فيما بينهم رجالهم ونساؤهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، ويستوى فيه العبيد رجالهم ونساؤهم فيما بينهم، إذا كان عمداً في النفس وما دون النفس، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم .

قاعدة مهمة

الجراح تارة تكون في مفصل، فيجب فيه القصاص بالإجماع، كقطع اليد والرجل والكف والقدم ونحو ذلك، وأما إذا لم تكن الجراح في مفصل بل في عظم، فقال مالك رحمه الله: فيه القصاص إلا في الفخذ وشبهها، لأنه مخوف خطر. وقال أبو حنيفة وصاحبه: لا يجب القصاص في شيء من العظام إلا في السن. وقال الشافعي: لا يجب القصاص في شيء من العظام مطلقاً، وهو مروى عن عمر بن الخطاب وابن عباس، وبه يقول عطاء والشعبي والحسن البصري والزهرى وإبراهيم النخعي وعمر بن عبد العزيز، وإليه ذهب سفيان الثوري والليث بن سعد، وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد، وقد احتج أبو حنيفة رحمه الله بحديث الربيع بنت النضر على مذهبه أنه لا قصاص في عظم إلا في السن، وحديث الربيع لا حجة فيه لأنه ورد بلفظ كسرت ثنية جارية، وجائز أن تكون سقطت من غير كسر، فيجب القصاص والحالة هذه بالإجماع، وتمموا الدلالة بما رواه ابن ماجه ^(١) من طريق أبي بكر بن عياش، عن دهثم بن قران، عن نمران بن جارية، عن أبيه جارية بن ظفر الحنفي: أن رجلاً ضرب رجلاً على ساعده بالسيف من غير المفصل فقطعها، فاستعدى النبي ﷺ فأمر له بالدية، فقال: يا رسول الله، أريد القصاص، فقال: «خذ الدية، بارك الله لك فيها»، ولم يقض له بالقصاص. قال الشيخ أبو عمر بن عبد البر: ليس لهذا الحديث غير هذا الإسناد، ودهشم بن قران العكلى ضعيف، أعرابي ليس حديثه مما يحتج به، ونمران بن جارية ضعيف، أعرابي أيضاً، وأبوه جارية بن ظفر المذكور في الصحابة، ثم قالوا: لا يجوز أن يقتص من الجراحة حتى تندمل جراحة المجنى عليه، فإن اقتص منه قبل الاندمال ثم زاد جرحه، فلا شيء له، والدليل على ذلك ما رواه الإمام أحمد ^(٢)، حدثنا يعقوب، حدثني أبي عن محمد بن إسحاق، فذكر حديثاً قال ابن إسحاق، وذكر عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده أن رجلاً طعن رجلاً بقرن في ركبته، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أقدني فقال رسول الله ﷺ: «لا تعجل حتى يبرأ جرحك». قال: فأبى الرجل إلا أن يستقيد، فأقاده رسول الله ﷺ منه، فخرج المستقيد وبرأ المستقاد منه، فأتى المستقيد إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا رسول الله عرجت وبرأ صاحبي. فقال: «قد نهيتك فعميتني، فأبعدك الله وبطل عرجك» ثم نهى رسول الله ﷺ أن يقتص من جرح حتى يبرأ صاحبه، تفرد به أحمد.

(مسألة): فلو اقتص المجنى عليه من الجاني فمات من القصاص، فلا شيء عليه عند مالك

(١) ضعيف: ابن ماجه (٢٦٣٦)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه .

(٢) صحيح: المسند (٦٩٩٤)، انظر الإرواء (٢٢٣٧).

والشافعي وأحمد بن حنبل، وهو قول الجمهور من الصحابة والتابعين وغيرهم. وقال أبو حنيفة: تجب الدية في مال المقتص. وقال عامر الشعبي وعطاء وطاوس وعمرو بن دينار والحرث العكلي وابن أبي ليلى وحماد بن أبي سليمان، والزهرى والثورى: تجب الدية على عاقلة المقتص له. وقال ابن مسعود وإبراهيم النخعي والحكم بن عتيبة وعثمان البتى: يسقط عن المقتص له قدر تلك الجراحة، ويجب الباقي في ماله.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ﴾ يقول: فمن عفا عنه وتصدق عليه فهو كفارة للمطلوب وأجر للطالب. وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: «فمن تصدق به فهو كفارة له». قال: كفارة للمجروح وأجر للمجروح على الله عز وجل. ورواه ابن أبي حاتم، ثم قال: وروى عن خيثمة بن عبد الرحمن ومجاهد وإبراهيم في أحد قوليهِ وعامر الشعبي وجابر بن زيد نحو ذلك.

(الوجه الثاني): ثم قال ابن أبي حاتم: حدثنا حماد بن زاذان، حدثنا حرمي يعني ابن عمار، حدثنا شعبة عن عمار يعني ابن أبي حفصة، عن رجل، عن جابر بن عبد الله في قول الله عز وجل ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: المجروح، وروى عن الحسن البصرى وإبراهيم النخعي في أحد قوليهِ وأبي إسحاق الهمداني نحو ذلك، وروى ابن جرير عن عامر الشعبي وقتادة مثله.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود الطيالسي، حدثنا شعبة عن قيس يعني ابن مسلم، قال: سمعت طارق بن شهاب يحدث عن الهيثم أبي العريان النخعي، قال: رأيت عبد الله بن عمرو عند معاوية أحمر شبيهاً بالموالي، فسألته عن قول الله ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: يهدم عنه من ذنوبه بقدر ما تصدق به. وهكذا رواه سفيان الثوري عن قيس بن مسلم، وكذا رواه ابن جرير من طريق سفيان وشعبة.

وقال ابن مردويه^(١): حدثني محمد بن علي، حدثنا عبد الرحيم بن محمد المجاشعي، حدثنا محمد بن أحمد بن الحجاج المهري، حدثنا يحيى بن سليمان الجمفي، حدثنا معلى يعني ابن هلال أنه سمع أبان بن تغلب عن أبي العريان الهيثم بن الأسود، عن عبد الله بن عمرو، عن أبان بن تغلب، عن الشعبي، عن رجل من الأنصار، عن النبي ﷺ في قوله ﴿فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ قال: «هو الذي تكسر سنه، أو تقطع يده أو يقطع الشيء منه أو يجرح في بدنه فيعفو عن ذلك» قال: «فحط عنه قدر خطاياها، فإن كان ربع الدية فربع خطاياها، وإن كان الثلث فثلث خطاياها، وإن كانت الدية حطت عنه خطاياها كذلك». ثم قال ابن جرير^(٢): حدثنا زكريا بن يحيى بن أبي زائدة، حدثنا ابن فضيل عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبي السفر قال: دفع رجل من قريش رجلاً من الأنصار، فاندقت ثنيتة، فرفعه الأنصارى إلى معاوية فلما ألح عليه الرجل، قال: شأنك وصاحبك، قال: وأبو الدرداء عند معاوية، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده فيه، إلا رفعه الله به درجة وحط عنه به خطيئة» فقال الأنصارى: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟

(١) ضعيف جداً: عزاه لابن مردويه، وفيه معلى بن هلال، قال الحافظ: اتفق النقاد على تكذيبه.

(٢) ابن جرير (٦/٢٦٠)، وإسناده منقطع بين أبي السفر وأبي الدرداء.

فقال: سمعته أذناى ووعاه قلبى، فخلى سبيل القرشى، فقال معاوية: مروا له بمال. هكذا رواه ابن جرير.

ورواه الإمام أحمد^(١) فقال: حدثنا وكيع، حدثنا يونس بن أبى إسحاق، عن أبى السفر قال: كسر رجل من قريش سن رجل من الأنصار، فاستعدى عليه معاوية، فقال القرشى: إن هذارق سنى. قال معاوية: إنا سنرضيه، فألح الأنصارى، فقال معاوية: شأنك بصاحبك، وأبو الدرداء جالس، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من مسلم يصاب بشيء في جسده فيتصدق به، إلا رفعه الله به درجة وحط به عنه خطيئة» فقال الأنصارى: فإنى قد عفوت. وهكذا رواه الترمذى^(٢) من حديث ابن المبارك، وابن ماجه^(٣) من حديث وكيع، كلاهما عن يونس بن أبى إسحاق به، ثم قال الترمذى: غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه، ولا أعرف لأبى السفر سماعاً من أبى الدرداء.

وقال ابن مردويه^(٤): حدثنا دعلج بن أحمد، حدثنا محمد بن على بن زيد، حدثنا سعيد بن منصور، حدثنا سفيان عن عمران بن ظبيان، عن عدى بن ثابت أن رجلاً هتم فمه رجل على عهد معاوية رضى الله عنه، فأعطى دية، فأبى إلا أن يقتص، فأعطى ديتين فأبى، فأعطى ثلاثاً فأبى، فحدث رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من تصدق بدم فما دونه، فهو كفارة له من يوم ولد إلى يوم يموت». وقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا سريج بن النعمان، حدثنا هشيم عن المغيرة، عن الشعبي أن عبادة بن الصامت قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «ما من رجل يجرح من جسده جراحة فيتصدق بها، إلا كفر الله عنه مثل ما تصدق به» ورواه النسائى عن على بن حجر، عن جرير بن عبد الحميد، ورواه ابن جرير عن محمود بن خدش، عن هشيم، كلاهما عن المغيرة به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد القطان عن مجالد، عن عامر، عن المحرر بن أبى هريرة، عن رجل من أصحاب النبى ﷺ قال «من أصيب بشيء من جسده فتركه لله كان كفارة له». وقوله «وَمَنْ لَّزَّ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» قد تقدم عن طاوس وعطاء أنهما قالا: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق.

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٠﴾ وَلِيَحْكُرَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۖ وَمَنْ لَّزَّ يَحْكُمَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧١﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أى أتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ يعنى أنبياء بنى إسرائيل ﴿بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أى مؤمناً بها حاكماً بما فيها، ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أى هدى إلى الحق

(١) ضعيف: السنن (٢٦٩٨٦)، انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١٤٦٢).

(٢) ضعيف: الترمذى (١٣٩٣)، انظر ضعيف جامع الترمذى.

(٣) ضعيف: ابن ماجه (٢٦٩٣)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

(٤) حسن لغيره: فى إسناده عمران بن ظبيان، قال ابن حجر: ضعيف. وله شواهد من طرق أخرى، فلعله حسن أو صحيح.

(٥) صحيح: السنن (٢٢١٩٣)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٤٦٠).

ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات، ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي متبعًا لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه، كما قال تعالى إخبارًا عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿وَلَأُحَدِّثْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] ولهذا كان المشهور من قولي العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة. وقوله تعالى: ﴿وَهَذِي وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به، ﴿وَمَوْعِظَةٌ﴾ أي: وزاجرًا عن ارتكاب المحارم والمآثم، ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَحْكُرَ أَهْلَ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ قرئ ﴿وَلِيَحْكُرَ﴾ بالنصب على أن اللام لام كي، أي وآتيناه الإنجيل ليحكم أهل ملته به في زمانهم، وقرئ ﴿وَلِيَحْكُرَ﴾ بالجزم على أن اللام لام الأمر، أي ليؤمنوا بجميع ما فيه، وليقيموا ما أمروا به فيه، ومما فيه البشارة ببعثة محمد والأمر باتباعه وتصديقه إذا وجد، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة: ٦٨] الآية، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ﴾ إلى قوله: ﴿الْكِتَابِ﴾ [الأمراء: ١٥٧]. ولهذا قال هاهنا ﴿وَمَنْ لَّا يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي الخارجون عن طاعة ربهم، المائلون إلى الباطل، التاركون للحق، وقد تقدم أن هذه الآية نزلت في النصارى، وهو ظاهر من السياق.

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَسَبَلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَفِئُوا الْخَيْرَاتُ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَيُّ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرْتَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٥١﴾ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾

لما ذكر تعالى التوراة التي أنزلها على موسى كلمه، ومدحها وأثنى عليها وأمر باتباعها حيث كانت سافعة الاتباع وذكر الإنجيل ومدحه وأمر أهله بإقامته واتباع ما فيه، كما تقدم بيانه، شرع في ذكر القرآن العظيم الذي أنزله على عبده ورسوله الكريم، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي بالصدق الذي لا ريب فيه أنه من عند الله ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ﴾ أي من الكتب المتقدمة المتضمنة ذكره ومدحه، وأنه سينزل من عند الله على عبده ورسوله محمد ﷺ، فكان نزوله كما أخبرت به، مما زادها صدقًا عند حاملها من ذوى البصائر الذين انقادوا لأمر الله، واتبعوا شرايعه، وصدقوا رسل الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آوَوْا إِلَيْكُم مِّن قَبْلِهِ إِنَّمَا يَسْتَلِ عَلَيْكُمْ يَحْرُونَ لِأَدْفَانِ سُبْحَانَ وَبِقَوْلُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٨] أي إن كان ما وعدنا الله على ألسنة الرسل المتقدمين من مجيء محمد عليه السلام ﴿لَمَفْعُولًا﴾ أي لكائنًا لا محالة ولا بد.

وقوله تعالى: ﴿وَمُهَيِّبًا عَلَيْهِ﴾ قال سفيان الثوري وغيره، عن أبي إسحاق، عن التميمي، عن ابن

عباس : أى مؤتمناً عليه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس : المهيمن الأمين ، قال : القرآن أمين على كل كتاب قبله .

وروى عن عكرمة وسعيد بن جبير ومجاهد ومحمد بن كعب وعطية والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والسدى وابن زيد نحو ذلك .

وقال ابن جرير : القرآن أمين على الكتب المتقدمة ، فما وافقه منها فهو حق ، وما خالفه منها فهو باطل ، وعن الوالى عن ابن عباس ﴿ وَمُهَيَّبًا ﴾ أى شهيداً ، وكذا قال مجاهد وقتادة والسدى . وقال العوفى عن ابن عباس ﴿ وَمُهَيَّبًا ﴾ أى حاكماً على ما قبله من الكتب . وهذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله ، جعل الله هذا الكتاب العظيم الذى أنزله آخر الكتب وخاتمها وأشملها وأعظمها وأكملها حيث جمع فيه محاسن ما قبله ، وزاده من الكمالات ، ما ليس فى غيره ، فلماذا جعله شاهداً وأميناً وحاكماً عليها كلها وتكفل تعالى بحفظه بنفسه الكريمة ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] فأما ما حكاه ابن أبى حاتم عن عكرمة وسعيد بن جبير وعطاء الخراسانى وابن أبى نجيع عن مجاهد ، أنهم قالوا فى قوله ﴿ وَمُهَيَّبًا عَلَيْهِ ﴾ يعنى محمداً ﷺ أمين على القرآن فإنه صحيح فى المعنى ، ولكن فى تفسير هذا بهذا نظر ، وفى تنزيهه عليه من حيث العربية أيضاً نظر ، وبالجملة فالصحيح الأول .

قال أبو جعفر بن جرير بعد حكايته له عن مجاهد : وهذا التأويل بعيد من المفهوم فى كلام العرب ، بل هو خطأ ، وذلك أن المهيمن عطف على المصدق ، فلا يكون إلا من صفة ما كان المصدق صفة له ، ولو كان الأمر كما قال مجاهد لقال : وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، مهيمناً عليه ، يعنى من غير عطف .

وقوله تعالى : ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ ﴾ أى فاحكم يا محمد بين الناس ، عربهم وعجمهم ، أميهم وكتابيهم ، بما أنزل الله إليك فى هذا الكتاب العظيم ، وبما قرره لك من حكم من كان قبلك من الأنبياء ولم ينسخه فى شرعك ، هكذا وجهه ابن جرير بمعناه ، قال ابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن عمار ، حدثنا سعيد بن سليمان ، حدثنا عباد بن العوام عن سفيان بن حسين ، عن الحكم ، عن مجاهد ، عن ابن عباس ، قال : كان النبى ﷺ مخيراً إن شاء حكم بينهم وإن شاء أعرض عنهم ، فردهم إلى أحكامهم ، فنزلت ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ فأمر رسول الله ﷺ أن يحكم بينهم بما فى كتابنا .

وقوله ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى آراءهم التى اصطلحوا عليها ، وتركوا بسببها ما أنزل الله على رسله ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحْكَمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ﴾ أى لا تصرف عن الحق الذى أمرك الله به إلى أهواء هؤلاء من الجهلة الأشقياء . وقوله تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا أبو خالد الأحمر عن يونس بن أبى إسحاق ، عن أبيه ، عن التميمى ، عن ابن عباس ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً ﴾ قال : سبيلاً . وحدثنا أبو سعيد ، حدثنا وكيع عن سفيان ، عن أبى إسحاق ، عن التميمى ، عن ابن عباس ﴿ وَمِنْهَاجًا ﴾ قال : وسنة ، وكذا روى العوفى عن ابن عباس ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ سبيلاً وسنة ، وكذا روى عن مجاهد وعكرمة والحسن البصرى وقتادة

والضحاك والسدى وأبى إسحاق السبيعي، أنهم قالوا في قوله ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى سبيلاً وسنة. وعن ابن عباس ومجاهد أيضاً، وعطاء الخراساني عكسه ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى سنة وسبيلاً، والأول أنسب، فإن الشريعة وهى الشريعة أيضاً هى ما يتبدأ فيه إلى الشيء، ومنه يقال: شرع فى كذا، أى ابتداء فيه، وكذا الشريعة وهى ما يشرع منها إلى الماء. أما المنهاج فهو الطريق الواضح السهل، والسنن الطرائق.

تفسير قوله: ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ بالسبيل والسنة أظهر فى المناسبة من العكس، والله أعلم.

ثم هذا إخبار عن الأمم المختلفة الأديان، باعتبار ما بعث الله به رسله الكرام من الشرائع المختلفة فى الأحكام المتفقة فى التوحيد، كما ثبت فى صحيح البخارى ^(١) عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال «نحن معاشر الأنبياء إخوة لعلات، ديننا واحد» يعنى بذلك التوحيد الذى بعث الله به كل رسول أرسله وضمنه كل كتاب أنزله، كما قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] الآية، وأما الشرائع فمختلفة فى الأوامر والنواهي فقد يكون الشيء فى هذه الشريعة حراماً، ثم يحل فى الشريعة الأخرى، وبالعكس، وخفيفاً فيزداد فى الشدة فى هذه دون هذه، وذلك لماله تعالى فى ذلك من الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة: قوله ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ يقول: سبيلاً وسنة، والسنن مختلفة، هى فى التوراة شريعة، وفى الإنجيل شريعة، وفى الفرقان شريعة، يحل الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه، والدين الذى لا يقبل الله غيره، التوحيد والإخلاص لله الذى جاءت به جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام، وقيل: المخاطب بهذه الآية هذه الأمة ومعناه ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا﴾ القرآن ﴿وَمِنْكُمْ﴾ أيتها الأمة ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى هو لكم كلكم تقتدون به، وحذف الضمير المنصوب فى قوله ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ﴾ أى جعلناه، يعنى القرآن، ﴿شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ أى سبيلاً إلى المقاصد الصحيحة، وسنة أى طريقاً ومسلكاً واضحاً بيناً، هذا مضمون ما حكاه ابن جرير عن مجاهد رحمه الله، والصحيح القول الأول، ويدل على ذلك قوله تعالى بعده ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ فلو كان هذا خطاباً لهذه الأمة، لما صح أن يقول ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ وهم أمة واحدة، ولكن هذا خطاب لجميع الأمم وإخبار عن قدرته تعالى العظيمة، التى لو شاء لجمع الناس كلهم على دين واحد، وشريعة واحدة، لا ينسخ شىء منها، ولكنه تعالى شرع لكل رسول شرعة على حدة، ثم نسخها أو بعضها برسالة الآخر الذى بعده، حتى نسخ الجميع بما بعث به عبده ورسوله محمداً ﷺ، الذى ابتعثه إلى أهل الأرض قاطبة، وجعله خاتم الأنبياء كلهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَبْتَئِكُمْ فِي مَا أَنْتُمْكُمْ﴾ أى أنه تعالى شرع الشرائع المختلفة ليختبر عباده فيما شرع لهم ويشيهم أو يعاقبهم على طاعته ومعصيته بما فعلوه أو عزموا عليه من ذلك كله. وقال عبد الله بن كثير ﴿فِي مَا أَنْتُمْكُمْ﴾ يعنى من الكتاب.

ثم إنه تعالى ندبهم إلى المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إليها، فقال ﴿فَأَسْرِعُوا الْخَيْرَاتِ﴾ وهى

طاعة الله واتباع شرعه الذي جعله ناسخاً لما قبله، والتصديق بكتابه القرآن الذي هو آخر كتاب أنزله، ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ أى معادكم أيها الناس ومصيركم إليه يوم القيامة ﴿فَيُنزِّلُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَحْتَلِفُونَ﴾ أى فيخبركم بما اختلفتم فيه من الحق، فيجزى الصادقين بصدقهم، ويعذب الكافرين الجاحدين المكذبين بالحق العادلين عنه إلى غيره بلا دليل ولا برهان، بل هم معاندون للبراهين القاطعة، والحجج البالغة والأدلة الدامغة. وقال الضحاك ﴿فَأَسْتَقِيمُوا الْخَيْرَاتِ﴾ يعنى أمة محمد ﷺ، والأول أظهر. وقوله ﴿وَأَن أَعْلَمُ بَيْنَهُمْ بِنَا أُنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ تأكيد لما تقدم من الأمر بذلك والنهى عن خلافه، ثم قال ﴿وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ أى واحذر أعداءك اليهود أن يدلّسوا عليك الحق فيما ينهونه إليك من الأمور، فلا تغتر بهم، فإنهم كذبة كفره خونة، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أى عما تحكم به بينهم من الحق وخالفوا شرع الله، ﴿فَاعَلَمْنَا أَنَّىٰ يَرِيْدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ أى فاعلم أن ذلك كائن عن قدرة الله وحكمته فيهم أن يصرفهم عن الهدى لما عليهم من الذنوب السالفة التي اقتضت إضلالهم ونكالهم، ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ أى إن أكثر الناس خارجون عن طاعة ربهم مخالفون للحق ناهون عنه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]. وقال تعالى: ﴿وَإِن تُلَاقُوا أَكْثَرَ مِن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦] الآية.

وقال محمد بن إسحاق ^(١) حدثنى محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت، حدثنى سعيد بن جبيرة أو عكرمة. عن ابن عباس قال: قال كعب بن أسد وابن صلوبا وعبد الله بن سوريا وشاس بن قيس، بعضهم لبعض: اذهبوا بنا إلى محمد لعلنا نفتته عن دينه، فأتوه فقالوا: يا محمد إنك قد عرفت أنا أحبار يهود، وأشرافهم، وساداتهم، وإنا إن اتبعناك اتبعنا يهود ولم يخالفونا، وإن بيننا وبين قومنا خصومة فنحاكمهم إليك، فتقاضى لنا عليهم، ونؤمن لك ونصدقك، فأبى ذلك رسول الله ﷺ، فأنزل الله عز وجل فيهم ﴿وَأَن أَعْلَمُ بَيْنَهُمْ بِنَا أُنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرُهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أُنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ إلى قوله ﴿لَقَوْمٍ يُفْتِنُونَ﴾، رواه ابن جرير وابن أبى حاتم ^(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَلُمُ الْبُهْلِيَّةَ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لَقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ^(٣) ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير، الناهى عن كل شر وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات مما يضعونها بأرائهم وأهوائهم، وكما يحكم به التتار من السياسات الملكية المأخوذة عن ملكهم جنكزخان الذى وضع لهم اليساق، وهو عبارة عن كتاب مجموع من أحكام قد اقتبسها من شرائع شتى: من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية وغيرها، وفيها كثير من الأحكام أخذها من مجرد نظره وهواه، فصارت فى بنيه شرعاً متبعاً يقدمونه على الحكم بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فمن فعل ذلك منهم فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه فى قليل ولا كثير، قال الله تعالى: ﴿أَفَعَلُمُ الْبُهْلِيَّةَ يَبْغُونَ﴾ أى يبتغون

(١) ضعيف: فيه محمد بن أبى محمد: مجهول.

(٢) عزاه المصنف لابن جرير وابن أبى حاتم من طريق محمد بن أبى محمد: وهو مجهول.

ويريدون، وعن حكم الله يعدلون، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ أى ومن أعدل من الله فى حكمه لمن عقل عن الله شرعه، وآمن به، وأيقن وعلم أن الله أحكم الحاكمين، وأرحم بخلقه من الوالدة بولدها، فإنه تعالى هو العالم بكل شيء، القادر على كل شيء، العادل فى كل شيء.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هلال بن فياض، حدثنا أبو عبيدة الناجى قال: سمعت الحسن يقول: من حكم بغير حكم الله فحكم الجاهلية.

وأخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، حدثنا سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح، قال: كان طاروس إذا سأله رجل: أفضل بين ولدى فى النحل؟ قرأ ﴿أَفَحُكْمَ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ الآية، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى^(١): حدثنا أحمد بن عبد الوهاب بن نجدة الخوطى، حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، أنا شعيب بن أبى حمزة، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين، عن نافع بن جببر، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «أبغض الناس إلى الله عز وجل، مبتغى فى الإسلام سنة الجاهلية، وطالب دم امرئ بغير حق ليريق دمه». وروى البخارى عن أبى اليمان بإسناده نحوه.

نصف

الحزب

١٢

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فِئْتُمُ فَإِنَّهُمْ مَبْغُؤٌ لِآلِهِ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٥﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسْرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْنُ فَتَىٰ أَنْ نُصِيبَنَّآ دَابْرَهُ فَصَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِي بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِنْدِهِ فَيُصِيبُهُمْ عَلَىٰ مَا أَسْرَأُوا فِي أَنفُسِهِمْ فَلْيَدْرِكُوا وَيَقُولُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَهْلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ جِهَدًا أَيْمَنَهُمْ إِنَّهُمْ لَمَكْرُومٌ حَيْطَلْتُمْ أَعْمَلْتُمْ فَاصْبِرُوا خَاسِرِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

ينهى تبارك وتعالى عباده المؤمنين عن موالاته اليهود والنصارى، الذين هم أعداء الإسلام وأهله - قاتلهم الله - ثم أخبر أن بعضهم أولياء بعض، ثم تهدد وتوعد من يتعاطى ذلك، فقال ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فِئْتُمُ فَإِنَّهُمْ مَبْغُؤٌ لِآلِهِ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. قال ابن أبي حاتم: حدثنا كثير بن شهاب، حدثنا محمد بن سعد بن سابق، حدثنا عمرو بن أبى قيس عن سماك بن حرب، عن عياض أن عمر أمر أبى موسى الأشعرى أن يرفع إليه ما أخذ وما أعطى فى أديم واحد، وكان له كاتب نصرانى، فرفع إليه ذلك، فعجب عمر وقال: إن هذا لحفيظ، هل أنت قارئ لنا كتاباً فى المسجد جاء من الشام؟ فقال: إنه لا يستطيع، فقال عمر: أجنب هو؟ قال: لا بل نصرانى. قال: فانتهرنى وضرب فخذى، ثم قال: أخرجوه، ثم قرأ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية، ثم قال: حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح، حدثنا عثمان بن عمر، أنبأنا ابن عون عن محمد بن سيرين، قال: قال عبد الله بن عتبة: ليقن أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ الآية، وحدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن فضيل عن عاصم، عن عكرمة، عن ابن عباس أنه سئل عن ذبائح نصارى العرب، فقال: كل، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ يَتَوَلَّكُمْ فِئْتُمُ فَإِنَّهُمْ مَبْغُؤٌ لِآلِهِمْ﴾، وروى عن أبى الزناد نحو ذلك.

(١) صحيح: الطبرانى فى «الكبير» (٣٠٨/١٠) برقم (١٠٧٤٩)، انظر المشكاة (١٤٢).

وقوله تعالى: ﴿قَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أى شك وريب ونفاق، ﴿يُسْرِعُونَ فِيهِمْ﴾ أى يبادرون إلى موالاتهم ومودتهم فى الباطن والظاهر، ﴿يَقُولُونَ نَحْنُ أَنْ نُصِيبَنَّ دَابْرَهُمْ﴾ أى يتأولون فى مودتهم وموالاتهم أنهم يخشون أن يقع أمر من ظفر الكافرين بالمسلمين، فتكون لهم أياد عند اليهود والنصارى، فينفعهم ذلك. عند ذلك قال الله تعالى: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ قال السدى: يعنى فتح مكة. وقال غيره: يعنى القضاء والفصل، ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾. قال السدى: يعنى ضرب الجزية على اليهود والنصارى، ﴿فَيُصِيبُهُمْ﴾ يعنى الذين والوا اليهود والنصارى من المنافقين ﴿عَلَّ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ من الموالاته، ﴿تَدْبِيرِكَ﴾ أى على ما كان منهم مما لم يجد عنهم شيئاً، ولا دفع عنهم محذورا، بل كان عين المفسدة، فإنهم فضحوا وأظهر الله أمرهم فى الدنيا لعباده المؤمنين بعد أن كانوا مستورين، لا يدري كيف حالهم، فلما انعقدت الأسباب الفاضحة لهم تبين أمرهم لعباد الله المؤمنين، فتعجبوا منهم كيف كانوا يظهرون أنهم من المؤمنين، ويحلفون على ذلك ويتأولون فيان كذبهم وافترائهم، ولهذا قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَاهْتَوَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَيْرِينَ ﴿٥٧﴾﴾.

وقد اختلف القراء فى هذا الحرف: فقرأه الجمهور بإثبات الواو فى قوله ﴿وَيَقُولُ﴾، ثم منهم من رفع ويقول: على الابتداء، ومنهم من نصب عطفاً على قوله ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ تقديره أن يأتى وأن يقول وقرأ أهل المدينة ﴿يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بغير واو، وكذلك هو فى مصاحفهم على ما ذكره ابن جرير. قال ابن جرير عن مجاهد ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ حينئذ ﴿يَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَاهْتَوَا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَيْرِينَ﴾ واختلف المفسرون فى سبب نزول هذه الآيات الكريمات، فذكر السدى أنها نزلت فى رجلين قال أحدهما لصاحبه بعد وقعة أحد: أما أنا فإنى ذاهب إلى ذلك اليهودى فأوى إليه وأنهود معه، لعله ينفعنى إذا وقع أمر أو حدث حادث. وقال الآخر أما أنا فإنى ذاهب إلى فلان النصرانى بالشام فأوى إليه وأتصر معه، فأنزل الله ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ والآيات، وقال عكرمة: نزلت فى أبى لبابة بن عبد المنذر حين بعثه رسول الله ﷺ إلى بنى قريظة فسأله: ماذا هو صانع بنا؟ فأشار بيده إلى حلقة أى: إنه الذبح، رواه ابن جرير.

وقيل: نزلت فى عبد الله بن أبى ابن سلول، كما قال ابن جرير^(١): حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن إدريس قال: سمعت أبى عن عطية بن سعد قال: جاء عبادة بن الصامت من بنى الخزرج إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لى موالى من يهود كثير عددهم، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود، وأتولى الله ورسوله. فقال عبد الله بن أبى: إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى. فقال رسول الله ﷺ لعبد الله بن أبى «يا أبا الحباب، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت، فهو لك دونه» قال: قد قبلت، فأنزل الله عز وجل ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿قَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾.

(١) ضعيف: ابن جرير (٦/٢٧٥)، وفى إسناده عطية العوفى: وهو شيعى مدلس ولم يصرح بالسماع.

ثم قال ابن جرير^(١) : حدثنا هناد، حدثنا يونس بن بكير، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن الزهري : قال : لما انهزم أهل بدر، قال المسلمون لأوليائهم من اليهود : آمنوا قبل أن يصيبكم الله يوم مثل يوم بدر، فقال مالك بن الصيف : أغركم إن أصبتم رهطاً من قريش لا علم لهم بالقتال، أما لو أمرنا العزيمة أن نستجمع عليكم لم يكن لكم يد بقتالنا، فقال عبادة بن الصامت : يا رسول الله، إن أوليائي من اليهود كانت شديدة أنفسهم كثيراً سلاحهم شديدة شوكتهم، وإنى أبرأ إلى الله وإلى رسوله من ولاية يهود، ولا مولى لى إلا الله ورسوله، فقال عبد الله بن أبي : لكنى لا أبرأ من ولاء يهود، إنى رجل لا بد لى منهم . فقال رسول الله ﷺ : يا أبا الحباب، أرايت الذى نفست به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت، فهو لك دونه فقال : إذا أقبل، قال : فأنزل الله ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ - إلى قوله تعالى - ﴿وَاللَّهُ يَتَّبِعُكَ مِنْ أَنثَارٍ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقال : محمد بن إسحاق^(٢) : فكانت أول قبيلة من اليهود نقضت ما بينها وبين رسول الله ﷺ بنو قينقاع، فحدثنى عاصم بن عمر بن قتادة قال : فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم، فقال : يا محمد أحسن فى موالى وكانوا حلفاء الخزرج، قال : فأبأ على رسول الله ﷺ، فقال : يا محمد أحسن فى موالى، قال : فأعرض عنه . فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ «أرسلني»، وغضب رسول الله ﷺ حتى رثى لوجهه ظللاً، ثم قال «ويحك أرسلني» قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع، قد منعونى من الأحمر والأسود، تحصدهم فى غداة واحدة إنى امرؤ أخشى الدوائر . قال : فقال رسول الله ﷺ «هم لك» . قال محمد بن إسحاق^(٣) : فحدثنى أبو إسحاق بن يسار عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت، قال : لما حاربت بنو قينقاع رسول الله ﷺ تشبث بأمرهم عبد الله بن أبي، وقام دونهم ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ وكان أحد بنى عوف بن الخزرج له من حلفهم مثل الذى لعبد الله بن أبي، فجلعهم إلى رسول الله ﷺ، وتبرأ إلى الله ورسوله من حلفهم، وقال : يا رسول الله، أتبرأ إلى الله وإلى رسوله من حلفهم، وأتولى الله ورسوله والمؤمنين، وأبرأ من حلف الكفار، وولايتهم . وفيه وفى عبد الله بن أبي نزلت الآيات فى المائدة ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَرَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ قَوْلِهِ - ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حَرْبَ اللَّهِ هُمُ الْقَائِلُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

وقال الإمام أحمد^(٤) : حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا يحيى بن زكريا بن أبي زيادة عن محمد بن إسحاق، عن الزهري، عن عروة، عن أسامة بن زيد قال : دخلت مع رسول الله ﷺ على عبد الله بن أبي نموده، فقال له النبى ﷺ «قد كنت أنهاك عن حب يهود» فقال عبد الله : فقد أبغضهم أسعد بن زرة فمات، وكذا رواه أبو داود من حديث محمد بن إسحاق .

(١) ضعيف جداً: ابن جرير (٦/٢٧٥)، وفيه عثمان بن عبد الرحمن بن عمرو، قال الحافظ : متروك ، وكذبه ابن معين، والحديث مرسل .

(٢) ابن جرير (٢١/١٥٢) .

(٣) مرسل : ابن أبي حاتم (٤/١١٥٥) برقم (٦٥٠٦)، ورجاله ثقات، ولكن الإسناد مرسل .

(٤) المسند (١٢٥١)، ورجاله ثقات .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ رَزَقَهُ مِنْكُم مِّن دِينِهِ فَسَوْفَ يُآتَى اللَّهُ بِقُوَّةٍ مِّمَّهِمْ وَيُؤْتِيهِمْ أَذْلَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفَ عَلَى الْكَافِرِينَ الْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٣٩﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يقول تعالى مخبراً عن قدرته العظيمة أنه من تولى عن نصرة دينه وإقامة شريعته، فإن الله يستبدل به من هو خير لها منه، وأشد منعة، وأقوم سبيلاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمُ﴾ [محمد: ٣٨]. وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ﴾ [النساء: ١٣٣]، وقال تعالى: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [إبراهيم: ١٩-٢٠] أى بممتنع ولا صعب. وقال تعالى هاهنا ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ رَزَقَهُ مِنْكُم مِّن دِينِهِ﴾ أى يرجع عن الحق إلى الباطل. قال محمد بن كعب: نزلت في الولاة من قريش. وقال الحسن البصرى: نزلت في أهل الردة أيام أبي بكر ﴿سَوْفَ يُآتَى اللَّهُ بِقُوَّةٍ مِّمَّهِمْ وَيُؤْتِيهِمْ أَذْلَهُ﴾ قال الحسن: هو والله أبو بكر وأصحابه، رواه ابن أبي حاتم. وقال أبو بكر بن أبي شيبة: سمعت أبا بكر بن عياش يقول: فى قوله ﴿سَوْفَ يُآتَى اللَّهُ بِقُوَّةٍ مِّمَّهِمْ وَيُؤْتِيهِمْ أَذْلَهُ﴾ هم أهل القادسية. وقال ليث بن أبي سليم، عن مجاهد: هم قوم من سبأ. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا عبد الله بن الأجلح عن محمد بن عمرو، عن سالم، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قوله ﴿سَوْفَ يُآتَى اللَّهُ بِقُوَّةٍ مِّمَّهِمْ وَيُؤْتِيهِمْ أَذْلَهُ﴾ قال: ناس من أهل اليمن، ثم من كندة، ثم من السكون.

وحدثنا أبي، حدثنا محمد بن المصفى، حدثنا معاوية يعنى ابن حفص، عن أبي زياد الحلفاني، عن محمد بن المنكدر، عن جابر بن عبد الله، قال: سئل رسول الله ﷺ عن قوله ﴿سَوْفَ يُآتَى اللَّهُ بِقُوَّةٍ مِّمَّهِمْ وَيُؤْتِيهِمْ أَذْلَهُ﴾. قال: هؤلاء قوم من أهل اليمن، ثم من كندة، ثم من السكون، ثم من نجيب^(١)، وهذا حديث غريب جداً.

وقال ابن أبي حاتم^(٢): حدثنا عمر بن شبة، حدثنا عبد الصمد يعنى ابن عبد الوارث، حدثنا شعبة عن سماك، سمعت عياضاً يحدث عن أبي موسى الأشعري، قال: لما نزلت ﴿سَوْفَ يُآتَى اللَّهُ بِقُوَّةٍ مِّمَّهِمْ وَيُؤْتِيهِمْ أَذْلَهُ﴾ قال رسول الله ﷺ «هم قوم هذا». ورواه ابن جرير^(٣) من حديث شعبة بنحوه. وقوله تعالى: ﴿أَذْلَهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه، متعزراً على خصمه وعدوه، كما قال تعالى: ﴿تُحَمَّدُ رَسُولَ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩] وفى صفة رسول الله ﷺ أنه الضحوك القتال، فهو ضحوك لأوليائه قتال لأعدائه.

وقوله عز وجل ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ أى لا يردهم عما هم فيه من طاعة الله،

(١) حسن: ابن أبي حاتم (٤/ ١١٦١) برقم (٦٥٤٠)، وقد حسنه السيوطي في «الدر المنثور» (٣/ ١٠٤).

(٢) حسن: فيه سماك: اختلط لكن الراوي عنه شعبة وقد روي عنه قبل الاختلاط.

(٣) ابن جرير (٦/ ٢٨٤)، بنفس إسناد الحديث السابق.

وإقامة الحدود، وقتال أعدائه، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، لا يردهم عن ذلك راد، ولا يصددهم عنه صاد، ولا يحيك فيهم لوم لائم، ولا عذل عاذل، قال الإمام أحمد^(١): «حدثنا عفان، حدثنا سلام أبو المنذر عن محمد بن واسع، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، قال: أمرني خليلي ﷺ بسبع: أمرني بحب المساكين والذنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقى، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدًا شيئًا، وأمرني أن أقول الحق وإن كان مرًا، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنهن من كنز تحت العرش.

وقال الإمام أحمد^(٢) أيضًا: «حدثنا أبو المغيرة، حدثنا صفوان، عن أبي المثني أن أبا ذر - رضى الله عنه - قال: بايعني رسول الله ﷺ خمسًا واثنتي سبعا، وأشهد الله عليّ تسعًا: أنى لا أخاف في الله لومة لائم. قال أبو ذر: فدعا رسول الله ﷺ فقال «هل لك إلى بيعة ولك الجنة». قلت: نعم. قال: ويسطت يدي فقال النبي ﷺ وهو يشترط عليّ: «أن لا تسأل الناس شيئًا». قلت: نعم. قال: «ولا سواك وإن سقط منك». يعنى تنزل إليه فتأخذه.

وقال الإمام أحمد^(٣) أيضًا: «حدثنا محمد بن الحسن، حدثنا جعفر عن المعلى القردوسى، عن الحسن، عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شاهده؛ فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق أن يقول بحق أو أن يذكر بعظيم». تفرد به أحمد.

وقال أحمد^(٤): «حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا سفيان عن زيد، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخترى، عن أبي سعيد الخدرى قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقرن أحدكم نفسه أن يرى أمرًا لله فيه مقال فلا يقول فيه. فيقال له يوم القيامة: ما منعك أن تكون قلت في كذا كذا؟ فيقول: مخافة الناس، فيقول: إياي أحق أن تخاف». ورواه ابن ماجه^(٥) من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به. وروى أحمد وابن ماجه^(٦) من حديث عبد الله بن عبد الرحمن أبي طوالة عن زهار بن عبد الله العبدى المدنى عن أبي سعيد الخدرى عن النبي - ﷺ - قال: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى إنه ليسأله يقول: أى عبدى، أرايت منكرا فلم تنكره؟ فإذا لقن الله عبدًا حجته قال: أى رب وثقت بك وخفت الناس». وثبت فى الصحيح: «ما ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه». قالوا: وكيف يذل نفسه يا رسول الله، قال: «يتحمل من البلاء ما لا يطيق»^(٧). ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾. أى من اتصف بهذه الصفات فإنما

(١) صحيح: المسند (٢٠٩٠٦)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٢٥٢٥).

(٢) صحيح: المسند (٢٠٩٩٨)، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٨١٠).

(٣) المسند (١١٠٨٢)، ورجاله ثقات.

(٤) المسند (١١٣٠٢)، ورجاله ثقات.

(٥) ضعيف: ابن ماجه (٤٠٠٨)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

(٦) صحيح: أحمد (١١٣٢٦)، ابن ماجه (٤٠١٧)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٧) صحيح: أخرجه الترمذى (٢٢٥٤)، ابن ماجه (٤٠١٦)، أحمد (٢٢٩٣٤) من حديث حذيفة، انظر صحيح

جامع الترمذى.

هو من فضل الله عليه وتوفيقه له .

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ أى واسع الفضل ، عليم بمن يستحق ذلك ممن يحرمه إياه .
 وقوله تعالى : ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى ليس اليهود بأوليائكم ، بل ولايتكم راجعة إلى الله ورسوله والمؤمنين . وقوله ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى المؤمنون المتصفون بهذه الصفات من إقام الصلاة التى هى أكبر أركان الإسلام ، وهى له وحده لا شريك له وإيتاء الزكاة التى هى حق المخلوقين ومساعدة للمحتاجين من الضعفاء والمساكين . وأما قوله ﴿وَهُمْ زَكَاةٌ﴾ فقد توهم بعضهم أن هذه الجملة فى موضع الحال من قوله ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ أى فى حال ركوعهم ، ولو كان هذا كذلك ، لكان دفع الزكاة فى حال الركوع أفضل من غيره ، لأنه ممدوح ، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى ، وحتى إن بعضهم ذكر فى هذا أثرًا عن على بن أبى طالب أن هذه الآية نزلت فيه ، وذلك أنه مر به سائل فى حال ركوعه فأعطاه خاتمه .

وقال ابن أبى حاتم ^(١) : حدثنا الربيع بن سليمان المرادى ، حدثنا أيوب بن سويد عن عتبة بن أبى حكيم فى قوله ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال : هم المؤمنون وعلى بن أبى طالب . وحدثنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا الفضل بن دكين أبو نعيم الأحول ، حدثنا موسى بن قيس الحضرمى عن سلمة بن كهيل ، قال : تصدق على بخاتمه وهو راع ، فنزلت ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ زَكَاةٌ﴾ .

وقال ابن جرير ^(٢) : حدثنى الحارث ، حدثنا عبد العزيز ، حدثنا غالب بن عبيد الله ، سمعت مجاهدًا يقول فى قوله ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية . نزلت فى على بن أبى طالب ، تصدق وهو راع . وقال عبد الرزاق ^(٣) : حدثنا عبد الوهاب بن مجاهد ، عن أبيه ، عن ابن عباس فى قوله ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية ، نزلت فى على بن أبى طالب . عبد الوهاب بن مجاهد لا يحتج به .

وروى ابن مردويه ^(٤) من طريق سفيان الثورى ، عن أبى سنان ، عن الضحاک ، عن ابن عباس ، قال : كان على بن أبى طالب قائمًا يصلى ، فمر سائل وهو راع ، فأعطاه خاتمه ، فنزلت ﴿إِنَّا وَلِيُّكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية ، الضحاک لم يلق ابن عباس . وروى ابن مردويه ^(٥) أيضًا من طريق محمد بن السائب الكلبي ، وهو متروك ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس قال : خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد والناس يصلون بين راع وساجد وقائم وقاعد ، وإذا مسكين يسأل ، فدخل رسول الله ﷺ ، فقال : «أعطاك أحد شيئاً؟» قال : نعم . قال «من؟» قال : ذلك الرجل القائم . قال «على أى حال أعطاك؟» قال : وهو راع ، قال : وذلك على بن أبى طالب . قال : فكبر رسول الله ﷺ عند ذلك وهو يقول ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ وهذا إسناد لا يفرح به .

ثم رواه ابن مردويه من حديث على بن أبى طالب رضى الله عنه نفسه ، وعمار بن ياسر وأبى رافع ، وليس يصح شيء منها بالكلية لضعف أسانيدها وجهالة رجالها ، ثم روى بإسناده عن ميمون بن مهران ،

(١) إسناده مرسل ابن أبى حاتم (٤/ ١١٦٢) . (٢) فى إسناده غالب بن عبيد : منكر الحديث .

(٣) فى إسناده عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف . (٤) إسناده منقطع بين الضحاک وابن عباس

(٥) فى إسناده محمد بن السائب الكلبي : متروك .

عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّمَا وَرِثَمُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ﴾ نزلت في المؤمنين وعلى بن أبي طالب أولهم .
وقال ابن جرير: حدثنا هناد، حدثنا عبدة عن عبد الملك، عن أبي جعفر قال: سألت عن هذه الآية
﴿إِنَّمَا وَرِثَمُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُتَّبِعُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ ذَكَوَةٌ﴾ قال: من الذين آمنوا؟ قال:
الذين آمنوا. قلنا: بلغنا أنها نزلت في علي بن أبي طالب، قال: علي من الذين آمنوا. وقال أسباط عن
السدي: نزلت هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب مر به سائل وهو راحع في
المسجد، فأعطاه خاتمه.

وقال علي بن أبي طلحة الوالبي، عن ابن عباس: من أسلم فقد تولى الله ورسوله والذين آمنوا.
رواه ابن جرير، وقد تقدم في الأحاديث التي أوردناها أن هذه الآيات كلها نزلت في عبادة بن الصامت
رضي الله عنه حين تبرأ من حلف يهود، ورضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، ولهذا قال تعالى بعد
هذا كله ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَخْلِيكُم
أَنَا وَرَسُولِي إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَهُم مِّنْ شَيْءٍ عِندَهُمْ لِيَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي هُوَ أَلَمُّ بِذُنُوبِهِمْ وَلَوْ
كَانُوا عَابِدِينَ لَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ
مِّنْهُ وَدَعَا لَهُمْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا الْآتِنَةُ خَلِيلِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢١-٢٢] فكل من رضى بولاية الله ورسوله والمؤمنين، فهو مفلح في
الدنيا والآخرة، ومنصور في الدنيا والآخرة، ولهذا قال تعالى في هذه الآية الكريمة ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَيْسَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ
أَوْلِيَاءَ وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوعًا وَلَيْسَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَعْقِلُونَ ﴿٣١﴾﴾

وهذا تفسير من موالة أعداء الإسلام وأهله من الكتابيين والمشركين، الذين يتخذون أفضل ما يعمله
العاملون: وهي شرائع الإسلام المطهرة المحكمة، المشتملة على كل خير دنيوي وأخروي، يتخذونها
﴿هُزُوعًا﴾ يستهزئون بها، ﴿وَلَيْسَ﴾ يعتقدون أنها نوع من اللعب في نظرهم الفاسد، وفكرهم البارد، كما
قال القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وأفته من الفهم السقيم
وقوله تعالى: ﴿يَنْ أُولَئِكَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ﴾ من هاهنا لبيان الجنس كقوله ﴿فَلَجَبْتُمْوَا
الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقرأ بعضهم: ﴿وَالْكَفَّارَ﴾ بالخفض عطفًا، وقرأ آخرون بالنصب
على أنه معمول، ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَيْسَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ تقديره ولا
﴿الْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لا تتخذوا هؤلاء ولا هؤلاء أولياء، والمراد بالكفار هاهنا المشركون، وكذلك وقع
في قراءة ابن مسعود فيما رواه ابن جرير ﴿لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوعًا وَلَيْسَ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ
قَبْلِكُمْ﴾ ومن الذين أشركوا.

وقوله ﴿وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَ مُؤْمِنِينَ﴾ أي اتقوا الله أن تتخذوا هؤلاء الأعداء لكم ولدينكم أولياء إن كنتم

مؤمنين بشرح الله الذي اتخذهُ هؤلاء هزواً ولعباً، كما قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَتَّكِلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَسْتَقْوُوا مِنْهُ تَفَتَّحُوا رِعْذُكُمْ اللَّهُ تَنَسَّكُمْ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقوله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ أى وكذلك إذا أذنتم داعين إلى الصلاة التي هي أفضل الأعمال لمن يعقل ويعلم من ذوى الألباب ﴿اتَّخَذُواهَا﴾ أيضاً ﴿هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَمَعُونَ﴾ معانى عبادة الله وشرائعه، وهذه صفات أتباع الشيطان الذى «إذا سمع الأذان أدبر وله حصاص، أى ضراط، حتى لا يسمع التأذين فإذا قضى التأذين، أقبل فإذا ثوب للصلاة أدبر، فإذا قضى التشويب أقبل حتى يخطر بين المرء وقلبه، فيقول: اذكر كذا اذكر كذا، لما لم يكن يذكر حتى يظل الرجل إن يدرى كم صلى، فإذا وجد أحدكم ذلك، فليسجد سجدة قبل السلام» متفق عليه^(١)، وقال الزهرى: قد ذكر الله التأذين فى كتابه فقال ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَمَعُونَ﴾ رواه ابن أبى حاتم.

وقال أسباط عن السدى فى قوله ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَلَعِبًا﴾ قال: كان رجل من النصارى بالمدينة إذا سمع المنادى ينادى: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الكاذب، فدخلت خادمة ليلة من الليالى بنار وهو نائم، وأهله نيام، فسقطت شرارة فأحرقت البيت، فاحترق هو وأهله، رواه ابن جرير وابن أبى حاتم، وذكر محمد بن إسحاق^(٢) بن يسار فى السيرة أن رسول الله ﷺ دخل الكعبة عام الفتح ومعه بلال، فأمره أن يؤذن، وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب بن أسيد: لقد أكرم الله أسيداً أن لا يكون سمع هذا فيسمع منه ما يغيظه، وقال الحارث بن هشام: أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته، فقال أبو سفيان: لا أقول شيئاً لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى، فخرج عليهم النبى ﷺ فقال «قد علمت الذى قلت» ثم ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنك رسول الله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول أخبرك.

وقال الإمام أحمد^(٣): حدثنا روح بن عباد، حدثنا ابن جريج، أخبرنا عبد العزيز بن عبد الملك بن أبى محذورة أن عبد الله بن محيريز أخبره وكان يتيماً فى حجر أبى محذورة، قال: قلت لأبى محذورة: يا عم إنى خارج إلى الشام، وأخشى أن أسأل عن تأذيتك، فأخبرنى أن أباً محذورة قال له: نعم، خرجت فى نفر وكنا ببعض طريق حنين مقفل رسول الله ﷺ من حنين، فلقينا رسول الله ﷺ ببعض الطريق، فأذن مؤذن رسول الله ﷺ بالصلاة عند رسول الله ﷺ، فسمعنا صوت المؤذن ونحن متكبون، فصرخنا نحكىه ونستهزئ به فسمع رسول الله ﷺ الصوت، فأرسل إلينا إلى أن وقفنا بين يديه فقال رسول الله ﷺ «أيكم الذى سمعت صوته قد ارتفع؟ فأشار القوم كلهم إلى وصدقوا، فأرسل كلهم وحبسنى، وقال «قم فأذن بالصلاة» فقممت ولا شىء أكره إلى من رسول الله ﷺ ولا مما يأمرنى به، فقممت بين يدي رسول الله ﷺ، فألقى على رسول الله ﷺ التأذين هو بنفسه، قال «قل الله أكبر الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله أشهد أن محمداً

(١) البخاري برقم (١٢٣١)، مسلم برقم (٣٨٩)، من حديث أبى هريرة.

(٢) مرسل: السيرة النبوية (٧٥/٥). (٣) المسند (١٤٩٥٥)، ورجاله ثقات.

والخنازير: أهي مما مسخ الله؟ فقال «إن الله لم يهلك قومًا، أو قال: «لم يمسح قومًا فيجعل لهم نسلًا ولا عقبًا، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك» (١).

وقد رواه مسلم (٢) من حديث سفيان الثوري ومسعر، كلاهما عن مغيرة بن عبد الله الشكري به، وقال أبو داود الطيالسي (٣): حدثنا داود بن أبي الفرات، عن محمد بن زيد، عن أبي الأعين العبدى، عن أبي الأحوص، عن ابن مسعود قال: سألنا رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي من نسل اليهود؟ فقال «لا إن الله لم يلعن قومًا قط في مسخهم، فكان لهم نسل ولكن هذا خلق كان، فلما غضب الله على اليهود فمسخهم جعلهم مثلهم».

ورواه أحمد (٤) من حديث داود بن أبي الفرات به، وقال ابن مردويه (٥): حدثنا عبد الباقي، حدثنا أحمد بن صالح، حدثنا الحسن بن محبوب، حدثنا عبد العزيز بن المختار عن داود بن أبي هند، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «الحيات مسخ الجن كما مسخت القردة والخنازير» هذا حديث غريب جدًا.

وقوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ وقرئ: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ على أنه فعل ماضٍ، والطاغوت منصوب به، أى وجعل منهم من عبد الطاغوت، وقرئ: وعبد الطاغوت بالإضافة على أن المعنى وجعل منهم خدم الطاغوت، أى خدامه وعبيده، وقرئ: وعبد الطاغوت على أنه جمع الجمع عبد وعبيد، وعبد مثل ثمار وتُمُر، حكاها ابن جرير عن الأعمش.

وحكى عن بريدة الأسلمى أنه كان يقرؤها وعابد الطاغوت، وعن أبي وابن مسعود: وعبدوا، وحكى ابن جرير عن أبي جعفر القارئ أنه كان يقرؤها: وعبد الطاغوت على أنه مفعول ما لم يسم فاعله، ثم استبعد معناها، والظاهر أنه لا بعد فى ذلك، لأن هذا من باب التعريض بهم، أى وقد عبدت الطاغوت فيكم وكنتم أنتم الذين تعاطوا ذلك.

وكل هذه القراءات يرجع معناها إلى أنكم يا أهل الكتاب الطاعنين فى ديننا الذى هو توحيد الله وإفراده بالعبادات دون ما سواه، كيف يصدر منكم هذا، وأنتم قد وجد منكم جميع ما ذكر؟ ولهذا قال ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ أى مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس فى الطرف الآخر مشاركة، كقوله عز وجل: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٤].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ وَكُمُ قَالُوا ءَامَنَّا وَفَدَّخَلُوا بِالْكَفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ وهذه صفة المنافقين منهم أنهم يصانعون المؤمنين فى الظاهر وقلوبهم منطوية على الكفر، ولهذا قال ﴿وَقَدْ دَخَلُوا﴾ أى إلى عندك

(١) مسلم (٢٦٦٣)، من حديث أم حبيبة رضي الله عنها.

(٢) مسلم برقم (٢٦٦٣)، مكرر.

(٣) أبو داود الطيالسي فى «مسنده» (٣٩/١) برقم (٣٠٧)، وفيه داود بن أبي القرآن: ضعيف، لكن يشهد للحديث رواية مسلم السابقة.

(٤) المسند (٣٧٣٩)، وفي إسناده أبو الأعين العبدى: ضعفه بعضهم، وجهله آخرون.

(٥) قال الهيثمى فى «المجمع» (٤/٤٦، ٤٧): رواه الطبراني فى الكبير والأوسط والبراز بالاختصار ورجاله رجال الصحيح.

يا محمد ﴿يَا كَذِبًا﴾ أى مستصحبين الكفر فى قلوبهم، ثم خرجوا وهو كامن فيها لم ينتفعوا بما قد سمعوا منك من العلم، ولا نجعت فيهم المواعظ ولا الزواجر ولهذا قال ﴿وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِئْسَ لِمَنِ عَمَلُهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَقْبَرُ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ أى والله عالم بسرائرهم وما تنطوى عليه ضمائرهم، وإن أظهروا لخلقه خلاف ذلك، وتزينوا بما ليس فيهم، فإن الله عالم الغيب والشهادة أعلم بهم منهم، وسيجزئهم على ذلك أتم الجزاء وقوله ﴿وَرَرَى كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْبَاهُ السُّحْتِ﴾ أى يبادرون إلى ذلك من تعاطى المآثم والمحارم والاعتداء على الناس وأكل أموالهم بالباطل، ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَكْمُلُونَ﴾، أى ليس العمل كان عملهم، وبئس الاعتداء اعتداؤهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَتَنَبَّهُوا الرِّبَايُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾^(١) يعنى هلا كان ينهاهم الربانيون والأحبار عن تعاطى ذلك، والربانيون منهم وهم العلماء العمال أرباب الولايات عليهم، والأحبار هم العلماء فقط ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس: يعنى الربانيين أنهم بئس ما كانوا يصنعون، يعنى: فى تركهم ذلك. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال لهؤلاء حين لم ينهوا ولهؤلاء حين عملوا، قال: وذلك الأركان، قال: ويعملون ويصنعون واحد، رواه ابن أبى حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا أبو كريب، حدثنا ابن عطية، حدثنا قيس عن العلاء بن المسيب، عن خالد بن دينار، عن ابن عباس، قال: ما فى القرآن آية أشد توبيخًا من هذه الآية «لَوْلَا يَتَنَبَّهُوا الرِّبَايُونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» قال: كذا قرأ وكذا قال الضحاك: ما فى القرآن آية أخوف عندى منها، إنا لا ننهى، رواه ابن جرير.

وقال ابن أبى حاتم، ذكره يونس بن حبيب، حدثنا أبو داود، حدثنا محمد بن مسلم بن أبى الوضاح، حدثنا ثابت أبو سعيد الهمداني قال: رأيت بالرى فحدث عن يحيى بن يعمر قال: خطب على بن أبى طالب فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنما هلك من كان قبلكم بركوبهم المعاصى ولم ينههم الربانيون والأحبار، فلما تمادوا فى المعاصى ولم ينههم الربانيون والأحبار أخذتهم العقوبات فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر قبل أن ينزل بكم مثل الذى نزل بهم، واعلموا أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يقطع رزقًا ولا يقرب أجلًا. وقال الإمام أحمد^(١): حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شريك عن أبى إسحاق عن المنذر بن جرير، عن أبىه، قال: قال رسول الله ﷺ «ما من قوم يكون بين أظهرهم من يعمل بالمعاصى هم أعز منه وأمنع، لم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعذاب» تفرد به أحمد من هذا الوجه.

ورواه أبو داود عن مسدد، عن أبى الأحوص، عن أبى إسحاق، عن المنذر بن جرير، عن جرير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدر أن يغيروا عليه، فلا يغيروا إلا أصابهم الله بعقاب قبل أن يموتوا».

وقد رواه ابن ماجه عن على بن محمد، عن وكيع عن إسرائيل، عن أبى إسحاق، عن عبيد الله بن جرير، عن أبىه به، قال الحافظ المزى: وهكذا رواه شعبة عن أبى إسحاق به.

(١) المسند (١٨٧٣١)، وفيه شريك بن عبد الله: صدوق يخفى.

فى هذا كثيرة .

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل (١) : حدثنا عبد الرزاق ، حدثنا معمر عن همام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إِنَّ يَمِينِ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مَنْذُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغْضُ مَا فِي يَمِينِهِ - قَالَ - : وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ وَفِي يَدِهِ الْآخَرَى الْفَيْضُ يَرْفَعُ وَيَخْفِضُ . قَالَ : وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى : «أَنْفَقَ، أَنْفَقَ عَلَيْكَ» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحِينَ (٢) ، البخارى فى التوحيد عن على بن المدينى ، ومسلم فيه عن محمد بن رافع ، وكلاهما عن عبد الرزاق به .

وقوله تعالى : ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ أى يكون ما أتاك الله يا محمد من النعمة نعمة فى حق أعدائك من اليهود وأشباههم ، فكما يزداد به المؤمنون تصديقاً وعملاً صالحاً وعلماً نافعاً ، يزداد به الكافرون الحاسدون لك ولأمتك طغياناً ، وهو المبالغة والمجازرة للحد فى الأشياء ، وكفراً أى تكذيباً ، كما قال تعالى : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ هَذِهِ وَرَشَقْنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقُرْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت : ٤٤] وقال تعالى : ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً حَمِيمًا وَرَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء : ٨٢] ، وقوله تعالى : ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ يعنى أنه لا تجتمع قلوبهم بل العداوة واقعة بين فرقتهم بعضهم فى بعض دائماً ، لأنهم لا يجتمعون على حق ، وقد خالفوك وكذبوك ، وقال إبراهيم النخعى : ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدَّةَ وَالْبَغْضَاءَ﴾ ، قال : الخصومات والجدال فى الدين ، رواه ابن أبى حاتم .

وقوله ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ أى كلما عقدوا أسباباً يكيّدونك بها ، وكلما أبرموا أموراً يحاربونك بها ، أبطلها الله ورد كيدهم عليهم ، وحقا مكروهم السيئ بهم ﴿وَسَعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ أى من سجيبتهم أنهم دائماً يسمعون فى الإفساد فى الأرض ، والله لا يحب من هذه صفته ، ثم قال جلا وعلا : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أى لو أنهم آمنوا بالله ورسوله واتقوا ما كانوا يتعاطونه من المآثم والمحارم ﴿لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَا دَخَلَتْهُمْ جَنَّةُ النَّعِيمِ﴾ أى لأزلنا عنهم المحذور وأنلناهم المقصود ، ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنَ رَّبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس وغيره : هو القرآن ، ﴿لَأَكْفُلُوا مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ أى لو أنهم عملوا بما فى الكتب التى بأيديهم عن الأنبياء على ما هى عليه من غير تحريف ولا تبديل ولا تغيير ، لقدمهم ذلك إلى اتباع الحق والعمل بمقتضى ما بعث الله به محمداً ﷺ ، فإن كتبهم ناطقة بتصديقه والأمر باتباعه حتماً لا محالة .

وقوله تعالى : ﴿لَأَكْفُلُوا مِنْ قَوْفِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعنى بذلك كثرة الرزق النازل عليهم من السماء والنايت لهم من الأرض ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿لَأَكْفُلُوا مِنْ قَوْفِهِمْ﴾ يعنى لأرسل السماء عليهم مدراراً ، ﴿وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعنى يخرج من الأرض بركاتها ، وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والسدى ، كما قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْفُرْقَانِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَنَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾ [الأمراء : ٩٦] .

(١) صحيح : المسند (٢٧٣٥٧) ، انظر صحيح الجامع (٥٢٧٧) .

(٢) البخاري برقم (٧٤١٩) ، مسلم برقم (٩٩٣) .

وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال بعضهم معناه ﴿لَأَكْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِمْ وَمِنْ ثَمَرِ أَرْجُلِهِمْ﴾ يعني من غير كد ولا تعب ولا شقاء ولا عناء.

وقال ابن جرير: قال بعضهم: معناه لكانوا في الخير كما يقول القاتل: هو في الخير من قرنه إلى قدمه، ثم رد هذا القول لمخالفته أقوال السلف.

وقد ذكر ابن أبي حاتم^(١) عند قوله ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ حدثنا علقمة عن صفوان بن عمرو، عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال «يوشك أن يرفع العلم» فقال زياد بن ليبيد: يا رسول الله، وكيف يرفع العلم وقد قرأنا القرآن وعلمناه أبناءنا؟ فقال «نكلتك أمك يا ابن ليبيد إن كنت لأراك من أफقه أهل المدينة، أو ليست التوراة والإنجيل بأيدي اليهود والنصارى، فما أغنى عنهم حين تركوا أمر الله» ثم قرأ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ هكذا أورده ابن أبي حاتم حديثاً معلقاً من أول إسناده مرسلأ في آخره. وقد رواه الإمام أحمد بن حنبل^(٢) متصلاً موصولاً، فقال: حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش عن سالم بن أبي الجعد، عن زياد بن ليبيد أنه قال ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال «وذاك عند ذهاب العلم» قال: قلنا: يا رسول الله، وكيف يذهب العلم ونحن نقرأ القرآن، ونقرئه أبناءنا، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال «نكلتك أمك يا ابن أم ليبيد، إن كنت لأراك من أफقه رجل بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون بما فيهما بشيء» وكذا رواه ابن ماجه^(٣) عن أبي بكر بن أبي شيبه، عن وكيع بإسناده نحوه، وهذا إسناد صحيح.

وقوله تعالى: ﴿مَنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَمْعَلُونَ﴾ كقوله ﴿وَمِنْ قَوْمٍ مُّؤْمِنٍ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَدْخُلُونَ﴾ [الأحرف: ١٥٩] وكقوله عن أتباع عيسى ﴿فَنَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]، فجعل أعلى مقاماتهم الاقتصاد وهو أوسط مقامات هذه الأمة وفوق ذلك رتبة السابقين، كما في قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْذَنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ جَنَّتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ [فاطر: ٣٢-٣٣] الآية، والصحيح أن الأقسام الثلاثة من هذه الأمة كلهم يدخلون الجنة، وقد قال أبو بكر بن مردويه^(٤): حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا أحمد بن يونس الضبي، حدثنا عاصم بن علي حدثنا أبو معشر، عن يعقوب بن يزيد بن طلحة، عن زيد بن أسلم، عن أنس بن مالك قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فقال «تفرقت أمة موسى على إحدى وسبعين ملة: سبعون منها في النار، وواحدة في الجنة، وتفرقت أمة عيسى على اثنتين وسبعين ملة: واحدة منها في الجنة، وإحدى وسبعون منها في النار، وتعلو أمتي على الفريقين جميعاً واحدة في الجنة، واثنتان وسبعون في النار» قالوا: من هم يا

(١) عزاه المصنف لابن أبي حاتم، وانظر ما بعده.

(٢) صحيح: المسند (١٧٠١٩)، انظر المشكاة (٢٧٧).

(٣) صحيح: ابن ماجه (٤٠٤٨)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٤) صحيح لغيره: واللفظ الذي أورده ابن كثير فيه أبو معشر: اختلط لكن أصل الحديث ثابت، وقد سبق تحريمه.

رسول الله؟ قال «الجماعات الجماعات». قال يعقوب بن زيد: كان على بن أبي طالب إذا حدث بهذا الحديث عن رسول الله ﷺ تلا فيه قرآنا، قال ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَأَتَقُوا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سَخَاتِبُهُمْ وَلَا دَلَّخْنَا لَهُمْ جَنَّةَ النَّبِيِّ﴾ إلى قوله: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَةٌ مَا يَمْلُونَ﴾ وتلا أيضا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَمْدُلُونَ﴾ [الأمراء: ١٨١] معنى أمة محمد ﷺ وهذا حديث غريب جداً من هذا الوجه وبهذا السياق، وحديث افتراق الأسم إلى بضع وسبعين مروى من طرق عديدة، وقد ذكرناه في موضع آخر ولله الحمد والمنة.

ثلاثة

أربع

الحزب

١٢

﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى مخاطباً عبده ورسوله محمداً ﷺ باسم الرسالة، وأمراله بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، وقد امتثل عليه أفضل الصلاة والسلام ذلك، وقام به أتم القيام، قال البخارى (١) عند تفسير هذه الآية: حدثنا محمد بن يوسف، حدثنا سفيان عن إسماعيل، عن الشعبي عن مسروق، عن عائشة رضی الله عنها، قالت: من حدثك أن محمداً كنتم شيئاً مما أنزل عليه فقد كذب، الله يقول ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، هكذا رواه هاهنا مختصراً وقد أخرج في مواضع من صحيحه مطولاً، وكذا رواه مسلم في كتاب الإيمان، والترمذى والنسائى (٢) فى كتاب التفسير من سنتهما من طرق عن عامر الشعبي، عن مسروق بن الأجدع، عنها رضی الله عنها، وفى الصحيحين (٣) عنها أيضاً أنها قالت: لو كان محمد ﷺ كاتباً شيئاً من القرآن لكتبتم هذه الآية ﴿وَتَخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْفَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْفَى﴾ [الأحزاب: ٣٧].

وقال ابن أبي حاتم (٤): حدثنا أحمد بن منصور الرمادى: حدثنا سعيد بن سليمان، حدثنا عباد عن هارون بن عترة، عن أبيه قال: كنت عند ابن عباس، فجاء رجل فقال له: إن ناساً يأتونا فيخبرونا أن عندكم شيئاً لم يده رسول الله ﷺ للناس فقال ابن عباس: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ والله ما ورثنا رسول الله ﷺ سوداء فى بيضاء. وهذا إسناده جيد، وهكذا فى صحيح البخارى (٥) من رواية أبى جحيفة وهب بن عبد الله السوائى قال: قلت لعلى بن أبى طالب رضی الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي مما ليس فى القرآن؟ فقال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسيمة، إلا فهما يعطيه الله رجلاً فى القرآن وما فى هذه الصحيفة، قلت: وما فى هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر.

وقال البخارى: قال الزهري: من الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التسليم، وقد شهدت له

(١) البخارى برقم (٤٦١٢).

(٢) مسلم برقم (١٧٧)، الترمذى (٣٠٦٨)، والنسائى فى «الكبرى» (٤٣٢/٦)، برقم (١١٤٠٨).

(٣) البخارى برقم (٧٤٢٠) من حديث أنس بن مالك رضی الله عنه، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة رضی الله عنها.

(٤) حسن: ابن أبى حاتم (١١٧٢/٤) برقم (٦٦١١)، وقد علق عليه الحافظ بقوله: وهذا إسناده جيد.

(٥) البخارى (٣٠٤٧).

أتمه بإبلاغ الرسالة وأداء الأمانة، واستنطقهم بذلك فى أعظم المحافل فى خطبته يوم حجة الوداع، وقد كان هناك من أصحابه نحوًا من أربعين ألفًا، كما ثبت فى صحيح مسلم^(١) عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته يومئذ «أيها الناس إنكم مسئولون عنى، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء ويقول «اللهم هل بلغت؟ اللهم بلغت». قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا ابن نمير، حدثنا فضيل يعنى ابن غزوان، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ فى حجة الوداع. «يا أيها الناس أى يوم هذا؟» قالوا: يوم حرام، قال: «أى بلد هذا؟» قالوا: بلد حرام، قال «فأى شهر هذا؟» قالوا: شهر حرام، قال: «فإن أموالكم ودماءكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا، فى بلدكم هذا، فى شهركم هذا» ثم أعادها مرارًا، ثم رفع أصبعه إلى السماء فقال «اللهم هل بلغت؟» مرارًا. قال: يقول ابن عباس: والله لو صية إلى ربه عز وجل، ثم قال «ألا فليبلغ الشاهد الغائب: لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض» وقد روى البخارى^(٣) عن على بن المدينى، عن يحيى بن سعيد، عن فضيل بن غزوان به نحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَدَّ تَفَعَّلَ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعنى وإن لم تؤد إلى الناس ما أرسلتك به، ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أى وقد علم ما يترتب على ذلك لو وقع وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿وَإِنْ لَدَّ تَفَعَّلَ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ يعنى إن كتمت آية مما أنزل إليك من ربك لم تبلغ رسالته، قال ابن أبى حاتم^(٤): حدثنا أبى، حدثنا قبيصة بن عقبة، حدثنا سفيان عن رجل، عن مجاهد قال: لما نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ قال: يا رب، كيف أصنع وأنا وحدى يجتمعون عليّ؟ فنزلت ﴿وَإِنْ لَدَّ تَفَعَّلَ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ ورواه ابن جرير من طريق سفيان وهو الثورى به.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَصْصِلُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ أى بلغ أنت رسالتى وأنا حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك ومظفرك بهم، فلا تخف ولا تحزن فلن يصل أحد منهم إليك بسوء يؤذيك، وقد كان النبى ﷺ قبل نزول هذه الآية يحرس، كما قال الإمام أحمد^(٥): حدثنا يزيد، حدثنا يحيى قال: سمعت عبد الله بن عامر بن ربيعة يحدث أن عائشة رضى الله عنها كانت تحدث أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهى إلى جنبه قالت: فقلت ما شأنك يا رسول الله؟ قال «ليت رجلاً صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة» قالت: فبينما أنا على ذلك، إذ سمعت صوت السلاح، فقال «من هذا؟» فقال: أنا سعد بن مالك. فقال: «ما جاء بك؟» قال: جئت لأحرسك يا رسول الله. قالت: فسمعت غطيظ رسول الله ﷺ فى نومه. أخرجاه فى الصحيحين^(٦) من طريق يحيى بن سعيد الأنصارى به، وفى لفظ: سهر رسول الله ﷺ ذات ليلة مقدمه المدينة يعنى على أثر هجرته بعد دخوله بعائشة رضى الله عنها، وكان ذلك فى سنة ثنتين منها.

(١) مسلم برقم (١٢١٨). (٢) المسند برقم (٢٠٣٧)، ورجاله ثقات.

(٣) البخارى برقم (١٧٣٩).

(٤) ضعيف ابن أبى حاتم (١١٧٣/٤)، وإسناده مرسل وفيه رجل مبهم.

(٥) المسند (٢٤٥٦)، ورجاله ثقات. (٦) البخارى برقم (٧٢٣١)، مسلم برقم (٢٤١٠).

وقال ابن أبي حاتم^(١) : حدثنا إبراهيم بن مرزوق البصرى، نزيل مصر، حدثنا مسلم بن إبراهيم، حدثنا الحارث بن عبيد يعنى أبا قدامة عن الجريري، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿وَأَلَّهُ يَمُوتُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ قالت: فأخرج النبي ﷺ رأسه من القبة وقال «يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمى الله عز وجل»، وهكذا رواه الترمذى^(٢) عن عبد بن حميد، وعن نصر بن على الجهضمي، كلاهما عن مسلم بن إبراهيم به، ثم قال: وهذا حديث غريب، وهكذا رواه ابن جرير والحاكم^(٣) فى مستدرکه من طريق مسلم بن إبراهيم به.

ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، وكذا رواه سعيد بن منصور^(٤) عن الحارث بن عبيد أبي قدامة عن الجريري، عن عبد الله بن شقيق، عن عائشة به، ثم قال الترمذى: وقد روى بعضهم هذا عن الجريري عن ابن شقيق، قال: كان النبي ﷺ، ولم يذكر عائشة. قلت: هكذا رواه ابن جرير من طريق إسماعيل بن عليه، وابن مردويه من طريق وهيب، كلاهما عن الجريري عن عبد الله بن شقيق مرسلًا.

وقد روى هذا مرسلًا عن سعيد بن جبیر ومحمد بن كعب القرظى، رواهما ابن جرير، والربيع بن أنس، رواه ابن مردويه^(٥)، ثم قال: حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا أحمد بن رشدين المصرى، حدثنا خالد بن عبد السلام الصدقى، حدثنا الفضل بن المختار عن عبيد الله بن موهب، عن عصمة بن مالك الخطمى قال: كنا نحرس رسول الله ﷺ بالليل حتى نزلت ﴿وَأَلَّهُ يَمُوتُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فترك الحرس. حدثنا سليمان بن أحمد، حدثنا حمد بن محمد بن حمد أبو نصر الكاتب البغدادى، حدثنا كردوس بن محمد الواسطى، حدثنا يعلى بن عبد الرحمن عن فضيل بن مرزوق عن عطية، عن أبي سعيد الخدرى، قال: كان العباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه، فلما نزلت هذه الآية ﴿وَأَلَّهُ يَمُوتُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ ترك رسول الله ﷺ الحرس^(٦).

حدثنا على بن أبى حامد المدينى، حدثنا أحمد بن محمد بن سعيد، حدثنا محمد بن مفضل بن إبراهيم الأشعرى، حدثنا أبى، حدثنا محمد بن معاوية بن عمار، حدثنا أبى قال: سمعت أبا الزبير المكى يحدث عن جابر بن عبد الله، قال: كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه حتى نزلت ﴿وَأَلَّهُ يَمُوتُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ فذهب ليبعث معه، فقال «يا عم إن الله قد عصمى لا حاجة لى إلى من تبعث»^(٧) وهذا حديث غريب وفيه نكارة، فإن هذه الآية مدنية، وهذا الحديث يقتضى أنها مكية، ثم قال: حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن يحيى، حدثنا أبو كريب، حدثنا

(١) حسن: ابن أبي حاتم (١١٧٣/٤).

(٢) حسن: الترمذى (٣٠٤٦)، انظر صحيح جامع الترمذى.

(٣) ابن جرير (٣٠٨/٦)، والحاكم فى المستدرک (٣٤٢/٢) برقم (٣٢٢١)، وقد صححه الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

(٤) سعيد بن منصور (١٥٠٤/٤) برقم (٧٦٨)، وقال سعيد: ضعيف.

(٥) فيه أحمد بن محمد بن رشدين: ضعيف وقد كذب، والفضل بن المختار: منكر الحديث ضعيف جدًا.

(٦) فى إسناده عطية العوفى: شيعى مدلس، ومعل بن عبد الرحمن: متهم بالوضع.

(٧) منكر: وفيه أبو الزبير: مدلس.

عبد الحميد العماني عن النضر، عن عكرمة عن ابن عباس، قال: كان رسول الله ﷺ يحرس فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجلاً من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَتَوَكَّلُ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أُمَّتِهِ﴾^(١) قال: فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه، فقال: «إن الله قد عصمنا من الجن والإنس»، رواه الطبراني^(٢) عن يعقوب بن غيلان العماني، عن أبي كريب به. وهذا أيضاً حديث غريب، والصحيح أن هذه الآية مدنية بل هي من أواخر ما نزل بها، والله أعلم.

ومن عصمة الله لرسوله، حفظه له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبغضة، ونصب المحاربة له ليلاً ونهاراً، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقدرته وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب إذ كان رئيساً مطاعاً كبيراً في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية، ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات عمه أبو طالب، نال منه المشركون أذى يسيراً، ثم قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام وعلى أن يتحول إلى دارهم وهي المدينة، فلما صار إليها، حموه من الأحمر والأسود، وكلما هم أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله، ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر فحماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سمع اليهود في ذراع تلك الشاة بخبير، أعلمه الله به وحماه منه، ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها، فمن ذلك ما ذكره المفسرون عند هذه الآية الكريمة:

فقال أبو جعفر بن جرير^(٣): حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظي، وغيره، قالوا: كان رسول الله ﷺ إذا نزل منزلاً اختار له أصحابه شجرة ظليلة فيقبل تحتها، فأتاه أعرابي فاخترط سيفه، ثم قال: من يمنعك مني؟ فقال «الله عز وجل» فرعدت يد الأعرابي وسقط السيف منه، وضرب برأسه الشجرة حتى انتثر دماغه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَأَلَّهُ يَتَوَكَّلُ مِنَ النَّاسِ﴾.

وقال ابن أبي حاتم^(٤): حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان، حدثنا زيد بن الحباب، حدثنا موسى بن عبيدة، حدثني زيد بن أسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: لما غزا رسول الله ﷺ بني أنمار، نزل ذات الرقاع بأعلى نخل، فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه، فقال غورث بن الحارث من بني النجار: لأقتلن محمداً، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له: أعطني سيفك، فإذا أعطانيه، قتلته به، قال: فأتاه. فقال: يا محمد، أعطني سيفك أشيمه، فأعطاه إياه، فرعدت يده حتى سقط السيف من يده، فقال رسول الله ﷺ «حال الله بينك وبين ما تريد»، فأنزل الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَتَوَكَّلُ

(١) منكر: في إسناده النضر بن عبد الرحمن: متروك الحديث.

(٢) الطبراني في «الكبير» (٢٥٦/١١) برقم (١١٦٦٣)، وفيه النضر بن عبد الرحمن: ضعيف.

(٣) مرسل: في إسناده أبو معشر: ضعيف.

(٤) ضعيف: ابن أبي حاتم (١١٧٣/٤)، وفيه موسى بن عبيدة الربذي: ضعيف.

يَنْ آتَيْنِ» وهذا حديث غريب من هذا الوجه، وقصة غورث بن الحارث مشهورة في الصحيح.
وقال أبو بكر بن مردويه^(١): حدثنا أبو عمرو أحمد بن محمد بن إبراهيم، حدثنا محمد بن عبد الوهاب، حدثنا آدم، حدثنا حماد بن سلمة عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، قال: كنا إذا صحبتنا رسول الله ﷺ في سفر تركنا له أعظم شجرة وأظلمها، فينزل تحتها، فنزل ذات يوم تحت شجرة وعلق سيفه فيها، فجاء رجل فأخذه، فقال: يا محمد من يمنعك مني؟ فقال رسول الله ﷺ «الله يمنعني منك ضعيف السيف» فوضعه، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وكذا رواه أبو حاتم بن حبان في صحيحه عن عبد الله بن محمد، عن إسحاق بن إبراهيم، عن المؤمل بن إسماعيل، عن حماد بن سلمة به.

وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة، سمعت أبا إسرائيل، يعني الجشمي، سمعت جعدة هو ابن خالد بن الصمة الجشمي رضى الله عنه، قال: سمعت النبي ﷺ ورأى رجلاً سمياً، فجعل النبي ﷺ يومئ إلى بطنه بيده ويقول «لو كان هذا في غير هذا، لكان خيراً لك» قال: وأتى النبي ﷺ برجل، فقيل: هذا أراد أن يقتلك، فقال له النبي ﷺ: «لم ترع ولو أردت ذلك لم يسلطك الله علي».

وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ أى بلغ أنت والله هو الذى يهدى من يشاء ويضل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال ﴿فَلَمَّا عَلَيكَ الْبَلَاءُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرمع: ٤٠].

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقُونَ وَالنَّصَارَىٰ مِن ءَاسِنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ أى من الدين ﴿حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾، أى حتى تؤمنوا بجميع ما بأيديكم من الكتب المنزلة من الله على الأنبياء، وتعملوا بما فيها، وبما فيها الأمر باتباع محمد ﷺ والإيمان ببعثته، والافتداء بشريعته، ولهذا قال ليث بن أبي سليم عن مجاهد: فى قوله ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِن رَّبِّكُمْ﴾: يعنى القرآن العظيم، وقوله ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ تقدم تفسيره، ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ أى فلا تحزن عليهم، ولا يهدنك ذلك منهم، ثم قال ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ وهم المسلمون، ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ وهم حملة التوراة، ﴿وَالصَّابِقُونَ﴾ لما طال الفصل حسن العطف بالرفع، والصابئون طائفة بين النصارى و المجوس ليس لهم دين، قاله مجاهد، وعنه: بين اليهود والمجوس، وقال سعيد بن جبير: بين اليهود

(١) حسن: عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (١١٩/٣) إلى ابن مردويه وابن حبان.

(٢) ضعيف: المسند (١٨٥٠٤)، وفيه «وكيع» وليس فيه «محمد بن جعفر»، انظر ضعيف الترغيب والترهيب (١٢٩٤).

والنصارى، وعن الحسن: إنهم كالمجوس، وقال قتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى غير القبلة، ويقراءون الزبور.

وقال وهب بن منبه: هم قوم يعرفون الله وحده، وليست لهم شريعة يعملون بها، ولم يحدثوا كفراً، وقال ابن وهب: أخبرني ابن أبي الزناد عن أبيه، قال: الصابئون هم قوم مما يلي العراق، وهم بכוثرى، وهم يؤمنون بالنبیین كلهم، ويصومون كل سنة ثلاثين يوماً، ويصلون إلى اليمين كل يوم خمس صلوات، وقيل غير ذلك، وأما النصارى فمعروفون وهم حملة الإنجيل، والمقصود أن كل فرقة آمنت بالله واليوم الآخر وهو الميعاد والجزاء يوم الدين، وعملت عملاً صالحاً، ولا يكون ذلك كذلك حتى يكون موافقاً للشريعة المحمدية بعد إرسال صاحبها المبعوث إلى جميع الثقيلين فمن اتصف بذلك فلا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا على ما تركوا وراء ظهورهم، ولا هم يحزنون، وقد تقدم الكلام على نظيرتها في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا.

﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قَالًا جَاءَهُمْ رَسُولًا بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٦٥﴾ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً فَعَمُوا وَصَمُوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُوا كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِعَمِيرٍ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٦٦﴾﴾

يذكر تعالى أنه أخذ العهود والمواثيق على بنى إسرائيل على السمع والطاعة لله ولرسوله، فتنصوا تلك العهود والمواثيق واتبعوا آراءهم وأهواءهم، وقدموها على الشرائع، فما وافقهم منها قبلوه وما خالفهم ردوه، ولهذا قال تعالى: ﴿كَلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولًا بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ أى وحسبوا أن لا يترتب لهم شر على ما صنعوا، فترتب، وهو أنهم عموماً عن الحق وصموا فلا يسمعون حقاً ولا يهتدون إليه، ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أى مما كانوا فيه، ثم ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ أى بعد ذلك، ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَاللَّهُ بِعَمِيرٍ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ أى مطلع عليهم وعليهم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكُ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴿٦٦﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ تَالِكٌ تَلْعَنُ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْهَوْا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٨﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نَبِّئُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤفَكُونَ ﴿٦٩﴾﴾

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والسنطورية، ممن قال منهم: بأن المسيح هو الله، تعالى الله عن قولهم وتنزهه وتقدس علواً كبيراً، هذا وقد تقدم إلهم المسيح بأنه عبد الله ورسوله، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير فى المهد أن قال: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]،

ولم يقل أنا الله ولا ابن الله، بل قال ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَدَنِيٌّ أَلَكِنَّبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مریم: ٣٠] إلى أن قال ﴿وَلَئِنِ اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُواهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [مریم: ٣٦] وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته أمرًا لهم بعبادة الله ربه وربهم، وحده لا شريك له، ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِيَّ إِيمَانًا لِيَلْعَبُدُونِي وَأَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أى يعبد معه غيره ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أى فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]. وقال تعالى: ﴿وَمَادَا أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَن يَفِيضُوا عَلَيْكَ إِنَّا مَلَأْنَا أَوْسَاءَ رِزْقِكُمْ اللَّهُ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ حَرَمْتُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الامراف: ٥٠]، وفى الصحيح ^(١) أن النبى ﷺ بعث منادياً ينادى فى الناس: إن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وفى لفظ: مؤمنة، وتقدم فى أول سورة النساء عند قوله: إن الله لا يغفر أن يشرك به، حديث يزيد بن بانوس عن عائشة: الدواوين ثلاثة ^(٢)، فذكر منهم ديواناً لا يغفره الله، وهو الشرك بالله، قال الله تعالى: «ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة»، الحديث فى مسند أحمد، ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبنى إسرائيل ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ﴾ أى وما له عند الله ناصر ولا معين ولا متقذ مما هو فيه.

وقوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكُ تَلَشُّوهُ﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسن النهسجاني، حدثنا سعيد بن الحكم بن أبى مریم، حدثنا الفضل، حدثنى أبو صخر فى قول الله تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ تَالِكُ تَلَشُّوهُ﴾ قال: هو قول اليهود ﴿عُرِّضُوا أَيْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، وقول النصرارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، فجعلوا الله ثالث ثلاثة، وهذا قول غريب فى تفسير الآيه أن المراد بذلك طائفتا اليهود والنصارى، والصحيح أنها أنزلت فى النصرارى خاصة، قاله مجاهد وغير واحد، ثم اختلفوا فى ذلك فقيل: المراد بذلك كفرهم فى قولهم بالأقانيم الثلاثة: وهو أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، قال ابن جرير وغيره: والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم، وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ليس هذا موضع بسطه، وكل فرقة منهم تكفر الأخرى، والحق أن الثلاث كافرة.

وقال السدى وغيره: نزلت فى جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله، فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار، قال السدى: وهى كقولته تعالى فى آخر السورة ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مَا تَأْتِى لَكَ مِنَ الْغَيْبِ وَأَنْتَ لَمْ تَلْمِزْهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية، وهذا القول هو الأظهر - والله أعلم - قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغُ لِلَّهِ إِلَهٌ وَجِدٌ﴾ أى ليس متعلداً بل هو وحده لا شريك له، إله جميع الكائنات وسائر الموجودات، ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يُفْعَلُونَ﴾ أى من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى فى الآخرة من الأغلال والنكال، ثم قال ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا من كرمه تعالى وجوده

(١) أخرجه البخارى برقم (٣٠٦٢)، مسلم (١١١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٢) سبق تحريجه.

ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم، وهذا الافتراء والكذب والإفك، يدعوهم إلى التوبة والمغفرة، فكل من تاب إليه تاب عليه.

ثم قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُنْتُمْ صِدْقَةٌ﴾ أى له سوية أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه، وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام، كما قال ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩]. وقوله ﴿وَأَنْتُمْ صِدْقَةٌ﴾ أى مؤمنة به مصدقة له، وهذا أعلى مقاماتها، فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحاق، ونبوة أم موسى، ونبوة أم عيسى، استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم، ويقولون ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمُّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وهذا معنى النبوة، والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك.

وقوله تعالى: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الْفَلَكَمَ﴾ أى يحتاجان إلى التغذية به، وإلى خروجه منهما، فهما عبدان كسائر الناس، وليسا بالهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة، عليهم لعائن الله المتابعة إلى يوم القيامة، ثم قال تعالى: ﴿انظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أى نوضحها ونظهرها ﴿ثُمَّ أَنْظَرْنَا أَنْ يُؤفِكُوا﴾ أى ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلالة أين يذهبون، وبأى قول يتمسكون، وإلى أين مذهب من الضلال يذهبون.

﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٧١) ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ (٧٢)

يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان، ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية: ﴿قُلْ﴾ أى يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أى لا يقدر على إيصال ضرر إليكم ولا إيجار نفع، ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أى فلم عدلتم عن أفراد السميع لأقوال عباده، العليم بكل شيء، فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ولا يملك ضراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه؟ ثم قال ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابَ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أى لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية، كما صنعتهم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله، وما ذاك إلا لاقتدائكم، بشيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً، ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أى وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال.

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أحمد بن عبد الرحمن، حدثنا عبد الله بن أبي جعفر عن أبيه، عن الربيع بن أنس، قال: وقد كان قائم قام عليهم فأخذ بالكتاب والسنة زماناً، فأتاه الشيطان

فقال: إنما تركب أثراً أو أمراً قد عمل قبلك، فلا تجمد عليه، ولكن ابتدع أمراً من قبل نفسك، وادع إليه وأجبر الناس عليه، ففعل ثم اذكر بعد فعله زماناً، فأراد أن يتوب منه، فخلع سلطانه وملكه، وأراد أن يتعبد، فلبث في عبادته أياماً، فأتى فقيل له: لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتاب عليك، ولكن ضل فلان وفلان في سبيلك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة، فكيف لك بهداهم فلا توبة لك أبداً، ففيه سمعنا وفي أشباهه هذه الآية ﴿يَأْهَلْ أَلِڪْتَبِ لَا تَقْلُوا فِي دِيْعِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُكْفَرُونَ﴾.

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٨﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسَهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا أَخَذْنَاهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿٤٠﴾﴾

بخبر تعالى أنه لعن الكافرين من بني إسرائيل من دهر طويل فيما أنزله على داود نبيه عليه السلام، وعلى لسان عيسى ابن مريم، بسبب عصيانهم لله واعتدائهم على خلقه، قال العوفي عن ابن عباس: لعنوا في التوراة والإنجيل وفي الزبور وفي الفرقان، ثم بين حالهم فيما كانوا يعتمدونه في زمانهم، فقال تعالى ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ أي كان لا ينهى أحد منهم أحداً عن ارتكاب المأثم والمحارم، ثم ذمهم على ذلك ليحذر أن يرتكب مثل الذي ارتكبه، فقال: ﴿لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾.

وقال الإمام أحمد^(١) رحمه الله: حدثنا يزيد حدثنا شريك بن عبد الله عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ «لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي، نهتهم علماءهم فلم ينتهوا: فجالسوهم في مجالسهم» قال يزيد: وأحسبه قال: «وأسواقهم، وواكلوهم وشاربوهم، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض، ولعنهم على لسان داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكان يعتمدون وكان رسول الله ﷺ متكئاً، فجلس فقال «لا والذي نفسى بيده حتى تاطروهم على الحق أظلماً».

وقال أبو داود^(٢): حدثنا عبد الله بن محمد النفيلي، حدثنا يونس بن راشد عن علي بن بذيمة، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل فيقول: يا هذا اتق الله ودع ما تصنع، فإنه لا يحل لك، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض - ثم قال -: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله

(١) ضعيف: المسند (٣٧٠٥)، انظر «المشكاة» (٥١٤٨).

(٢) ضعيف: أبو داود (٤٣٣٦)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

﴿فَنَسِئُونَ﴾ - ثم قال - : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد الظالم، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو تقصرنه على الحق قصراً، وكذا رواه الترمذى وابن ماجه^(١) من طريق على بن بزيمه به، وقال الترمذى: حسن غريب، ثم رواه هو وابن ماجه^(٢) عن بندار، عن ابن مهدى، عن سفيان، عن على بن بزيمه، عن أبى عبيدة مرسلًا.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، وهارون بن إسحاق الهمداني، قالوا: حدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن مرة، عن سالم الألفطس، عن أبى عبيدة، عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «إن الرجل من بنى إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعزيرًا، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه، أن يكون أكيله وخليطه وشريكه» وفي حديث هارون «وشريكه»، ثم اتفقا فى المتن «فلما رأى الله ذلك منهم ضرب قلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون» ثم قال رسول الله ﷺ «والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذن على يد المسيء، ولتأطرنه على الحق أطراً، أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض، أو ليلعنكم كما لعنهم»^(٣) والسياق لأبى سعيد، كذا قال فى روايته هذا الحديث، وقد رواه أبو داود^(٤) أيضًا عن خلف بن هشام، عن أبى شهاب الخياط، عن العلاء بن المسيب، عن عمرو بن مرة، عن سالم وهو ابن عجلان الألفطس، عن أبى عبيدة بن عبد الله بن مسعود، عن أبيه، عن النبى ﷺ بنحوه، ثم قال أبو داود: وكذا رواه خالد عن العلاء، عن عمرو بن مرة به، ورواه المحاربي عن العلاء بن المسيب، عن عبد الله بن عمرو بن مرة، عن سالم الألفطس، عن أبى عبيدة عن عبد الله، قال شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى: وقد رواه خالد بن عبد الله الواسطى عن العلاء بن المسيب، عن عمرو بن مرة، عن أبى عبيدة عن أبى موسى.

والأحاديث فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كثيرة جدًا، ولتذكر منها ما يناسب هذا المقام، قد تقدم حديث جرير عند قوله ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّيُّونَ وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ [المائدة: ٦٣] وسيأتى عند قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَعْزِمُوا عَلَى الْكُفَّارِ﴾ [المائدة: ١٠٥] حديث أبى بكر الصديق وأبى ثعلبة الخشنى، فقال الإمام أحمد^(٥): حدثنا سليمان الهاشمى، أنبأنا إسماعيل بن جعفر، أخبرنى عمرو بن أبى عمرو عن عبد الله بن عبد الرحمن الأشهللى، عن حذيفة بن اليمان أن النبى ﷺ قال «والذى نفسى بيده، لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم»، ورواه الترمذى^(٦) عن على بن حجر عن إسماعيل بن جعفر به، وقال: هذا حديث حسن. وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه^(٧): حدثنا أبو بكر بن أبى

(١) ضعيف: الترمذى (٣٠٤٧)، ابن ماجه (٤٠٠٦)، انظر ضعيف جامع الترمذى.

(٢) ضعيف: انظر تخريج الحديث السابق. (٣) سبق تخريجه.

(٤) ضعيف: أبو داود (٤٣٣٦)، انظر ضعيف سنن أبى داود.

(٥) حسن: المسند (٢٢٧٩٠)، انظر صحيح الجامع (٧٠٧٠).

(٦) حسن: الترمذى (٢١٦٩)، انظر صحيح جامع الترمذى.

(٧) حسن: ابن ماجه (٤٠٠٤)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

شبية، حدثنا معاوية بن هشام عن هشام بن سعد، عن عمرو بن عثمان، عن عاصم بن عمر بن عثمان، عن عروة، عن عائشة قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول «مروا بالمعروف، وانها عن المنكر، قبل أن تدعوا فلا يستجاب لكم» تفرد به، وعاصم هذا مجهول.

وفى الصحيح^(١) من طريق الأعمش عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه، عن أبي سعيد، وعن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب، عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم. وقال الإمام أحمد^(٢): حدثنا ابن نمير، حدثنا سيف هو ابن أبي سليمان، سمعت عدى بن عدى الكندي يحدث عن مجاهد قال: حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يعني عدى بن عميرة رضى الله عنه، يقول: سمعت النبي ﷺ يقول «إن الله لا يعذب العامة بعمل الخاصة حتى يروا المنكر بين ظهرانيهم وهم قادرون على أن ينكروه فلا ينكروه، فإذا فعلوا ذلك، عذب الله الخاصة والعامة»، ثم رواه أحمد عن أحمد بن الحجاج، عن عبد الله بن المبارك، عن سيف بن أبي سليمان، عن عيسى بن عدى الكندي، حدثني مولى لنا أنه سمع جدي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فذكره، هكذا رواه الإمام أحمد من هذين الوجهين.

وقال أبو داود^(٣): حدثنا محمد بن العلاء، حدثنا أبو بكر، حدثنا المغيرة بن زياد الموصلي عن عدى بن عدى، عن العرس يعني ابن عميرة، عن النبي ﷺ قال «إذا عملت الخطيئة في الأرض كان من شهدها فكرها - وقال مرة فأنكرها - كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها فرضيها كان كمن شهدها» تفرد به أبو داود، ثم رواه عن أحمد بن يونس، عن أبي شهاب، عن مغيرة بن زياد، عن عدى بن عدى مرسلًا. وقال أبو داود^(٤): حدثنا سليمان بن حرب وحفص بن عمر، قالا: حدثنا شعبة وهذا لفظه، عن عمرو بن مرة، عن أبي البختری قال: أخبرني من سمع النبي ﷺ، وقال سليمان: حدثني رجل من أصحاب النبي ﷺ أن النبي ﷺ قال «لن يهلك الناس حتى يعذروا أو يعذروا من أنفسهم». وقال ابن ماجه^(٥): حدثنا عمران بن موسى، حدثنا حماد بن زيد، حدثنا علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قام خطيبًا، فكان فيما قال «ألا لا يمنعن رجلاً هية الناس أن يقول الحق إذا علمه». قال: فبكى أبو سعيد، وقال: قد والله رأينا أشياء فهينا.

وفى حديث إسرائيل عن محمد بن جحادة عن عطية عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه^(٦)، وقال الترمذي: حسن غريب من هذا الوجه. وقال ابن ماجه^(٧): حدثنا راشد بن سعيد الرملي، حدثنا الوليد بن مسلم،

(١) أخرجه مسلم برقم (٤٩).

(٢) ضعيف: المسند (١٧٢٦٧)، انظر السلسلة الضعيفة (٣١١٠).

(٣) حسن: أبو داود (٤٣٤٥)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٤) صحيح: أبو داود (٤٣٤٧)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٥) صحيح: ابن ماجه (٤٠٠٧)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

(٦) صحيح: أبو داود (٤٣٤٤)، الترمذي (٢١٧٤)، ابن ماجه (٤٠١١)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٧) حسن صحيح: ابن ماجه (٤٠١٢)، انظر صحيح سنن ابن ماجه.

حدثنا حماد بن سلمة عن أبي غالب، عن أبي أمامة: قال: عرض لرسول الله ﷺ رجل عند الجمرة الأولى، فقال: يا رسول الله، أى الجهاد أفضل؟ فسكت عنه، فلما رمى الجمرة الثانية سأله فسكت عنه، فلما رمى جمره الثالثة ووضع رجله فى الغرز ليركب قال «أين السائل؟» قال: أنا يا رسول الله. قال «كلمة حق تقال عند ذى سلطان جائر» تفرد به. وقال ابن ماجه (١): حدثنا أبو كريب، حدثنا عبد الله بن نمير وأبو معاوية عن الأعمش، عن عمرو بن مرة، عن أبي البخترى عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يحقر أحدكم نفسه» قالوا يا رسول الله: كيف يحقر أحدنا نفسه؟ قال «يرى أمرًا لله فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله له يوم القيامة: ما منعك أن تقول فى كذا وكذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى» تفرد به، وقال أيضًا: حدثنا على بن محمد، حدثنا محمد بن فضيل، حدثنا يحيى بن سعيد، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن أبو طوالة، حدثنا نهار العبدي أنه سمع أبا سعيد الخدرى يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ليسأل العبد يوم القيامة حتى يقول: ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره؟ فإذا لقن الله عبدًا حجته قال: يا رب رجوتك وفرقت الناس» تفرد به أيضًا ابن ماجه (٢)، وإسناده لا بأس به.

وقال الإمام أحمد (٣): حدثنا عمرو بن عاصم عن حماد بن سلمة، عن على بن زيد، عن الحسن، عن جندب، عن حذيفة، عن النبي ﷺ قال «لا ينبغي لمسلم أن يذل نفسه» قيل: وكيف يذل نفسه؟ قال «يتعرض من البلاء ما لا يطيق»، وكذا رواه الترمذى وابن ماجه (٤) جميعًا عن محمد بن بشار، عن عمرو بن عاصم به، وقال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح غريب. وقال ابن ماجه (٥): حدثنا العباس بن الوليد الدمشقى، حدثنا زيد بن يحيى بن عبيد الخزاعى، حدثنا الهيثم بن حميد، حدثنا أبو معبد حفص بن غيلان الرعيني عن مكحول، عن أنس بن مالك قال: قيل: يا رسول الله، متى يترك الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر؟ قال «إذا ظهر فيكم ما ظهر فى الأمم قبلكم» قلنا يا رسول الله وما ظهر فى الأمم قبلنا؟ قال «الملك فى صغاركم والفاحشة فى كباركم والعلم فى رذالكم» قال زيد: تفسير معنى قول النبي ﷺ: والعلم فى رذالكم إذا كان العلم فى الفساق. تفرد به ابن ماجه. وسيأتى فى حديث أبي ثعلبة عند قوله «لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَمْتَدَيْتُمْ» [المائدة: ١٠٥] شاهد لهذا، إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

وقوله تعالى: «تَكَرَّأ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» قال مجاهد: يعنى بذلك المنافقين. وقوله «لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ كُمْ أَنْفُسُهُمْ» يعنى بذلك موالاتهم للكافرين، وتركهم موالاتة المؤمنين التى أعقبتهم نفاقًا فى قلوبهم، وأسخطت الله عليهم سخطًا مستمرًا إلى يوم معادهم، ولهذا قال «أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ» فسر بذلك ما ذمهم به، ثم أخبر عنهم أنهم «وَفِي الْمَكَادِبِ هُمْ خَالِدُونَ» يعنى يوم القيامة. قال ابن أبي حاتم (٦): حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا مسلمة بن على عن

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) ضعيف: ابن ماجه (٤٠١٥)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

(٦) ضعيف جدًا: ابن أبي حاتم (١١٨٣/٤) برقم (٦٦٦٨)، وفيه مسلم بن علي الخشبي. قال الحافظ: متروك.

الأعمش بإسناد ذكره، قال «يا معشر المسلمين، إياكم والزنا، فإن فيه ست خصال: ثلاثاً في الدنيا، وثلاثاً في الآخرة، فأما التي في الدنيا فإنه يذهب البهاء، ويورث الفقر، وينقص العمر، وأما التي في الآخرة فإنه يوجب سخط الرب، وسوء الحساب، والخلود في النار»، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَكُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ هكذا ذكره ابن أبي حاتم.

وقد رواه ابن مردويه^(١) من طريق هشام بن عمار عن مسلمة، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة، عن النبي ﷺ فذكره، وساقه أيضاً من طريق سعيد بن عفير عن مسلمة، عن أبي عبد الرحمن الكوفي، عن الأعمش، عن شقيق، عن حذيفة، عن النبي ﷺ فذكر مثله، وهذا حديث ضعيف على كل حال، والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِآتِ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا آلِهَةً﴾ أي لو آمنوا حق الإيمان بالله والرسول والقرآن لما ارتكبوا ما ارتكبه من موالات الكافرين في الباطن، ومعاداة المؤمنين بالله والنبي وما أنزل إليه ما حذرهم أولياءه، ﴿وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَتَاهُونَ﴾ أي خارجون عن طاعة الله ورسوله، مخالفون لآيات وحيه وتنزيله.

﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ فِئْتَانٌ مِنَّا وَمِن بَيْنِهِمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَاَمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٣٦﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٧﴾ فَأَنْبِئْهُمْ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٣٩﴾

الجزء

٧

الحزب

١٣

قاله هلى بن أبى طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآيات فى النجاشى وأصحابه الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبى طالب بالحبشة القرآن، بكوا حتى أخضلوا الحاهم^(٢)، وهذا القول فيه نظر؛ لأن هذه الآية مدنية، وقصة جعفر مع النجاشى قبل الهجرة. وقال سعيد بن جبيرة والسدى وغيرهما: نزلت فى وفد بعثهم النجاشى إلى النبى ﷺ لىسمعوا كلامه ويروا صفاته، فلما رآوه وقرأ عليهم النبى ﷺ القرآن أسلموا ويكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشى فأخبروه. قال السدى: فهاجر النجاشى فمات فى الطريق. وهذا من أفراد السدى، فإن النجاشى مات وهو ملك الحبشة، وصلى عليه النبى ﷺ يوم مات، وأخبر به أصحابه، وأخبر أنه مات بأرض الحبشة. ثم اختلف فى عدة هذا الوفد، فقيل: اثنا عشر: سبعة قساوسة وخمسة رهابيين. وقيل: بالعكس. وقيل: خمسون. وقيل: بضع وستون. وقيل: سبعون رجلاً، فالله أعلم، وقال عطاء بن أبى رباح: هم قوم من أهل الحبشة أسلموا حين قدم عليهم مهاجرة الحبشة من المسلمين. وقال قتادة: هم قوم كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا

(١) عزاه لابن مردويه من طريق هشام بن عمار عن مسلمة عن الأعمش به. ورجاله ثقات.

(٢) ابن أبى حاتم (٤/١١٨٤)، وفيه على بن أبى حاتم لم يسمع من ابن عباس.

المسلمين، وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثوا، واختار ابن جرير أن هذه الآيات نزلت في صفة أقوام بهذه المثابة، سواء كانوا من الحبشة أو غيرها.

فقوله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ وما ذاك إلا لأن كفر اليهود كفر عناد وجحود ومباهة للحق وغمط للناس وتنقص بحملة العلم، ولهذا قتلوا كثيرًا من الأنبياء حتى هموا بقتل رسول الله ﷺ غير مرة، وسموه وسحروه، وألبوا عليه أشباههم من المشركين عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة. وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه (١) عند تفسير هذه الآية: حدثنا أحمد بن محمد بن السري، حدثنا محمد بن علي بن حبيب الرقي، حدثنا علي بن سعيد العلاف، حدثنا أبو النضر عن الأشجعي، عن سفيان، عن يحيى بن عبد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ما خلا يهودى بمسلم قط إلا هم بقتله»، ثم رواه عن محمد بن أحمد بن إسحاق اليشكري، حدثنا أحمد بن سهل بن أيوب الأهوازي، حدثنا فرج بن عبيد، حدثنا عباد بن العوام عن يحيى بن عبيد الله، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «ما خلا يهودى بمسلم إلا حدثته نفسه بقتله» (٢)، وهذا حديث غريب جداً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَرُونَ﴾ أى الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرافة، كما قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧] وفى كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. وليس القتال مشروعاً فى ملتهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنْهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أى يوجد فيهم القسيسون وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم قسيس وقس أيضاً، وقد يجمع على قسوس، والرهبان جمع راهب، وهو العابد، مشتق من الرهبة، وهى الخوف، كراكب وركبان، وفارس وفرسان. قال ابن جرير: وقد يكون الرهبان واحداً وجمعه رهابين، مثل قربان وقربابين، وجردان وجرادين، وقد يجمع على رهابنة، ومن الدليل على أنه يكون عند العرب واحداً قول الشاعر:

لو عاينت رهبان دير فى القلل لانحدر الرهبان يمشى ونزل

وقال الحافظ أبو بكر البزار: حدثنا بشر بن آدم. حدثنا نصير بن أبى الأشعث، حدثنى الصلت الدهان عن حامية بن رثاب، قال: سألت سلمان عن قول الله تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا﴾ فقال: دع القسيسين فى البيع والخراب، أقرأنى رسول الله ﷺ ذلك بأن منهم صديقين ورهباناً، وكذا رواه ابن مردويه من طريق يحيى بن عبد الحميد الحماني عن نصير بن زياد الطائى، عن صلت الدهان، عن حامية رثاب، عن سلمان به. وقال ابن أبى حاتم (٣): ذكره أبى، حدثنا

(١) ضعيف: الديلمي فى الفردوس (١٠٨/٤) برقم (٦٣٤٠)، انظر الضعيفة (٤٤٣٩).

(٢) انظر ما قبله.

(٣) ضعيف: ابن أبى حاتم (١١٨٣/٤)، وفيه الصلت بن عمر الدهان، أورده ابن أبى حاتم (٤٣٦/٤)، ولم يذكر فيه جرْحاً ولا تعديلاً وكذا أورد حامية بن حرب فى «الجرح والتعديل». (٣١٤/٣)

يحيى بن عبد الحميد الحماني، حدثنا نصير بن زياد الطائي، حدثنا صلت الدهان عن حامية بن رثاب قال: سمعت سلمان وسئل عن قوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا﴾ فقال هم الرهبان الذين هم في الصوامع والخرب فدعوهم فيها، قال سلمان: وقرأت على النبي ﷺ ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ﴾ فأقراني «ذلك بأن منهم صديقين ورهباناً» فقوله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ تضمن وصفهم بأن فيهم العلم والعبادة والتواضع، ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ أي مما عندهم من البشارة ببعثة محمد ﷺ ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به.

وقد روى النسائي^(١) عن عمرو بن علي الفلاس، عن عمر بن علي بن مقدم، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير قال: نزلت هذه الآية في النجاشي وفي أصحابه ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وقال الطبراني^(٢)، حدثنا أبو شبيل عبيد الله بن عبد الرحمن بن واقد، حدثنا أبي، حدثنا العباس بن الفضل عن عبد الجبار بن نافع الضبي، عن قتادة، وجعفر بن ليث عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ قال: إنهم كانوا نواتين يعني: ملاحين، قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة، فلما قرأ رسول الله ﷺ عليهم القرآن، آمنوا وفاضت أعينهم، فقال رسول الله ﷺ «لعلكم إذا رجعتم إلى أرضكم انتقلتم إلى دينكم» فقالوا: لن نتقل عن ديننا، فأنزل الله ذلك من قولهم. وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم في مستدركه من طريق سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس في قوله ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي مع محمد ﷺ وأمه وهم الشاهدون، يشهدون لنبيهم ﷺ أنه قد بلغ، وللرسل أنهم قد بلغوا، ثم قال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴾ وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْ أَمَلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِالْقُرْآنِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ خَشِيعَةً لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِعَائِدَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩]، وهم الذين قال الله فيهم ﴿الَّذِينَ مَاتَتْهُمْ الْكُتُبُ مِنْ قَبْلِهِمْ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُ اللَّهِ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُشْرِكِينَ﴾ إلى قوله ﴿لَا يَنْفِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٥] ولهذا قال تعالى هاهنا: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي فجزاهم على إيمانهم وتصديقهم واعترافهم بالحق ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ساكنين فيها أبداً لا يحولون ولا يزولون ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي في اتباعهم الحق وانقيادهم له حيث كان وأين كان ومع من كان، ثم أخبر عن حال الأشقياء فقال ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي جحدوا بها وخالفوها، ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي هم أهلها والداخلون فيها.

(١) صحيح: النسائي في «الكبرى» (٣٣٦/٦)، برقم (١١١٤٨).

(٢) ضعيف جداً: الطبراني في «الكبير» (٥٥/١٢) برقم (١٢٤٥٥).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَلًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾﴾

قال على بن أبي طلحة عن ابن عباس: نزلت هذه الآية في رهط من أصحاب النبي ﷺ، قالوا: نقطع مذاكيرنا، ونترك شهوات الدنيا، ونسيح في الأرض كما يفعل الرهبان، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فأرسل إليهم فذكر لهم ذلك، فقالوا: نعم، فقال النبي ﷺ «لكنني أصوم وأفطر، وأصلي، وأنام، وأنكح النساء، فمن أخذ بسنتي فهو مني، ومن لم يأخذ بسنتي فليس مني» رواه ابن أبي حاتم^(١)، وروى ابن مردويه^(٢) من طريق العوفي عن ابن عباس نحو ذلك، وفي الصحيحين^(٣) عن عائشة رضى الله عنها أن ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج النبي ﷺ عن عمله في السر فقال بعضهم لا أكل اللحم وقال بعضهم لا أتزوج النساء وقال بعضهم لا أنام على فراش. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا، لكنني أصوم وأفطر وأنام وأقوم وأكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وقال ابن أبي حاتم^(٤): حدثنا أحمد بن عصام الأنصارى، حدثنا أبو عاصم الضحاك بن مخلد، عن عثمان يعنى ابن سعيد، أخبرني عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إنى إذا أكلت اللحم انتشرت للنساء، وإنى حرمت على اللحم، فنزلت ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾. وكذا رواه الترمذى وابن جرير^(٥) جميعاً عن عمرو بن على الفلاس عن أبي عاصم النبيل به. وقال، حسن غريب. وقد روى من وجه آخر مرسلأ، وروى موقوفاً على ابن عباس، فالله أعلم. وقال سفيان الثورى ووكيع عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم، عن عبد الله بن مسعود، قال: كنا نغزو مع النبي ﷺ وليس معنا نساء، فقلنا: ألا نستخصي؟ فنهانا رسول الله ﷺ عن ذلك، ورخص لنا أن ننكح المرأة بالشوب إلى أجل، ثم قرأ عبد الله ﷺ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِينَ﴾، أخرجاه^(٦) من حديث إسماعيل، وهذا كان قبل تحريم نكاح المتعة، والله أعلم.

وقال الأعمش، عن إبراهيم، عن همام بن الحارث، عن عمرو بن شرحبيل، قال: جاء معقل بن مقرن إلى عبد الله بن مسعود فقال: إنى حرمت فراشى، فتلا هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُتَعَدِينَ﴾. وقال الشورى، عن منصور، عن أبى الضحى، عن مسروق، قال: كنا عند عبد الله بن مسعود، فجاء بضرع فتنحى رجل، فقال له عبد الله: اذن، فقال: إنى حرمت أن آكله، فقال عبد الله: اذن فاطعم وكفر عن يمينك، وتلا هذه الآية

(١) ابن أبي حاتم (١١٨٧/٤) برقم (٦٦٨٩)، من حديث ابن عباس يرويه عنه علي بن أبي طلحة وهي رواية منقطعة ويشهد لصحته رواية أنس القادمة.

(٢) عزاه الحافظ لابن مردويه من طريق العوفي وقد سبق القول على أنه ضعيف.

(٣) البخارى برقم (٥٠٦٣)، مسلم برقم (١٤٠١)، من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه.

(٤) ضعيف: ابن أبي حاتم (١١٨٦/٤)، وفيه عثمان بن سعد الكاتب، قال الحافظ ضعيف.

(٥) صحيح: الترمذى (٣٠٥٤)، انظر صحيح جامع الترمذى.

(٦) البخارى برقم (٤٦١٥)، مسلم (١٤٠٤)، من حديث ابن مسعود رضى الله عنه.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَيِّبَاتٍ مَّا لَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم، وروى الحاكم هذا الأثر الأخير في مستدركه من طريق إسحاق بن راهويه، عن جرير، عن منصور به، ثم قال: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ثم قال ابن أبي حاتم^(١): حدثنا يونس بن عبد الأعلى، حدثنا ابن وهب، أخبرني هشام بن سعد أن زيد بن أسلم حدثه أن عبد الله بن رواحة ضافه ضيف من أهله، وهو عند النبي ﷺ، ثم رجع إلى أهله فوجدهم لم يطعموا ضيفهم انتظاراً له، فقال لامرأته: حبست ضيفي من أجلى هو عليّ حرام، فقالت امرأته: هو على حرام. وقال الضيف: هو على حرام، فلما رأى ذلك وضع يده وقال: كلوا باسم الله، ثم ذهب إلى النبي ﷺ فذكر الذي كان منهم، ثم أنزل الله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَيِّبَاتٍ مَّا لَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وهذا أثر منقطع.

وفى صحيح البخارى فى قصة الصديق مع أضيفه شبيه بهذا، وفيه وفى هذه القصة دلالة لمن ذهب من العلماء كالشافعى وغيره إلى أن من حرم مأكلاً أو ملبساً أو شيئاً ما عدا النساء أنه لا يحرم عليه، ولا كفارة عليه أيضاً، ولقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَيِّبَاتٍ مَّا لَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ ولأن الذى حرم اللحم على نفسه كما فى الحديث المتقدم لم يأمره النبي ﷺ بكفارة، وذهب آخرون منهم الإمام أحمد بن حنبل إلى أن من حرم مأكلاً أو مشرباً أو ملبساً أو شيئاً من الأشياء، فإنه يجب عليه بذلك كفارة يمين، كما إذا التزم تركه باليمين، فكذلك يؤخذ بمجرد تحريمه على نفسه إلزاماً له بما التزمه، كما أفتى بذلك ابن عباس، وكما فى قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ لِرَءْمِ مَّا لَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَيَّنَتْ رِزْقَاتُ آزْوَجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التحریم: ١]، ثم قال ﴿قَدْ فَضَّ اللَّهُ لَكُمْ ذِمَّةَ آيْمَانِكُمْ﴾ [التحریم: ٢] الآية، وكذلك هاهنا لما ذكر هذا الحكم، عقبه بالآية المبينة لتكفير اليمين، فدل على أن هذا منزل منزلة اليمين فى اقتضاء التكفير، والله أعلم.

وقال ابن جرير^(٢): حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا حجاج عن ابن جريج، عن مجاهد قال: أراد رجال منهم عثمان بن مظعون وعبد الله بن عمرو أن يتبتلوا، ويخصوا أنفسهم، ويلبسوا المسوح، فنزلت هذه الآية إلى قوله ﴿وَأَتَقُوا اللَّهَ الذِّمَّةَ أَنَّهُمْ بِهِ مَوْثُوتٌ﴾. قال ابن جريج، عن عكرمة: أن عثمان بن مظعون وعلي بن أبي طالب وابن مسعود والمقداد بن الأسود وسالم مولى أبى حذيفة فى أصحاب تبتلوا، فجلسوا فى البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرموا طيبات الطعام واللباس، إلا ما يؤكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل، وهموا بالإخفاء، وأجمعوا لقيام الليل، وصيام النهار، فنزلت هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْزَنُوا طَيِّبَاتٍ مَّا لَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَسْتَدْرَأُوا إِنَّا اللَّهُ لَا يَجِبُ الْمُتَعَبِّينَ﴾ يقول لا تسيروا بغير سنة المسلمين، يريد ما حرّموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الإخفاء، فلما نزلت فيهم بعث إليهم رسول الله ﷺ فقال «إن لأنفسكم حقاً، وإن لأعينكم حقاً، صوموا وأفطروا، وصلوا واناموا، فليس منا من ترك سنتنا» فقالوا: اللهم سلمنا واتبعتنا ما أنزلت.

وقد ذكر هذه القصة غير واحد من التابعين مرسله، ولها شاهد فى الصحيحين من رواية عائشة أم

(١) منقطع: ابن أبي حاتم (١١٨٧/٤)، وانقطاهه فيما بين زيد بن أسلم وعبد الله بن رواحة.

(٢) مرسل: الطبري عن مجاهد مرسلًا وكذا رواية عكرمة مرسله أيضًا.

المؤمنين كما تقدم ذلك ، ولله الحمد والمنة .

وقال أسباط عن السدي في قوله ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتَدُوا إِلَيْكُمْ وَلَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ جلس يوماً فذكر الناس ، ثم قام ولم يزد هم على التخويف ، فقال ناس من أصحاب النبي ﷺ ، كانوا عشرة منهم علي بن أبي طالب وعثمان بن مظعون : ما حقنا إن لم نحدث عملاً ، فإن النصارى قد حرموا على أنفسهم فنحن نحرم . فحرم بعضهم أن يأكل اللحم والودك ، وأن يأكل بالنهار ، وحرم بعضهم النوم ، وحرم بعضهم النساء ، فكان عثمان بن مظعون ممن حرم النساء فكان لا يذنو من أهله ولا تدنو منه ، فأنت امرأته عائشة رضی الله عنها وكان يقال لها الحولاء ، فقالت لها عائشة ومن عندها من أزواج النبي ﷺ : ما بالك يا حولاء متغيرة اللون ، لا تمتشطين ولا تطيبين ؟ فقالت : وكيف أمتشط وأنطيب وما وقع علي زوجي ، وما رفع عنى ثوباً منذ كذا وكذا . قال : فجعلمن يضحكن من كلامها ، فدخل رسول الله ﷺ وهن يضحكن ، فقال «ما يضحكن؟» قالت : يا رسول الله إن الحولاء سألتها عن أمرها . فقالت : ما رفع عنى زوجي ثوباً منذ كذا وكذا ، فأرسل إليه فدعاه فقال «ما لك يا عثمان؟» قال : إني تركته لله لكي أتخلى للعبادة ، وقص عليه أمره ، وكان عثمان قد أراد أن يجب نفسه ، فقال رسول الله ﷺ «أقسمت عليك إلا رجعت فواقعت أهلك . فقال : يا رسول الله إني صائم . فقال «أفطر» فأفطر وأتى أهله ، فرجعت الحولاء إلى عائشة وقد امتشطت واكتحلت وتطيبت ، فضحكت عائشة وقالت : ما لك يا حولاء ؟ فقالت : إنه أتاها أمس . وقال رسول الله ﷺ «ما بال أقوام حرموا النساء والطعام والنوم ، إلا إني أنام وأقوم وأفطر وأصوم وأنكح النساء ، فمن رغب عنى فليس مني» فنزلت ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتَدُوا﴾ يقول لعثمان : لا تجب نفسك ، فإن هذا هو الاعتداء ، وأمرهم أن يكفروا عن أيما فهم فقال ﴿لَا يُؤْخَذُكُمْ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤْخَذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ [المائدة: ٨٩] ، رواه ابن جرير .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتَدُوا﴾ يحتمل أن يكون المراد منه ولا تبالغوا في التضييق على أنفسكم بتحريم المباحات عليكم ، كما قاله من قاله من السلف ، ويحتمل أن يكون المراد كما لا تحرموا الحلال فلا تعتدوا في تناول الحلال ، بل خذوا منه بقدر كفايتكم وحاجتكم ولا تجاوزوا الحد فيه ؛ كما قال تعالى : ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ٣١] ، وقال ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتَدُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧] فشرع الله عدل بين الغالي فيه والجافي عنه ، لا إفراط ولا تفريط ، ولهذا قال ﴿لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَقْتَدُوا إِلَيْكُمْ وَلَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ ثم قال ﴿وَكُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ أي في حال كونه حلالاً طيباً ﴿وَأَقْتَدُوا إِلَيْكُمْ﴾ أي في جميع أموركم ، واتبعوا طاعته ورضوانه ، واتركوا مخالفته وعصيانته ﴿وَأَقْتَدُوا إِلَيْكُمْ﴾ مؤمنون .

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْوَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفْرَةٌ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾﴾

وقد تقدم الكلام على اللغو في اليمين في سورة البقرة بما أغنى عن إعادته هاهنا، ولله الحمد والمنة، وأنه قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله وبلى والله. وهذا مذهب الشافعي. وقيل: هو في الهزل. وقيل: في المعصية. وقيل: على غلبة الظن، وهو قول أبي حنيفة وأحمد. وقيل: اليمين في الغضب. وقيل: في النسيان. وقيل: هو الحلف على ترك المأكل والمشرب والملبس ونحو ذلك، واستدلوا بقوله ﴿لَا تُحْزِنُوا وُجُوهَكُمْ مَا أَهَلَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٧] والصحيح أنه اليمين من غير قصد بدليل قوله ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ﴾ أي بما صمتمت عليه من الأيمان وقصدتموها، ﴿فَكَفَرْتُمْ بِهِ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ يعني محاويع من الفقراء ومن لا يجد ما يكفيه.

وقوله ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْوَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبيرة وعكرمة: أي من أعدل ما تطعمون أهليكم. وقال عطاء الخراساني: من أمثل ما تطعمون أهليكم. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج، عن أبي إسحاق السبيعي، عن الحارث، عن علي قل: خبز ولبن، وخبز وسمن. وقال ابن أبي حاتم: أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة، حدثنا سفيان بن عيينة عن سليمان يعني ابن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن عباس قال: كان الرجل يقوت بعض أهله قوت دون، وبعضهم قوتاً فيه سعة، فقال الله تعالى: ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْوَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي من الخبز والزيت. وحدثنا أبو سعيد الأشج، عن وكيع، عن إسرائيل عن جابر، عن عامر، عن ابن عباس ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْوَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: من عسرهم ويسرهم. وحدثنا عبد الرحمن بن خلف الحمصي، حدثنا محمد بن شعيب يعني ابن شابور، وحدثنا شيبان بن عبد الرحمن التميمي عن ليث بن أبي سليم عن عاصم الأحول، عن رجل يقال له عبد الرحمن التميمي، عن ابن عمر رضى الله عنه أنه قال ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْوَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: الخبز واللحم، والخبز والسمن، والخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والخل.

وحدثنا علي بن حرب الموصلي، حدثنا أبو معاوية عن عاصم، عن ابن سيرين، عن ابن عمر في قوله ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْوَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ قال: الخبز والسمن، والخبز واللبن، والخبز والزيت، والخبز والتمر، ومن أفضل ما تطعمون أهليكم الخبز واللحم. ورواه ابن جرير عن هناد وابن وكيع، كلاهما عن أبي معاوية، ثم روى ابن جرير عن عبدة والأسود وشريح القاضي ومحمد بن سيرين والحسن والضحاك وأبي رزين، أنهم قالوا نحو ذلك، وحكاها ابن أبي حاتم عن مكحول أيضاً.

واختار ابن جرير أن المراد بقوله ﴿مِنْ أَوْسَطِ مَا تَطْوَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾ أي في القلة والكثرة، ثم اختلف العلماء في مقدار ما يطعمهم، فقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد، حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج، عن حصين الحارثي، عن الشعبي، عن الحارث، عن علي رضى الله عنه في قوله ﴿مِنْ أَوْسَطِ

مَا تَطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ ﴿١﴾ قال: يغديهم ويعشيهم. وقال الحسن ومحمد بن سيرين: يكفيه أن يطعم عشرة مساكين أكلة واحدة خبزًا ولحمًا، زاد الحسن: فإن لم يجد فخبزًا وسمنًا ولبنًا، فإن لم يجد فخبزًا وزيتًا وخلًا، حتى يشبعوا. وقال آخرون: يطعم كل واحد من العشرة نصف صاع من بر أو تمر ونحوهما، وهذا قول عمر وعلى وعائشة ومجاهد والشعبي وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعي وميمون بن مهران وأبي مالك والضحاك والحكم ومكحول وأبي قلابة ومقاتل بن حيان. وقال أبو حنيفة: نصف صاع بر وصاع مما عداه.

وقد قال أبو بكر بن مردويه (١): حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن الثقفى، حدثنا عبيد بن الحسن بن يوسف، حدثنا محمد بن معاوية، حدثنا زياد بن عبد الله بن الطفيل بن سخبرة بن أخى عائشة لأمه، حدثنا عمر بن يعلى عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كَفَّرَ رسول الله ﷺ بصاع من تمر، وأمر الناس به، ومن لم يجد فنصف صاع من بر. ورواه ابن ماجه (٢) عن العباس بن يزيد، عن زياد بن عبد الله البكائي، عن عمر بن عبد الله بن يعلى الثقفى، عن المنهال بن عمرو به، لا يصح هذا الحديث لحال عمر بن عبد الله هذا، فإنه مجمع على ضعفه، وذكروا أنه كان يشرب الخمر. وقال الدارقطنى: متروك. وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن إدريس عن داود يعنى ابن أبى هند، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنه قال: مدم من بر يعنى لكل مسكين ومعه إدامه، ثم قال: وروى عن ابن عمر وزيد بن ثابت وسعيد بن المسيب ومجاهد وعطاء وعكرمة وأبى الشعثاء والقاسم وسالم وأبى سلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن يسار والحسن ومحمد بن سيرين والزهرى، نحو ذلك.

وقال الشافعى: الواجب فى كفارة اليمين مدم بدم النبي ﷺ لكل مسكين ولم يتعرض للأدم. واحتج بأمر النبي ﷺ للذى جامع فى رمضان بأن يطعم ستين مسكينًا من مكيل يسع خمسة عشر صاعًا، لكل واحد منهم مدم. وقد ورد حديث آخر صريح فى ذلك، فقال أبو بكر بن مردويه (٣): حدثنا أحمد بن على بن الحسن المقرئ، حدثنا محمد بن إسحاق السراج، حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا النضر بن زرارَةَ الكوفى عن عبد الله بن عمر العمرى عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ كان يقيم كفارة اليمين مدمًا من حنطة بالمد الأول، إسناده ضعيف لحال النضر بن زرارَةَ بن عبد الأكرم الدهلى الكوفى نزىل بلخ، قال فيه أبو حاتم الرازى: هو مجهول مع أنه قد روى عنه غير واحد، وذكره ابن حبان فى الثقات. وقال: روى عنه قتيبة بن سعيد أشياء مستقيمة، فالله أعلم، ثم إن شيخه العمرى ضعيف أيضًا. وقال أحمد بن حنبل: الواجب مدم من بر أو مدان من غيره، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كِسْفًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُ﴾ قال الشافعى رحمه الله: لو دفع إلى كل واحد من العشرة ما يصدق عليه اسم الكسوة من قميص أو سراويل أو إزار أو عمامة أو مقنعة، أجزاء ذلك، واختلف أصحابه فى القلنسوة: هل تجزئ أم لا؟ على وجهين، فمنهم من ذهب إلى الجواز احتجاجًا بما رواه ابن أبى

(١) عزاه لابن مردويه، وفيه عمر بن عبد الله بن يعلى: ضعيف، وقال الدارقطنى: متروك.

(٢) ضعيف: ابن ماجه (٢١١٢)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

(٣) ضعيف: فيه عبد الله بن عمر العمرى المكبر: وهو ضعيف، والنضر بن زرارَةَ قال أبو حاتم: مجهول.

حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج وعمار بن خالد الواسطي قالوا : حدثنا القاسم بن مالك عن محمد بن الزبير ، عن أبيه ، قال : سألت عمران بن الحصين عن قوله ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ قال : لو أن وفداً قدموا على أميركم فكساهم قلنسوة قلنسوة ، قلت قد كسوا ، ولكن هذا إسناد ضعيف لحال محمد بن الزبير هذا ، والله أعلم . وهكذا حكى الشيخ أبو حامد الإسفراييني : في الخف وجهين أيضاً ، والصحيح عدم الإجزاء وقال مالك وأحمد بن حنبل : لا بد أن يدفع إلى كل واحد منهم من الكسوة ما يصح أن يصلى فيه ، إن كان رجلاً أو امرأة كل بحسبه ، والله أعلم .

وقال العوفي عن ابن عباس : عباءة لكل مسكين أو شملة ، وقال مجاهد : أدناه ثوب وأعلاه ما شئت . وقال ليث عن مجاهد : يجرى في كفارة اليمين كل شيء إلا الثبان . وقال الحسن وأبو جعفر الباقر وعطاء وطاوس وإبراهيم النخعي وحماد بن أبي سليمان وأبو مالك : ثوب ثوب . وعن إبراهيم النخعي أيضاً : ثوب جامع كالملحفة والرداء ، ولا يرى الدرع والقميص والخمار ونحوه جامعاً ، وقال الأنصاري عن أشعث عن ابن سيرين والحسن : ثوبان ثوبان . وقال الثوري عن داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب : عمامة يلف بها رأسه ، وعباءة يلتحف بها .

وقال ابن جرير : حدثنا هناد ، حدثنا ابن المبارك عن عاصم الأحول ، عن ابن سيرين ، عن أبي موسى أنه حلف على يمين ، فكسا ثوبين من معقدة البحرين . وقال ابن مردويه ^(١) : حدثنا سليمان بن أحمد ، حدثنا أحمد بن المعلى ، حدثنا هشام بن عمار ، حدثنا إسماعيل بن عياش ، عن مقاتل بن سليمان ، عن أبي عثمان ، عن أبي عياض ، عن عائشة ، عن رسول الله ﷺ في قوله ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ قال «عباءة لكل مسكين» ، حديث غريب .

وقوله ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ أخذ أبو حنيفة بإطلاقها فقال : تجزئ الكافرة كما تجزئ المؤمنة . وقال الشافعي وآخرون : لا بد أن تكون مؤمنة . وأخذ تقيدها بالإيمان من كفارة القتل لاتحاد الموجب وإن اختلف السبب . ولحديث معاوية بن الحكم السلمي الذي هو في موطأ مالك ومسند الشافعي وصحيح مسلم ^(٢) أنه ذكر أن عليه عتق رقبة ، وجاء معه بجارية سوداء فقال لها رسول الله ﷺ «أين الله؟» . قالت : في السماء . قال «من أنا؟» قالت : أنت رسول الله . قال «أعتقها فإنها مؤمنة» الحديث بطوله . فهذه خصال ثلاث في كفارة اليمين ، أيها فعل الحانت أجزاء عنه بالإجماع ، وقد بدأ بالأسهل فالأسهل ، فالإطعام أسهل وأيسر من الكسوة ، كما أن الكسوة أيسر من العتق ، فرقى فيها من الأدنى إلى الأعلى ، فإن لم يقدر المكلف على واحدة من هذه الخصال الثلاث كفر بصيام ثلاثة أيام ، كما قال تعالى : ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ﴾ .

وروى ابن جرير عن سعيد بن جبيرة والحسن البصري ، أنهما قالوا : من وجد ثلاثة دراهم لزمه الإطعام وإلا صام ، وقال ابن جرير حاكياً عن بعض متأخري متفقهة زمانه أنه قال : جائز لمن لم يكن له فضل عن رأس مال يتصرف به لمعاشه ، ومن الفضل عن ذلك ما يكفر به عن يمينه ، ثم اختار ابن جرير أنه الذي لا يفضل عن قوته وقوت عياله في يومه ذلك ما يخرج به كفارة اليمين ، واختلف العلماء : هل

(١) موضوع : فيه مقاتل بن سلمان قال الحافظ : كذبوه وهمزوه ورمي بالتجسيم .

(٢) مسلم (٥٣٧) من حديث معاوية بن الحكم السلمي .

يجب فيها التتابع أو يستحب ولا يجب، ويجزئ التفريق؟ على قولين: أحدهما: أنه لا يجب وهذا منصوص الشافعي في كتاب الأيمان، وهو قول مالك لإطلاق قوله ﴿فَصِيَامٌ تَلَدَتْهُ أَيَّامٌ﴾ وهو صادق على المجموعة والمفرقة، كما في قضاء رمضان لقوله ﴿فَمِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٤] ونص الشافعي في موضع آخر في الأم على وجوب التتابع، كما هو قول الحنفية والحنابلة، لأنه قد روى عن أبي بن كعب وغيره أنهم كانوا يقرءونها «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». قال أبو جعفر الرازي، عن الربيع، عن أبي العالية عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤها «فصيام ثلاثة أيام متتابعات» وحكاها مجاهد والشعبي وأبو إسحاق عن عبد الله بن مسعود، وقال إبراهيم في قراءة أصحاب عبد الله بن مسعود «فصيام ثلاثة أيام متتابعات». وقال الأعمش كان أصحاب ابن مسعود يقرءونها كذلك، وهذه إذا لم يثبت كونها قرآناً متواتراً، فلا أقل من أن يكون خبراً واحداً أو تفسيراً من الصحابة وهو في حكم المرفوع. وقال أبو بكر بن مردويه^(١): حدثنا محمد بن علي، حدثنا محمد بن جعفر الأشعري، حدثنا الهيثم بن خالد القرشي، حدثنا يزيد بن قيس عن إسماعيل بن يحيى، عن ابن جريج، عن ابن عباس قال: لما نزلت آية الكفارات قال حذيفة: يا رسول الله نحن بالخيار؟ قال «أنت بالخيار إن شئت أعتقت، وإن شئت كسوت، وإن شئت أطعمت، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات» وهذا حديث غريب جداً. وقوله ﴿ذَلِكَ كَثْرَةُ آيَاتِنَا لَكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ أي هذه كفارة اليمين الشرعية ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾. قال ابن جرير: معناه لا تتركوها بغير تكفير ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ أي يوضحها وينسرها ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَنُورُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَنُورِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿١٠١﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَّغُ الْمُبِينُ ﴿١٠٢﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَءَامَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٣﴾

يقول تعالى: ناهياً عباده المؤمنين عن تعاطي الخمر والميسر وهو القمار، وقد ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الشطرنج من الميسر، رواه ابن أبي حاتم عن أبيه، عن عبيس بن مرحوم، عن حاتم، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن علي بنه. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي، حدثنا وكيع عن سفيان، عن ليث، عن عطاء ومجاهد وطاوس قال: سفيان أو اثنين منهم قالوا: كل شيء من القمار فهو من الميسر حتى لعب الصبيان بالجوز. وروى عن راشد بن سعد وحمزة بن حبيب مثله، وقال: حتى الكعاب والجوز والبيض التي تلعب بها الصبيان. وقال موسى بن عقبة، عن نافع، عن ابن عمر، قال: الميسر هو القمار. وقال الضحاك، عن ابن عباس، قال: الميسر هو القمار، كانوا يتقمارون في الجاهلية إلى مجيء الإسلام، فنهاهم الله عن هذه الأخلاق القبيحة. وقال مالك، عن داود بن الحصين أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: كان

(١) ضعيف: ابن جريج عن ابن عباس منقطع، قال ابن كثير هذا حديث غريب جداً.

ميسر أهل الجاهلية يبيع اللحم بالشاة والشاتين .

وقال الزهري، عن الأعرج، قال: الميسر الضرب بالقداح على الأموال والثمار. وقال القاسم بن محمد: كل ما ألهى عن ذكر الله وعن الصلاة فهو من الميسر، رواه ابن أبي حاتم، وقال ابن أبي حاتم^(١): حدثنا أحمد بن منصور الرمادي، حدثنا هشام بن عمار، حدثنا صدقة، حدثنا عثمان بن أبي العاتكة عن علي بن يزيد، عن القاسم عن أبي أمامة، عن أبي موسى الأشعري، عن النبي ﷺ قال «اجتنبوا هذه الكعاب الموسومة التي يزجر بها زجراً، فإنها من الميسر» حديث غريب، وكان المراد بهذا هو النرد الذي ورد الحديث به في صحيح مسلم^(٢) عن يريدة بن الحصيب الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ «من لعب بالنردشير، فكأنما صبغ يده في لحم خنزير ودمه» وفي موطأ مالك ومسنده أحمد وسنني أبي داود وابن ماجه^(٣)، عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله» وروى موقفاً على أبي موسى من قوله، فإله أعلم.

وقال الإمام أحمد^(٤): حدثنا مكّي بن إبراهيم، حدثنا الجعيد عن موسى بن عبد الرحمن الخطمي أنه سمع محمد بن كعب وهو يسأل عبد الرحمن يقول: أخبرني ما سمعت أباك يقول عن رسول الله ﷺ، فقال عبد الرحمن: سمعت أبي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول «مثل الذي يلعب بالنرد ثم يقوم فيصلى، مثل الذي يتوضأ بالقيح ودم الخنزير ثم يقوم فيصلى» وأما الشطرنج فقد قال عبد الله بن عمر: إنه شر من النرد. وتقدم عن علي أنه قال: هو من الميسر، ونص على تحريمه مالك وأبو حنيفة وأحمد، وكرهه الشافعي، رحمهم الله تعالى، وأما الأنصاب، فقال ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير والحسن وغير واحد: هي حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها، وأما الأزلام فقالوا أيضاً: هي قداح كانوا يستقسمون بها، رواه ابن أبي حاتم.

وقوله تعالى: ﴿وَيْحَسِبَنَّ مِنَ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أي سخط من عمل الشيطان. وقال سعيد بن جبير: إثم. وقال زيد بن أسلم: أي شر من عمل الشيطان ﴿فَاجْتَنِبُوهُ﴾ الضمير عائذ إلى الرجس، أي اتركوه ﴿أَلَمْ تَكُمُ تَقْلِبُونَ﴾ وهذا ترغيب، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَاصْطَدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وهذا تهديد وترهيب.

ذكر الأحاديث الواردة في بيان تحريم الخمر: قال الإمام أحمد^(٥): حدثنا سريج، حدثنا أبو معشر عن أبي وهب مولى أبي هريرة، عن أبي هريرة قال: حرمت الخمر ثلاث مرات، قدم رسول الله ﷺ المدينة وهم يشربون الخمر ويأكلون الميسر، فسألوا رسول الله ﷺ عنهما، فأنزل الله ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ

(١) حسن لغيره: ابن أبي حاتم (١١٩٦/١٤)، وفيه هشام بن عمار: صدوق يخطئ وعلي بن يزيد ضعيف وله شاهد سيأتي.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) حسن: مالك (١٧٨٦)، أحمد (١٩٠٧)، أبو داود (٤٩٣٨)، ابن ماجه (٣٧٦٢)، انظر صحيح الجامع (٦٥٢٩).

(٤) المسند (٢٢٦٢٨)، فيه موسى بن عبد الرحمن الخطمي: مجهول.

(٥) المسند (٨٤٠٦)، وفيه أبو معشر: ضعيف، وأبو وهب: قليل الحديث.

الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفِعٌ لِلنَّاسِ ﴿البقرة: ٢١٩﴾ إلى آخر الآية . فقال الناس : ما حرما علينا إنما قال ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ ، وكانوا يشربون الخمر حتى كان يوم من الأيام ، صلى رجل من المهاجرين ، أم أصحابه في المغرب ، فخلط في قراءته ، فأنزل الله آية أغلظ منها ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣] فكان الناس يشربون حتى يأتي أحدهم الصلاة وهو مفق ، ثم أنزلت آية أغلظ من ذلك ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْهَامُ يَجُوسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ قالوا : انتهينا ربنا . وقال الناس : يا رسول الله ، ناس قتلوا في سبيل الله ، وماتوا على سرفهم ، كانوا يشربون الخمر ويأكلون الميسر ، وقد جعله الله رجسا من عمل الشيطان ، فأنزل الله تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعُمُوا﴾ إلى آخر الآية ، وقال النبي ﷺ «لو حرم عليهم لتركوه كما تركتم» انفرده به أحمد .

وقال الإمام أحمد ^(١) : حدثنا خلف بن الوليد ، حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق ، عن أبي مسيرة ، عن عمر بن الخطاب أنه قال لما نزل تحريم الخمر ، قال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت هذه الآية التي في البقرة ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩] فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التي في سورة النساء ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾ [النساء: ٤٣] فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة ، نادى : أن لا يقربن الصلاة سكران . فدعى عمر فقرئت عليه ، فقال : اللهم بين لنا في الخمر بيانا شافيا ، فنزلت الآية التي في المائدة ، فدعى عمر فقرئت عليه ، فلما بلغ قول الله تعالى : ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُّنتَهُونَ﴾ قال عمر : انتهينا انتهينا . وهكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي ^(٢) من طرق ، عن إسرائيل ، عن أبي إسحاق عمر بن عبد الله السبيعي ، عن أبي مسيرة واسمه عمرو بن شرحبيل الهمداني ، عن عمر به ، وليس له عنه سواه ، قال أبو زرعة : ولم يسمع منه . وصحح هذا الحديث على بن المدينة والترمذي . وقد ثبت في الصحيحين ^(٣) عن عمر بن الخطاب أنه قال في خطبته على منبر رسول الله ﷺ : أيها الناس ، إنه نزل تحريم الخمر وهي من خمسة : من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير ، والخمر ما خامر العقل . وقال البخاري : حدثنا إسحاق بن إبراهيم ، حدثنا محمد بن بشر ، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز ، حدثني نافع عن ابن عمر قال : نزل تحريم الخمر وإن بالمدينة يومئذ لخمسة أشربة ما فيها شراب العنب .

(حديث آخر) : قال أبو داود الطيالسي ^(٤) : حدثنا محمد بن أبي حميد ، عن المصري يعني أبا طعمة قارئ مصر ، قال : سمعت ابن عمر يقول : نزلت في الخمر ثلاث آيات ، فأول شيء نزل ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ﴾ [البقرة: ٢١٩] الآية ، فقيل : حرمت الخمر ، فقالوا : يا رسول الله ، دعنا ننتفع بها كما قال الله تعالى ، قال : فسكت عنهم ، ثم نزلت هذه الآية ﴿لَا تَقْرَأُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَىٰ﴾

(١) سبق تخريجه .

(٢) صحيح : أبو داود (٣٦٧٠) ، الترمذي (٣٠٤٩) ، النسائي (٥٥٤٠) ، انظر صحيح سنن أبي داود .

(٣) البخاري برقم (٤٦١٩) ، مسلم برقم (٣٠٣٢) .

(٤) حسن لغيره : الطيالسي (٢٦٤/١) برقم (١٩٥٧) ، وفيه محمد بن أبي حميد . وهو ضعيف .

شَكَرَى ﴿النساء: ٤٣﴾ فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: يا رسول الله إنا لا نشربها قرب الصلاة، فسكت عنهم، ثم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْأَصْبُ وَالْأَذْنُ وَالْأَنْثَىٰ وَالشَّيْطَانُ قَاتِلُكُمْ لَكُمْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ الآيتين، فقال رسول الله ﷺ «حرمت الخمر».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يعلى، حدثنا محمد بن إسحاق عن القعقاع بن حكيم أن عبد الرحمن بن وعلة قال: سألت ابن عباس عن بيع الخمر، فقال: كان لرسول الله ﷺ صديق من ثقيف، أو من دوس، فلقبه يوم الفتح براوية خمر يهديها إليه، فقال رسول الله ﷺ «يا فلان أما علمت أن الله حرمها؟» فأقبل الرجل على غلامه فقال: اذهب فبعها، فقال رسول الله ﷺ «يا فلان بماذا أمرته؟» فقال: أمرته أن يبيعها. قال «إن الذي حرم شربها حرم بيعها» فأمر بها فأفرغت في البطحاء، رواه مسلم^(٢) من طريق ابن وهب، عن مالك، عن زيد بن أسلم، ومن طريق ابن وهب أيضًا عن سليمان بن بلال، عن يحيى بن سعيد، كلاهما عن عبد الرحمن بن وعلة، عن ابن عباس به، ورواه النسائي^(٣) عن قتيبة عن مالك به.

(حديث آخر): قال الحافظ أبو يعلى الموصلي^(٤): حدثنا محمد بن أبي بكر المقدمي، حدثنا أبو بكر البحنفي، حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن شهر بن حوشب، عن تميم الداري أنه كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما أنزل الله تحريم الخمر جاء بها، فلما رآها رسول الله ﷺ ضحك وقال «إنها قد حرمت بعدك» قال: يا رسول الله فأبيعها وأنتع بئمنها. فقال رسول الله ﷺ «لعن الله اليهود، حرمت عليهم شحوم البقر والغنم، فأذابوه وباعوه، والله حرم الخمر وئمنها» وقد رواه أيضًا الإمام أحمد^(٥) فقال: حدثنا روح، حدثنا عبد الحميد بن بهرام قال: سمعت شهر بن حوشب قال: حدثني عبد الرحمن بن غنم أن الداري كان يهدي لرسول الله ﷺ كل عام راوية من خمر، فلما كان عام حرمت، جاء براوية، فلما نظر إليه ضحك، فقال «أشعرت أنها قد حرمت بعدك» فقال: يا رسول الله، ألا أبيعها وأنتع بئمنها؟ فقال رسول الله ﷺ «لعن الله اليهود انطلقوا إلى ما حرم عليهم من شحم البقر والغنم، فأذابوه، فباعوا به ما يأكلون، وإن الخمر حرام وئمنها حرام، وإن الخمر حرام وئمنها حرام، وإن الخمر حرام وئمنها حرام».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٦): حدثنا قتيبة بن سعيد، حدثنا ابن لهيعة عن سليمان بن عبد الرحمن، عن نافع بن كيسان أن أباه أخبره أنه كان يتجر في الخمر في زمن رسول الله ﷺ وأنه أقبل من الشام ومعه خمر في الزقاق يريد بها التجارة، فأتى بها رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني جئتك بشراب طيب، فقال رسول الله ﷺ «يا كيسان إنها قد حرمت بعدك» قال: فأبيعها يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ «إنها قد حرمت وحرم ثمنها»، فانطلق كيسان إلى الزقاق فأخذ بأرجلها ثم هراقها.

(١) المسند (٢٠٤٢)، وفيه يعلى بن عبيد: صدوق.

(٢) مسلم برقم (١٥٧٩).

(٣) صحيح: النسائي (٤٦٦٤)، انظر صحيح سنن النسائي.

(٤) فيه شهر بن حوشب: تركه شعبة ووثقه غيره.

(٥) المسند (١٧٥٣٤)، وفيه شهر بن حوشب، انظر الحديث السابق.

(٦) المسند (١٨٤٨١)، وفيه ابن لهيعة: اختلط، لكن يشهد لأصله ما تقدم.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(١): حدثنا يحيى بن سعيد عن حميد، عن أنس قال: كنت أسقى أبا عبيدة بن الجراح وأبى بن كعب وسهيل بن بيضاء ونفرًا من أصحابه عند أبى طلحة وأنا أسقيهم حتى كاد الشراب يأخذ منهم، فأتى آت من المسلمين فقال: أما شعرتم أن الخمر قد حرمت؟ فما قالوا: حتى ننظر ونسأل، فقالوا: يا أنس اكف ما بقى فى إناثك فوالله ما عادوا فيها، وما هى إلا التمر والبسر، وهى خمرهم يومئذ، أخرجاه فى الصحيحين^(٢) من غير وجه عن أنس، وفى رواية حماد بن زيد عن ثابت عن أنس قال: كنت ساقى القوم يوم حرمت الخمر فى بيت أبى طلحة، وما شرابهم إلا الفضيخ البسر والتمر، فإذا مناد ينادى قال: اخرج فانظر، فإذا مناد ينادى: ألا إن الخمر قد حرمت، فجرت فى سكك المدينة، قال: فقال لى أبو طلحة: اخرج فأهرقها، فهرقتها فقالوا أو قال بعضهم: قتل فلان وفلان وهى فى بطونهم، قال: فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمَعُوا﴾ الآية.

وقال ابن جرير^(٣): حدثنا محمد بن بشار، حدثنى عبد الكبير بن عبد المجيد، حدثنا عباد بن راشد عن قتادة، عن أنس بن مالك قال: بينما أنا أدير الكأس على أبى طلحة وأبى عبيدة بن الجراح وأبى دجانه ومعاذ بن جبل وسهيل بن بيضاء حتى مالت رؤوسهم من خلوط بسر وتمر، فسمعت متادياً ينادى: ألا إن الخمر قد حرمت. قال: فما دخل علينا داخل ولا خرج منا خارج حتى أهرقنا الشراب، وكسرنا القلال، وتوضأ بعضنا، واغتسل بعضنا، وأصبنا من طيب أم سليم، ثم خرجنا إلى المسجد فإذا رسول الله ﷺ يقرأ ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّا لَنَنصِرُ وَالْبَاطِلَ وَأَلْذُنُومٌ يَجْتَبِئُونَ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فقال رجل: يا رسول الله، فما منزلة من مات وهو يشربها؟ فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمَعُوا﴾ الآية، فقال رجل لقتادة: أنت سمعته من أنس بن مالك قال: نعم. قال رجل لأنس بن مالك: أنت سمعته من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم، أو حدثنى من لم يكذب، ما كنا نكذب، ولا ندرى ما الكذب.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٤): حدثنا يحيى بن إسحاق أخبرنى يحيى بن أيوب عن عبيد الله بن زحر، عن بكر بن سودة، عن قيس بن سعد بن عبادة أن رسول الله ﷺ قال «إن ربى تبارك وتعالى، حرم على الخمر والكوبة والقنين، وإياكم والغيراء فإنها ثلث خمر العالم».

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٥): حدثنا يزيد، حدثنا فرج بن فضالة عن إبراهيم بن عبد الرحمن بن رافع، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ «إن الله حرم على أسنن الخمر والميسر والمزر والكوبة والقنين، وزادنى صلاة الوتر» قال يزيد: القنين البرابط. تفرد به أحمد، وقال أحمد أيضاً: حدثنا أبو عاصم وهو النبيل، أخبرنا عبد الحميد بن جعفر، حدثنا يزيد بن أبى حبيب عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «من قال على ما لم أقل

(١) المسند (١٢٤٥٨)، ورجاله ثقات.

(٢) البخاري برقم (٢٤٦٤)، مسلم برقم (١٩٨٠).

(٣) حسن: وأصله فى الصحيحين مختصراً كما تقدم.

(٤) المسند (١٥٠٥٥)، فيه عبيد الله بن زحر: صدوق يخطئ، وقيل: ضعيف.

(٥) صحيح: المسند (٦٥١١)، انظر صحيح الجامع (١٧٤٧).

فليتبوا مقعده من جهنم قال: وسمعت رسول الله ﷺ يقول «إن الله حرم الخمر والميسر والكوبة والغبراء، وكل مسكر حرام» تفرد به أحمد أيضًا.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(١): حدثنا وكيع، حدثنا عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، عن أبي طعمة مولاهم، عن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أنهما سمعا ابن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ «لعت الخمر على عشرة وجه: لعنت الخمر بعينها، وشاربها، وساقبها، وبائعها، ومبتاعها، وعاصرها، ومعتصرها، وحاملها، والمحمولة إليه، وأكل ثمنها»، ورواه أبو داود وابن ماجه^(٢) من حديث وكيع به، وقال أحمد^(٣): حدثنا حسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو طعمة، سمعت ابن عمر يقول: خرج رسول الله ﷺ إلى المرید فخرجت معه، فكنت عن يمينه، وأقبل أبو بكر فتأخرت عنه، فكان عن يمينه وكنت عن يساره، ثم أقبل عمر فتنحيت له فكان عن يساره، فأتى رسول الله ﷺ المرید فإذا بزقاق على المرید فيها خمر، قال ابن عمر: فدعاني رسول الله ﷺ بالمدينة، قال ابن عمر: وما عرفت المدينة إلا يومئذ، فأمر بالزقاق فشق، ثم قال «لعت الخمر وشاربها، وساقبها، وبائعها، ومبتاعها، وحاملها، والمحمولة إليه، وعاصرها ومعتصرها، وأكل ثمنها». وقال أحمد^(٤): حدثنا الحكم بن نافع، حدثنا أبو بكر بن أبي مريم عن ضمرة بن حبيب قال: قال عبد الله بن عمر: أمرني رسول الله ﷺ أن آتبه بمدينة وهي الشفرة، فأتيتها بها، فأرسل بها، فأرهفت ثم أعطانيها، وقال: «اغد عليّ بها» ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة، وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام، فأخذ المدينة منى فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها، وأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يمضوا معي وأن يعاونوني، وأمرني أن آتى الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته، ففعلت فلم أترك في أسواقها زقا إلا شققته.

(حديث آخر): قال عبد الله بن وهب: أخبرني عبد الرحمن بن شريح وابن لهيعة والليث بن سعد، عن خالد بن زيد، عن ثابت بن يزيد الخولاني أخبره أنه كان له عم يبيع الخمر، وكان يتصدق، فنهيته عنها فلم يمتنع، فقدمت المدينة فلقيت ابن عباس فسألته عن الخمر وثمرها، فقال: هي حرام، وثمرها حرام، ثم قال: يا معشر أمة محمد، إنه لو كان كتاب بعد كتابكم، ونبي بعد نبيكم، لأنزل فيكم كما أنزل فيمن قبلكم، ولكن آخر ذلك من أمركم إلى يوم القيامة ولعمري لهو أشد عليكم، قال ثابت: فلقيت عبد الله بن عمر فسألته عن ثمن الخمر فقال: سأخبرك عن الخمر، إنى كنت عند رسول الله ﷺ في المسجد فينما هو محتب حلّ حبوته، ثم قال «من كان عنده من هذه الخمر شيء فليأتنا بها» فجعلوا يأتونه فيقول أحدهم: عندي راوية، ويقول الآخر: عندي زق، أو ما شاء الله أن يكون عنده، فقال رسول الله ﷺ «اجمعوا ببيع كذا وكذا، ثم آذنوني» ففعلوا، ثم آذنه، فقام وقمت معه فمشيت عن يمينه وهو متكئ على، فلحقنا أبو بكر رضى الله عنه، فأخبرني رسول الله ﷺ،

(١) المسند (٤٧٧٢)، وفيه عبد الرحمن الغافقي: جهله ابن معين.

(٢) صحيح: أبو داود (٣٦٧٤)، ابن ماجه (٣٣٨٠)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٣) المسند (٥٣٦٧)، وفيه ابن لهيعة: اختلط.

(٤) المسند (٦١٣٠)، وفيه ابن أبي مريم: ضعيف.

فجعلنى عن شماله وجعل أبا بكر مكانى، ثم لحقنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فأخبرنى وجعله عن يساره، فمشى بينهما حتى إذا وقف على الخمر قال للناس: «أتعرفون هذه؟» قالوا: نعم يا رسول الله، هذه الخمر، قال «صدقتم»، قال «فإن الله لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيتها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها ومشتريها، وأكل ثمنها» ثم دعا بسكين فقال «اشحذوها» ففعلوا، ثم أخذها رسول الله ﷺ يخرق بها الزقاق، قال: فقال الناس: فى هذه الزقاق منفعة، فقال «أجل ولكنى إنما أفعل ذلك غضباً لله عز وجل لما فيها من سخطه» فقال عمر: أنا أكفيك يا رسول الله، قال «لا». قال ابن وهب: وبعضهم يزيد على بعض فى قصة الحديث، رواه البيهقي (١).

(حديث آخر): قال الحافظ أبو بكر البيهقي (٢): «أبنا أبو الحسين بن بشران، أبنا إسماعيل بن محمد الصفار، حدثنا محمد بن عبيد الله المنادى، حدثنا وهب بن جرير، حدثنا شعبة عن سماك، عن مصعب بن سعد. عن سعد قال: أنزلت فى الخمر أربع آيات، فذكر الحديث قال: وضع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا، فشربنا الخمر قبل أن تحرم حتى انتشيننا فتفاخرنا، فقالت الأنصار: نحن أفضل، وقالت قريش: نحن أفضل، فأخذ رجل من الأنصار لحي جزور، فضرب به أنف سعد ففزره، وكانت أنف سعد مفزوراً، فنزلت آية الخمر ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُمُ الْخَمْرَ وَاللَّبَّاءَ وَاللَّذَائِبَ وَالْأَصْهَابَ وَالْأَزْوَاجَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ أخرجه مسلم (٣) من حديث شعبة.

(حديث آخر): قال البيهقي: وأخبرنا أبو نصر بن قتادة، أبنا أبو على الرفاء، حدثنا على بن عبد العزيز، حدثنا حجاج بن منهال، حدثنا ربيعة بن كلثوم، حدثنى أبى عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: قال: إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار، شربوا فلما أن ثمل القوم، عبث بعضهم ببعض، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته، فيقول صنع بى هذا أذى فلان، وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن، فيقول: والله لو كان بى رءوفاً رحيماً ما صنع بى هذا، حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم، فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا اتَّخَذْتُمُ الْخَمْرَ وَاللَّبَّاءَ وَاللَّذَائِبَ رِجْسًا مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فقال ناس من المتكلفين: هى رجس وهى فى بطن فلان، وقد قتل يوم أحد. فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ورواه النسائي فى التفسير عن محمد بن عبد الرحيم صاعقة، عن حجاج بن منهال.

(حديث آخر): قال ابن جرير: حدثنى محمد بن خلف، حدثنا سعيد بن محمد الحر مى عن أبى تميلة، عن سلام مولى حفص أبى القاسم، عن ابن بريدة، عن أبىه قال: بينا نحن قعود على شراب لنا، ونحن على رملة، ونحن ثلاثة أو أربعة، وعندنا باطية لنا ونحن نشرب الخمر حلاً، إذ قمت حتى أتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه، إذ نزل تحريم الخمر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا اتَّخَذْتُمُ الْخَمْرَ وَاللَّبَّاءَ وَاللَّذَائِبَ﴾ إلى آخر الآيتين، ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ فجئت إلى أصحابى فقرأتها عليهم إلى قوله ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ قال: وبعض

(١) البيهقي (٢٨٧/٨)، ورجاله ثقات عدا خالد بن يزيد: مجهول.

(٢) صحيح: البيهقي (٢٨٥/٨).

(٣) مسلم برقم (١٧٤٨).

القوم شربته في يده قد شرب بعضها وبقي بعض في الإناء فقال: بالإناء تحت شفته العليا كما يفعل الحجام، ثم صبوا ما في باطيتهم، فقالوا: انتهينا ربنا.

(حديث آخر): قال البخارى^(١): حدثنا صدقة بن الفضل، أخبرنا ابن عيينة عن عمرو، عن جابر قال: صبح أناس غداة أحد الخمر، فقتلوا من يومهم جميعاً شهداء، وذلك قبل تحريمها، هكذا رواه البخارى في تفسيره من صحيحه. وقد رواه الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا أحمد بن عبدة، حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار، سمع جابر بن عبد الله يقول: اصطحب ناس الخمر من أصحاب النبي ﷺ، ثم قتلوا شهداء يوم أحد فقالت اليهود: فقد مات بعض الذين قتلوا وهى فى بطونهم، فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمَعُوا﴾ ثم قال: وهذا إسناد صحيح، وهو كما قال، ولكن فى سياقه غرابة.

(حديث آخر): قال أبو داود الطيالسى: حدثنا شعبة عن أبى إسحاق، عن البراء بن عازب قال: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف بمن كان يشربها قبل أن تحرم؟ فنزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمَعُوا﴾ الآية، ورواه الترمذى عن غندر عن شعبة به نحوه، وقال: حسن صحيح.

(حديث آخر): قال الحافظ أبو يعلى الموصلى^(٢): حدثنا جعفر بن حميد الكوفى، حدثنا يعقوب القمى عن عيسى بن جارية، عن جابر بن عبد الله قال: كان رجل يحمل الخمر من خيبر إلى المدينة فيبيها من المسلمين، فحمل منها بمال فقدم بها المدينة فلقية رجل من المسلمين فقال يا فلان، إن الخمر قد حرمت فوضعها حيث انتهى على تل، وسجى عليها بأكسية، ثم أتى النبي ﷺ فقال يا رسول الله، بلغنى أن الخمر قد حرمت؟ قال «أجل» قال: ألي أن أردّها على من ابتعتها منه؟ قال: «لا يصلح ردها». قال: لى أن أهدىها إلى من يكافئنى منها؟ قال «لا». قال: فإن فيها مالاً ليتامى فى حجرى، قال «إذا أتانا مال البحرين فأتنا نعوض أيتامك من مالهم» ثم نادى بالمدينة، فقال رجل: يا رسول الله، الأوعية نتفع بها؟ قال «فحلوا أوكيتها» فانصبت حتى استقرت فى بطن الوادى، هذا حديث غريب.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٣): حدثنا وكيع، حدثنا سفيان عن السدى، عن أبى هبيرة وهو يحيى بن عباد الأنصارى، عن أنس بن مالك أن أبا طلحة سأل رسول الله ﷺ عن أيتام فى حجره ورثوا خمرًا فقال «أهرقها». قال: أفلا نجعلها خلًا؟ قال «لا». ورواه مسلم وأبو داود والترمذى^(٤) من حديث الثورى به نحوه.

(حديث آخر): قال ابن أبى حاتم^(٥): حدثنا أبى، حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا عبد العزيز بن أبى سلمة حدثنا هلال بن أبى هلال عن عطاء بن يسار عن عبد الله بن عمرو قال: إن هذه الآية التى

(١) البخارى برقم (٤٦١٨).

(٢) ضعيف: أبو يعلى (٤٠٤/٣) برقم (١٨٨٤)، وفيه عيسى بن جارية قال الحافظ: فيه لين.

(٣) المسند (١١٧٧٩)، وفيه السرى: ضعفه ابن معين ووثقه غيره.

(٤) مسلم برقم (١٩٨٣)، أبو داود (٣٦٧٥)، الترمذى (١٢٩٤).

(٥) صحيح موقوف: على عبد الله بن عمرو، وهو مما لا يقال بالرأى إلا أنه ممن قرءوا فى كتب بني إسرائيل وعليه فلا تعتمد أقوالهم.

فِي الْقُرْآنِ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ وَالْغُرُوبَ وَالْأَصْنَافَ وَالْأَذْنَافَ وَجَسَّ مِنَ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُتَّقُونَ﴾ قال: هي في التوراة إن الله أنزل الحق ليذهب به الباطل، ويبطل به اللعب والمزامير، والزفن والكنارات، يعني البرابيط والزمارات، يعني به الدف والطنابير والشعر والخمر مرة لمن طعمها، أقسم الله بيمينه وعزة حيله من شربها بعد ما حرمتها لأعطشناه يوم القيامة، ومن تركها بعد ما حرمتها لأسقينه إياها في حظيرة القدس، وهذا إسناد صحيح.

(حديث آخر): قال عبد الله بن وهب: أخبرني عمرو بن الحارث أن عمرو بن شعيب حدثهم عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن رسول الله ﷺ قال «من ترك الصلاة سكرًا مرة واحدة فكأنما كانت له الدنيا وما عليها فسلبها، ومن ترك الصلاة سكرًا أربع مرات، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال» قيل: وما طينة الخبال؟ قال «عصارة أهل جهنم» ورواه أحمد^(١) من طريق عمرو بن شعيب.

(حديث آخر): قال أبو داود^(٢): حدثنا محمد بن رافع، حدثنا إبراهيم بن عمر الصنعاني قال: سمعت النعمان هو ابن أبي شيبة الجندی يقول عن طاوس، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال «كل مخمر خمر، وكل مسكر حرام ومن شرب مسكرًا بخست صلاته أربعين صباحًا، فإن تاب تاب الله عليه، فإن عاد الرابعة كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال» قيل: وما طينة الخبال يا رسول الله؟ قال «صديد أهل النار، ومن سقاه صغيرًا لا يعرف حلاله من حرامه، كان حقًا على الله أن يسقيه من طينة الخبال» تفرد به أبو داود.

(حديث آخر): قال الشافعي رحمه الله: أنبأنا مالك عن نافع، عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال «من شرب الخمر في الدنيا ثم لم يتب منها حرما في الآخرة» أخرجه البخاري ومسلم^(٣) من حديث مالك به. وروى مسلم^(٤) عن أبي الربيع، عن حماد بن زيد، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «كل مسكر خمر، وكل مسكر حرام، ومن شرب الخمر فمات وهو يدمنها ولم يتب منها، لم يشربها في الآخرة».

(حديث آخر): قال ابن وهب: أخبرني عمر بن محمد عن عبد الله بن يسار أنه سمع سالم بن عبد الله يقول: قال عبد الله بن عمر: قال رسول الله ﷺ «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، والمدمن الخمر، والمنان بما أعطى»^(٥). ورواه النسائي^(٦) عن عمرو بن علي، عن يزيد بن زريع، عن عمر بن محمد العمري به. وروى أحمد^(٧) عن غندر، عن شعبة، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة منان ولا عاق ولا مدمن

(١) صحيح: المسند (٦٦٢١)، انظر السلسلة الصحيحة (٣٤١٩).

(٢) صحيح: أبو داود (٣٦٨٠)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٣) البخاري برقم (٥٥٧٥)، مسلم برقم (٢٠٠٣).

(٤) انظر السابق.

(٥) سبق تخريجه.

(٦) حسن صحيح: النسائي برقم (٢٥٦٥)، انظر صحيح سنن النسائي.

(٧) صحيح: المسند (٦٨٤٣)، انظر صحيح الجامع (٧٦٧٦).

خمر». ورواه أحمد^(١) أيضًا عن عبد الصمد، عن عبد العزيز بن مسلم، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد به. وعن مروان بن شجاع، عن خصيف، عن مجاهد به. ورواه النسائي عن القاسم بن زكريا، عن الحسين الجعفي، عن زائدة، عن يزيد بن أبي زياد، عن سالم بن أبي الجعد ومجاهد، كلاهما عن أبي سعيد به.

(حديث آخر): قال الإمام أحمد^(٢): حدثنا عبد الرزاق، حدثنا سفيان عن منصور، عن سالم بن أبي الجعد، عن جابان عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة عاق، ولا مدمن خمر، ولا منان، ولا ولد زنية» وكذا رواه عن يزيد، عن همام، عن منصور، عن سالم، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو به، وقد رواه أيضًا عن غندر وغيره، عن شعبة، عن منصور، عن سالم، عن نبيط بن شريط، عن جابان، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ قال «لا يدخل الجنة منان، ولا عاق والديه، ولا مدمن خمر». ورواه النسائي من حديث شعبة كذلك، ثم قال: ولا نعلم أحدًا تابع شعبة عن نبيط بن شريط.

وقال البخاري: لا يعرف لجابان سماع عن عبد الله، ولا لسالم من جابان ولا نبيط، وقد روى هذا الحديث من طريق مجاهد عن ابن عباس، ومن طريقه أيضًا عن أبي هريرة، فإله أعلم.

وقال الزهري: حدثني أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن أباه قال: سمعت عثمان بن عفان يقول: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث إنه كان رجل فيمن خلا قبلكم يتعبد ويعتزل الناس ففعلته امرأة غوية فأرسلت إليه جاريتها فقالت إنا ندعوك لشهادة فدخل معها فطفقت كلما دخل بابًا أغلقتة دونه حتى أفضى إلى امرأة وضيت عندها غلام وباطية خمر فقالت إني والله ما دعوتك لشهادة ولكني دعوتك لتقع على أو تقتل هذا الغلام أو تشرب هذا الخمر فسقته كاسًا فقال زيدوني فلم يرم حتى وقع عليها وقتل النفس فاجتنبوا الخمر فإنها لا تجتمع هي والإيمان أبدًا إلا أوشك أحدهما أن يخرج بصاحبه. ورواه البيهقي وهذا إسناد صحيح وقد رواه أبو بكر بن أبي الدنيا في كتابه ذم المسكر عن محمد بن عبد الله بن بزيغ عن الفضيل بن سليمان النميري عن عمر بن سعيد عن الزهري به مرفوعًا والموقوف أصح والله أعلم، وله شاهد في الصحيحين^(٣) عن رسول الله ﷺ أنه قال «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق سرقه حين يسرقها وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن».

وقال أحمد بن حنبل^(٤): حدثنا أسود بن عامر، أخبرنا إسرائيل عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما حرمت الخمر قال أناس: يا رسول الله، أصحابنا الذين ماتوا وهم يشربونها، فأنزل الله ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَمَعُوا﴾ إلى آخر الآية، وقال: ولما حولت القبلة قال أناس: يا رسول الله، إخواننا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس، فأنزل الله ﴿وَمَا كَانَ

(١) المسند (١٠٨٣٨)، وفيه يزيد بن أبي زياد: ليس بالقوي.

(٢) المسند (٦٨٥٣)، فيه جابان: الذهبي، وقال: أبو حاتم الرازي: ليس بحجة. فضلًا على أنه لم يسمع من عبد الله بن عمرو.

(٣) البخاري برقم (٢٤٧٥)، مسلم (٥٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) المسند (٢٤٤٨)، وفيه سماك: كثير الخطأ.

اللَّهُ يُضَيِّعُ إِيْمَانَكُمْ ﴿البقرة: ١٤٣﴾ .

وقال الإمام أحمد ^(١) : حدثنا داود بن مهرا ن الدباغ ، حدثنا داود يعنى العطار عن ابن خثيم ، عن شهر بن حوشب ، عن أسماء بنت يزيد أنها سمعت النبي ﷺ يقول «من شرب الخمر لم يرض الله عنه أربعين ليلة ، إن مات مات كافراً ، وإن تاب تاب الله عليه ، وإن عاد كان حقاً على الله أن يسقيه من طينة الخبال» قالت : قلت : يا رسول الله ، وما طينة الخبال؟ قال «صديد أهل النار» وقال الأعمش ، عن إبراهيم ، عن علقمة ، عن عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال لما نزلت ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَءَامَنُوا﴾ فقال النبي ﷺ «قيل لى : أنت منهم» وهكذا رواه مسلم والترمذى والنسائى ^(٢) من طريقه . وقال عبد الله بن الإمام أحمد ^(٣) : قرأت على أبى ، حدثنا على بن عاصم ، حدثنا إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص ، عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ «إياكم وهاتان الكعبتان الموسومتان اللتان تزجران زجرًا فإنهما ميسر العجم» .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا يُبْلَوْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ يُغَافِرُ لِمَن يَأْتِيهِ فَمِنَ ءَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ وَمَن قَتَلَهُ مِنكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ بِحَيْثُ بِهِ ذُو عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَرَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكِ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ ءَأْمَرِهِ عَفَا اللَّهُ عَنَّا سَلَفٌ وَمَن عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿١٧﴾﴾

قال الوالى عن ابن عباس قوله ﴿يُبْلَوْكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ﴾ قال : هو الضعيف من الصيد وصغيره ، يتلى الله به عبادته فى إحرامهم ، حتى لو شاءوا يتناولونه بأيديهم ، فنهاهم الله أن يقربوه . وقال مجاهد ﴿تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ﴾ يعنى صغار الصيد وفراخه ، ﴿وَرِمَاحُكُمْ﴾ يعنى كباره . وقال مقاتل بن حيان : أنزلت هذه الآية فى عمرة الحديبية ، فكانت الوحش والطي ر الصيد تغشاهم فى رحالهم ، لم يروا مثله قط فيما خلا ، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون ﴿لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ يُغَافِرُ لِمَن يَأْتِيهِ﴾ يعنى أنه تعالى يتليهم بالصيد ، يغشاهم فى رحالهم يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح سراً وجهراً ، ليظهر طاعة من يطيع منهم فى سره أو جهره ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ بِيَهُمْ بِالْقَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك : ١٢] وقوله هاهنا ﴿فَمِنَ ءَعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ﴾ قال السدى وغيره : يعنى بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم ، ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أى لمخالفته أمر الله وشرعه .

ثم قال تعالى : ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾ وهذا تحريم منه تعالى لقتل الصيد فى حال الإحرام ، ونهى عن تعاطيه فيه ، وهذا إنما يتناول من حيث المعنى المأكول وما يتولد منه ومن غيره ، فأما غير المأكول من حيوانات البر ، فعند الشافعى يجوز للمحرم قتلها ، والجمهور على تحريم قتلها أيضاً ، ولا يستثنى من ذلك إلا ما ثبت فى الصحيحين ^(٤) من طريق الزهرى عن عروة ، عن عائشة

(١) صحيح : المسند (٢٧٠٥٦) ، انظر صحيح الترغيب والترهيب (٣٦٨٠) .

(٢) مسلم (٢٤٥٩) ، والترمذى (٣٠٥٣) ، والنسائى فى «الكبرى» (٣٣٧/٦) ، برقم (١١١٥٣) .

(٣) منكر : المسند (٤٢٥١) ، وفيه على بن عاصم كذاب ، وإبراهيم الهجرى : ضعيف .

(٤) سبق تحريمه .

أم المؤمنين أن رسول الله ﷺ قال «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور». وقال مالك^(١)، عن نافع، عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال «خمس من الدواب ليس على المحرم في قتلهن جناح: الغراب، والحدأة، والعقرب، والفأرة، والكلب العقور» أخرجاه، ورواه أيوب عن نافع عن ابن عمر مثله. قال أيوب: قلت لنافع: فالحية؟ قال الحية لا شك فيها. ولا يختلف في قتلها. ومن العلماء كمالك وأحمد من ألحق بالكلب العقور الذئب والسبع والنمر والفهد، لأنها أشد ضرراً منه، فالله أعلم.

وقال زيد بن أسلم وسفيان بن عيينة: الكلب العقور يشمل هذه السباع العادية كلها، واستأنس من قال بهذا بما روى أن رسول الله ﷺ لما دعا على عتبة بن أبي لهب قال «اللهم سلط عليه كلبك بالشام»^(٢) فأكله السبع بالزرقاء، قالوا: فإن قتل ما عداهن فداها، كالضبع والثعلب وهز البر ونحو ذلك، قال مالك: وكذا يستثنى من ذلك صغار هذه الخمس المنصوص عليها، وصغار الملحوق بها من السباع العوادي. وقال الشافعي: يجوز للمحرم قتل كل ما لا يؤكل لحمه، ولا فرق بين صغاره وكباره، وجعل العلة الجامعة كونها لا تؤكل. وقال أبو حنيفة: يقتل المحرم الكلب العقور والذئب، لأنه كلب برى، فإن قتل غيرهما فداه إلا أن يصول عليه سبع غيرهما فيقتله فلا فداء عليه وهذا قول الأوزاعي والحسن بن صالح بن حبي. وقال زفر بن الهذيل: يفدى ما سوى ذلك وإن صال عليه.

وقال بعض الناس: المراد بالغراب هاهنا الأبقع، وهو الذي في بطنه وظهره بياض دون الأدرع وهو الأسود، والأعصم وهو الأبيض، لما رواه النسائي^(٣) عن عمرو بن علي الفلاس، عن يحيى القطان، عن شعبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال «خمس يقتلن المحرم: الحية، والفأرة، والحدأة، والغراب الأبقع، والكلب العقور» والجمهور على أن المراد به أعم من ذلك، لما ثبت في الصحيحين من إطلاق لفظه. وقال مالك رحمه الله: لا يقتل المحرم الغراب إلا إذا صال عليه وآذاه.

وقال مجاهد بن جبر وطائفة: لا يقتله بل يرميه، ويروى مثله عن علي. وقد روى هشيم: حدثنا يزيد بن أبي زياد: عن عبد الرحمن بن أبي نُعم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه سئل عما يقتل المحرم؟ فقال «الحية، والعقرب، والفويسقة، ويرمى الغراب ولا يقتله، والكلب العقور، والحدأة، والسبع اللغادي» رواه أبو داود^(٤) عن أحمد بن حنبل، والترمذي^(٥) عن أحمد بن منيع، كلاهما عن هشيم وابن ماجه^(٦)، عن أبي كريب وعن محمد بن فضيل، كلاهما عن يزيد بن أبي زياد وهو ضعيف به. وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مِنْكُمْ مَتَعِدًا فِرَاحًا مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا ابن علية عن أيوب قال: نبث عن طاوس أنه قال: لا يحكم على من أصاب صيداً

(١) سبق تخريجه. (٢) انظر سنن البيهقي (٥/٢١١) برقم (٩٨٣٢).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) ضعيف: أبو داود (١٨٤٨)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٥) ضعيف: الترمذي برقم (٨٣٨)، انظر ضعيف جامع الترمذي.

(٦) ضعيف: ابن ماجه (٣٠٨٩)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

خطأ، إنما يحكم على من أصابه متعمداً، وهذا مذهب غريب عن طاوس وهو متمسك بظاهر الآية، وقال مجاهد بن جبر: المراد بالمتعمد هاهنا القاصد إلى قتل الصيد، الناسي لإحرامه، فأما المتعمد لقتل الصيد مع ذكره لإحرامه، فذاك أمره أعظم من أن يكفر، وقد بطل إحرامه، ورواه ابن جرير عنه من طريق ابن أبي نجیح، وليث بن أبي سليم وغيرهما عنه، وهو قول غريب أيضاً، والذي عليه الجمهور أن العامد والناسي سواء في وجوب الجزاء عليه. وقال الزهري: دل الكتاب على العامد، وجرت السنة على الناسي، ومعنى هذا أن القرآن دل على وجوب الجزاء على المتعمد وعلى تأثيمه بقوله ﴿لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَمَّا آتَاهُ اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ وجاءت السنة من أحكام النبي ﷺ وأحكام أصحابه بوجوب الجزاء في الخطأ، كما دل الكتاب عليه في العمد، وأيضاً فإن قتل الصيد إتلاف، والإتلاف مضمون في العمد وفي النسيان، لكن المتعمد مأثوم، والمخطئ غير ملوم.

وقوله تعالى: ﴿فَبَرَاءَةٌ يَشْتَرِي بِهَا قَتْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ قرأ بعضهم بالإضافة، وقرأ آخرون بعطفها ﴿فَبَرَاءَةٌ يَشْتَرِي مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾، وحكى ابن جرير، أن ابن مسعود قرأها «فجزاؤه يشترى ما قتل من النعم». وفي قوله ﴿فَبَرَاءَةٌ يَشْتَرِي مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ﴾ على كل من القراءتين دليل لما ذهب إليه مالك والشافعي وأحمد والجمهور، من وجوب الجزاء من مثل ما قتله المحرم، إذا كان له مثل من الحيوان الإنسي خلافاً لأبي حنيفة رحمه الله، حيث أوجب القيمة سواء كان الصيد المقتول مثلياً أو غير مثلي، قال: وهو مخير إن شاء تصدق بشمنه، وإن شاء اشترى به هدياً، والذي حكم به الصحابة في المثلي أولى بالاتباع، فإنهم حكموا في النعامة بيدنة، وفي بقرة الوحش ببقرة، وفي الغزال بعنز، وذكر قضايا الصحابة وأسانيدهم مقرر في كتاب الأحكام، وأما إذا لم يكن الصيد مثلياً فقد حكم ابن عباس فيه بشمنه يحمل إلى مكة، رواه البيهقي.

وقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ يعني أنه يحكم بالجزاء في المثلي أو بالقيمة في غير المثلي عدلان من المسلمين، واختلف العلماء في القاتل: هل يجوز أن يكون أحد الحكمين؟ على قولين (أحدهما) لا، لأنه قد يتهم في حكمه على نفسه، وهذا مذهب مالك. (والثاني) نعم، لعموم الآية، وهو مذهب الشافعي وأحمد، واحتج الأولون بأن الحاكم لا يكون محكوماً عليه في صورة واحدة. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا أبو نعيم الفضل بن دكين، حدثنا جعفر هو ابن برقان عن ميمون بن مهران أن أعرابياً أتى أبا بكر، فقال: قتلت صيداً وأنا محرم، فما ترى علي من الجزاء؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما قال؟ فقال الأعرابي: أنتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وما تنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَبَرَاءَةٌ يَشْتَرِي مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾ فشاورت صاحبى حتى إذا اتفقنا على أمر أمرناك به، وهذا إسناد جيد، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق، ومثله يحتمل هاهنا، فبين له الصديق الحكم برفق وتؤدة لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواء الجهل التعليم، فأما إذا كان المعترض منسوباً إلى العلم. فقد قال ابن جرير: حدثنا هناد وأبو هشام الرفاعي، قالوا: حدثنا وكيع بن الجراح عن المسعودي، عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة بن جابر، قال: خرجنا حجاجاً، فكننا إذا صلينا الغداة اقتدنا وراحلنا، نتماشى نتحدث. قال: فبينما نحن ذات غداة إذ سنح لنا ظبي أو برح، فرماه رجل كان معنا بحجر فما

أخطأ حشاه، فركب وودعه ميتًا. قال: فَعَظَّمْنَا عَلَيْهِ، فلما قدمنا مكة، خرجت معه حتى أتينا عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فقص عليه القصة قال: وإذا إلى جنبه رجل كأن وجهه قلب فضة، يعنى عبد الرحمن بن عوف، فالتفت عمر إلى صاحبه فكلمه، قال: ثم أقبل على الرجل فقال: أعمدًا قتلته أم خطأ؟ فقال الرجل: لقد تعمدت رمية وما أردت قتله، فقال عمر: ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ، اعمد إلى شاة فاذبجها وتصدق بلحمها، واستبق إهابها، قال: فقمنا من عنده، فقلت لصاحبي: أيها الرجل، عظم شعائر الله، فما درى أمير المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه، اعمد إلى ناقتك فانحرها. ففعل ذلك، قال قبيصة: ولا أذكر الآية من سورة المائدة ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: فبلغ عمر مقالتي، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدرّة، قال: فعلا صاحبي ضربًا بالدرّة، وجعل يقول: أقتلت فى الحرم وسفهت الحكم. قال: ثم أقبل على، فقلت: يا أمير المؤمنين، لا أحل لك اليوم شيئًا يحرم عليك منى، فقال: يا قبيصة بن جابر، إنى أراك شاب السن، فسبح الصدر، بين اللسان، وإن الشاب يكون فيه تسعة أخلاق حسنة وخلق سيئ، فيفسد الخلق السيئ الأخلاق الحسنة، فإياك وعثرات الشباب.

وقد روى هشيم هذه القصة عن عبد الملك بن عمير، عن قبيصة بنحوه. ورواها أيضًا عن حصين، عن الشعبي، عن قبيصة بنحوه. وذكرها مرسلّة عن عمر بن بكر بن عبد الله المزني ومحمد بن سيرين بنحوه.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الرحمن، حدثنا شعبة عن منصور، عن أبي وائل، أخبرني جرير البجلي، قال: أصبت ظبيًا وأنا محرم، فذكرت ذلك لعمر، فقال: ائت رجلين من إخوانك فليحكما عليك، فأتيت عبد الرحمن وسعدًا فحكما على بتيس أعفر.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع، حدثنا ابن عيينة عن مخارق، عن طارق، قال: أو طأ أريد ظبيًا فقتله وهو محرم، فأتى عمر ليحكم عليه، فقال له عمر: احكم معى، فحكما فيه جديًا قد جمع الماء والشجر، ثم قال عمر ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾، وفى هذا دلالة على جواز كون القاتل أحد الحكمين، كما قاله الشافعى وأحمد رحمهما الله. واختلفوا: هل تستأنف الحكومة فى كل ما يصيبه المحرم، فيجب أن يحكم فيه ذوا عدل، وإن كان قد حكم فى مثله الصحابة أو يكتفى بأحكام الصحابة المقدمّة؟ على قولين، فقال الشافعى وأحمد: يتبع فى ذلك ما حكمت به الصحابة، وجعله شرعًا مقررًا لا يعدل عنه، وما لم يحكم فيه الصحابة يرجع فيه إلى عدلين. وقال مالك وأبو حنيفة: بل يجب الحكم فى كل فرد فرد سواء وجد للصحابة فى مثله حكم أم لا، لقوله تعالى: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَلَاغٌ آلِكَبَةِ﴾ أى واصلاً إلى الكعبة، والمراد وصوله إلى الحرم بأن يذبح هناك ويفرق لحمه على مساكين الحرم، وهذا أمر متفق عليه فى هذه الصورة. وقوله ﴿أَوْ كَثْرَةَ طَعَامٍ مَسْكِينٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ سِيَامًا﴾ أى إذا لم يجد المحرم مثل ما قتل من النعم، أو لم يكن الصيد المقتول من ذوات الأمثال، أو قلنا بالتحخير فى هذا المقام بين الجزاء والإطعام والصيام، كما هو قول مالك وأبو حنيفة وأبى يوسف ومحمد بن الحسن، وأحد قولى الشافعى، والمشهور عن أحمد، رحمهم الله، لظاهر

الآية ﴿أَوْ﴾ فإنها للتخيير، والقول الآخر أنها على الترتيب، فصورة ذلك أن يعدل إلى القيمة، فيقوم الصيد المقتول عند مالك وأبى حنيفة وأصحابه وحماد وإبراهيم. وقال الشافعى: يقوم مثله من النعم لو كان موجوداً، ثم يشتري به طعام فيتصدق به فيصرف لكل مسكين مُد منه، عند الشافعى ومالك وفقهاء الحجاز، واختاره ابن جرير، وقال أبو حنيفة وأصحابه: يطعم كل مسكين مدين، وهو قول مجاهد. وقال أحمد: مد من حنطة أو مدان من غيره، فإن لم يجد أو قلنا بالتخيير، صام عن إطعام كل مسكين يوماً.

وقال ابن جرير: وقال آخرون: يصوم مكان كل صاع يوماً كما فى جزاء المترفة بالحلق ونحوه، فإن الشارع أمر كعب بن عجرة أن يطعم فرقاً بين ستة، أو يصوم ثلاثة أيام، والفرق ثلاثة أصع، واختلفوا فى مكان هذا الإطعام، فقال الشافعى: محله الحرم، وهو قول عطاء. وقال مالك: يطعم فى المكان الذى أصاب فيه الصيد أو أقرب الأماكن إليه. وقال أبو حنيفة: إن شاء أطعم فى الحرم، وإن شاء أطعم فى غيره.

ذكر أقوال السلف فى هذا المقام: قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا يحيى بن المغيرة، حدثنا جرير عن منصور، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس فى قوله الله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَثْرَةً مِّنَ النَّعْمِ أَوْ عَدْلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال: إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من النعم، فإن وجد جزاء ذبح فتصدق به، وإن لم يجد، نظر كم ثمنه، ثم قوم ثمنه طعاماً، فصام مكان كل نصف صاع يوماً قال الله تعالى: ﴿أَوْ كَثْرَةً مِّنَ النَّعْمِ أَوْ عَدْلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾، قال: إنما أريد بالطعام الصيام، أنه إذا وجد الطعام وجد جزاؤه، ورواه ابن جرير من طريق جرير. وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَثْرَةً مِّنَ النَّعْمِ أَوْ عَدْلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾، إذا قتل المحرم شيئاً من الصيد حكم عليه فيه، فإن قتل ظبياً أو نحوه فعليه شاة تدبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، فإن قتل أبلأ أو نحوه، فعليه بقرة، فإن لم يجدها أطعم عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعامة أو حمار وحش أو نحوه، فعليه بدنة من الإبل، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً، رواه ابن أبى حاتم وابن جرير، وزاد: الطعام مَدَّ مَدَّ يشبعهم.

وقال جابر الجعفى، عن عامر الشعبي وعطاء ومجاهد ﴿أَوْ عَدْلَ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قالوا إنما الطعام لمن لا يبلغ الهدى رواه ابن جرير وكذا روى ابن جريج عن مجاهد وأسباط عن السدى أنها على الترتيب. وقال عطاء وعكرمة ومجاهد فى رواية الضحاك وإبراهيم النخعى: هى على الخيار، وهى رواية الليث عن مجاهد، عن ابن عباس، واختار ذلك ابن جرير رحمه الله.

وقوله ﴿يَذُوقْ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾ أى أوجبنا عليه الكفارة ليدوق عقوبة فعله الذى ارتكب فيه المخالفة ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾ أى فى زمان الجاهلية لمن أحسن فى الإسلام واتبع شرع الله، ولم يرتكب المعصية، ثم قال ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ أى ومن فعل ذلك بعد تحريمه فى الإسلام وبلوغ الحكم الشرعى إليه ﴿فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾.

قال ابن جريج: قلت لعطاء: ما ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْكَ سَلَفٌ﴾؟ قال: عما كان فى الجاهلية. قال: قلت: وما

﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ﴾؟ قال: ومن عاد في الإسلام فينتقم الله منه، وعليه مع ذلك الكفارة. قال: قلت: فهل في العود حد تعلمه؟ قال: لا، قال: قلت: فترى حقاً على الإمام أن يعاقبه؟ قال: لا، هو ذنب أذنبه فيما بينه وبين الله عز وجل، ولكن يفتدى. ورواه ابن جرير. وقيل: معناه فينتقم الله منه بالكفارة، قاله سعيد بن جبير وعطاء، ثم الجمهور من السلف والخلف على أنه متى قتل المحرم الصيد وجب الجزاء، ولا فرق بين الأولى والثانية، وإن تكرر ما تكرر سواء الخطأ في ذلك والعمد.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: من قتل شيئاً من الصيد خطأ وهو محرم، يحكم عليه فيه كما قتله، وإن قتله عمداً يحكم عليه فيه مرة واحدة، فإن عاد يقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله عز وجل.

وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا يحيى بن سعيد وابن أبي عدي، جميعاً عن هشام هو ابن حسان، عن عكرمة، عن ابن عباس، فيمن أصاب صيداً فحكم عليه ثم عاد قال: لا يحكم عليه، ينتقم الله منه.

وهكذا قال شريح ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن البصري وإبراهيم النخعي، رواه ابن جرير، ثم اختار القول الأول.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا العباس بن يزيد العبدى، حدثنا المعتمر بن سليمان عن زيد بن أبي المعلى، عن الحسن البصري أن رجلاً أصاب صيداً فتجوز عنه، ثم عاد فأصاب صيداً آخر، فنزلت نار من السماء فأحرقته، فهو قوله ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ﴾.

وقال ابن جرير في قوله ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ يقول، عز ذكره: والله منيع في سلطانه، لا يقهره قاهر ولا يمنع من الانتقام ممن انتقم منه، ولا من عقوبة من أراد عقوبته مانع، لأن الخلق خلقه، والأمر أمره، له العزة والمنعة.

وأما قوله ﴿ذُو انْتِقَامٍ﴾ يعنى أنه ذو معاقبة لمن عصاه على معصيته إياه.

﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُم مِّنَّا لَكُمْ وَاللَّسِيَّاتُ وَحَرَمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا
وَأَتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٣﴾ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيَتِيمَ الْحَرَامَ قِنًى لِلنَّاسِ
وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَتْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ
اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿١٤﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥﴾ مَا عَلَى الرَّسُولِ
إِلَّا الْبَلْغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿١٦﴾﴾

قال ابن أبي طلحة، عن ابن عباس في رواية عنه، وسعيد بن المسيب، وسعيد بن جبير وغيرهم، في قوله تعالى: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ﴾ يعنى ما يصطاد منه طرياً ﴿وَطَعَامُهُم﴾ ما يتزود منه مليحاً يابساً، وقال ابن عباس في الرواية المشهورة عنه: صيده ما أخذ منه حياً ﴿وَطَعَامُهُم﴾ ما لفظه ميتاً، وهكذا روى عن أبي بكر الصديق وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وأبي أيوب الأنصاري رضى الله عنهم، وعكرمة وأبي سلمة بن عبد الرحمن وإبراهيم النخعي والحسن البصري، قال سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عكرمة، عن أبي بكر الصديق أنه قال «طعامه» كل ما فيه، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا جرير عن مغيرة، عن سماك قال: حدثت عن ابن عباس قال: خطب أبو بكر الناس، فقال ﴿أَيُّ لَكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ﴾ وطمعاه ما قذف. قال: وحدثنا يعقوب، حدثنا ابن عليه عن سليمان التيمي، عن أبي مجلز، عن ابن عباس في قوله ﴿أَيُّ لَكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ قال «طعامه» ما قذف.

وقال عكرمة عن ابن عباس، قال: «طَعَامُهُ» ما لفظ من ميتة، ورواه ابن جرير أيضًا. وقال سعيد بن المسيب: طعامه ما لفظه حيًّا أو حسر عنه فمات، رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن بشار، حدثنا عبد الوهاب، حدثنا أيوب عن نافع أن عبد الرحمن بن أبي هريرة سأل ابن عمر، فقال: إن البحر قد قذف حيثانًا كثيرًا ميتًا، أفنأكله؟ فقال: لا تأكلوه، فلما رجع عبد الله إلى أهله، أخذ المصحف فقرأ سورة المائدة فأتى هذه الآية ﴿وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ وَلَلْأَيُّ لَكُمْ﴾ فقال: اذهب فقل له: فليأكله فإنه طعامه، وهكذا اختار ابن جرير أن المراد بطعامه ما مات فيه. قال: وقد روى في ذلك خبر، وإن بعضهم يرويه موقوفًا، وحدثنا هناد بن السرى قال: حدثنا عبدة بن سليمان عن محمد بن عمرو، حدثنا أبو سلمة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ ﴿أَيُّ لَكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَّعًا لَكُمْ﴾ قال «طعامه ما لفظه ميتًا»^(١) ثم قال: وقد وقف بعضهم هذا الحديث على أبي هريرة. حدثنا هناد، حدثنا ابن أبي زائدة عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة في قوله ﴿أَيُّ لَكُمْ صَيِّدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ﴾ قال: طعامه ما لفظه ميتًا.

وقوله ﴿مَتَّعًا لَكُمْ وَلَلْأَيُّ لَكُمْ﴾ أى منفعة وقوتًا لكم أيها المخاطبون ﴿وَلَلْأَيُّ لَكُمْ﴾ وهم جمع سيار، قال عكرمة: لمن كان بحضرة البحر ﴿وَلَلْأَيُّ لَكُمْ﴾ وللسفر وقال غيره: الطرى منه لمن يصطاده من حضرة البحر، ﴿وَطَعَامُهُ﴾ ما مات فيه أو اصطيد منه وملح وقد يكون زادًا للمسافرين والنائين عن البحر، وقد روى نحوه عن ابن عباس ومجاهد والسدى وغيرهم. وقد استدل جمهور العلماء على حل ميتة البحر بهذه الآية الكريمة، وبما رواه الإمام مالك^(٢) بن أنس عن وهب بن كيسان، عن جابر بن عبد الله قال: بعث رسول الله ﷺ بعثًا قبل الساحل، فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة، قال: ولما فيهم، قال فخرنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فنى الزاد، فأمر أبو عبيدة بأزواد ذلك الجيش، فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر، قال: فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فنى، فلم يكن يصيبنا إلا تمرة تمر، فقلت: وما تغني تمرة. فقال: فقد وجدنا فقدنا حين فنيته، قال: ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الظرب، فأكل منه ذلك الجيش ثمانى عشرة ليلة، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا، ثم أمر برحلة فرحلت ومرت تحتهما، فلم تصبهما، وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وله طرق عن جابر^(٣).

وفى صحيح مسلم^(٤) من رواية أبي الزبير عن جابر، فإذا على ساحل البحر مثل الكثيب الضخم، فأتيناه فإذا بدابة يقال لها العنبر، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثم قال: لا، نحن رسل رسول الله ﷺ،

(١) حسن: ابن جرير (٦٩/٧)، وفيه محمد بن عمرو بن علقمة: صدوق له أوهام.

(٢) صحيح: الموطأ (١٧٣٠). (٣) البخاري برقم (٢٤٨٣)، مسلم (١٩٣٥).

(٤) انظر السابق.

وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكلوا، قال: فأقمنا عليه شهراً ونحن ثلثمائة حتى سمنا، ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور، أو كقدر كالثور. قال: ولقد أخذ منا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ثم رحل أعظم بعير معنا، فمر من تحته، وتزودنا من لحمه وشائق، فلما قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال «هو رزق أخرج الله لكم هل معكم من لحمه شيء فقطعتمونا؟» قال فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه، فأكله.

وفي بعض روايات مسلم: أنهم كانوا مع النبي ﷺ حين وجدوا هذه السمكة، فقال بعضهم: هي واقعة أخرى، وقال بعضهم: بل هي قضية واحدة، ولكن كانوا أولاً مع النبي ﷺ، ثم بعثهم سرية مع أبي عبيدة فوجدوا هذه في سريتهم تلك مع أبي عبيدة، والله أعلم. وقال مالك عن صفوان بن سليم عن سعيد بن سلمة من آل ابن الأزرق: أن المغيرة بن أبي بردة وهو من بنى عبد الدار، أخبره أنه سمع أبا هريرة يقول: سأل رجل رسول الله ﷺ، فقال، يا رسول الله، إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أفنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله ﷺ «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»^(١)، وقد روى هذا الحديث الإمامان الشافعي وأحمد بن حنبل وأهل السنن الأربع، وصححه البخاري والترمذي وابن خزيمة وابن حبان وغيرهم، وقد روى عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ بنحوه.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه^(٢) من طرق عن حماد بن سلمة، حدثنا أبو المهزم هو يزيد بن سفيان سمعت أبا هريرة يقول: كنا مع رسول الله ﷺ في حج أو عمرة، فاستقبلنا رجل جرأه، فجعلنا نضربهن بعصينا وسيطانا، فنقتلهن، فأسقط في أيدينا، فقلنا: ما نصنع ونحن محرمون؟ فسألنا رسول الله ﷺ فقال «لا بأس بصيد البحر» أبو المهزم ضعيف، والله أعلم. وقال ابن ماجه^(٣): حدثنا هارون بن عبد الله الحمالي، حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زياد بن عبد الله بن هلال، عن موسى بن محمد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جابر وأنس بن مالك أن النبي ﷺ كان إذا دعا على الجراد قال «اللهم أهلك كباره، واقتل صغاره، وأفسد بيضه، واقطع دابره، وخذ بأفواهه عن معاشنا وأرزاقنا، إنك سميع الدعاء» فقال خالد: يا رسول الله، كيف تدعو على جند من أجناد الله بقطع دابره؟ فقال «إن الجراد نثره الحوت في البحر» قال هاشم: قال زياد: فحدثني من رأى الحوت يتوه، تفرد به ابن ماجه.

وقد روى الشافعي عن سعيد، عن ابن جريج، عن عطاء عن ابن عباس أنه أنكر على من يصيد الجراد في الحرم، وقد احتج بهذه الآية الكريمة من ذهب من الفقهاء إلى أنه توكل دواب البحر ولم يستثن من ذلك شيئاً، قد تقدم عن الصديق أنه قال: «طَعَامُهُ» كل ما فيه. وقد استثنى بعضهم الضفادع

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٨٣)، الترمذي (٦٩)، النسائي (٣٣٢)، ابن ماجه (٣٨٦)، أحمد (٧١٩٢) والشافعي في «مسنده» (٧/١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، انظر صحيح سنن أبي داود.
(٢) ضعيف: أحمد (٧٩٩٩)، أبو داود (١٨٥٤)، الترمذي (٨٥٠)، ابن ماجه (٣٢٢٢)، وفيه أبو المهزم: ضعيف.
(٣) موضوع: ابن ماجه (٣٢٢١)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

وأباح ما سواها، لما رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي^(١) من رواية ابن أبي ذئب، عن سعيد بن خالد عن سعيد بن المسيب، عن عبد الرحمن بن عثمان التيمي أن رسول الله ﷺ نهى عن قتل الضفدع، وللنسائي عن عبد الله بن عمرو قال: نهى رسول الله ﷺ عن قتل الضفدع، وقال: نقيها تسييح^(٢). وقال آخرون: يؤكل من صيد البحر السمك، ولا يؤكل الضفدع، واختلفوا فيما سواهما، فقيل: يؤكل سائر ذلك. وقيل: لا يؤكل. وقيل: ما أكل شبهه من البر، أكل مثله في البحر، وما لا يؤكل شبهه لا يؤكل، وهذه كلها وجوه في مذهب الشافعي رحمه الله تعالى.

وقال أبو حنيفة رحمه الله تعالى: لا يؤكل ما مات في البحر، كما لا يؤكل ما مات في البر، لعموم قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْمَيْتَةُ﴾ [المائدة: ٣] وقد ورد حديث بنحو ذلك، فقال ابن مردويه^(٣): حدثنا عبد الباقي هو ابن قانع، حدثنا الحسين بن إسحاق التستري وعبد الله بن موسى بن أبي عثمان، قالا: حدثنا الحسين بن يزيد الطحان، حدثنا حفص بن غياث عن ابن أبي ذئب، عن أبي الزبير، عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ «ما صدتموه وهو حي فمات فكلوه»، وما ألقى البحر ميتًا طافيًا فلا تأكلوه»، ثم رواه من طريق إسماعيل بن أمية ويحيى بن أبي أنيسة عن أبي الزبير عن جابر به، وهو منكر، وقد احتج الجمهور من أصحاب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل بحديث العنبر المتقدم ذكره، وبحديث «هو الطهور ماؤه الحل ميتته»، وقد تقدم أيضًا.

وروى الإمام أبو عبد الله الشافعي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، عن أبيه، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ «أحلت لنا ميتتان ودمان، فأما الميتتان: فالحوت والجراد، وأما الدمان: فالكبد والطحال» ورواه أحمد وابن ماجه والدارقطني والبيهقي^(٤) وله شواهد، وروى موقوفًا، والله أعلم. وقوله: ﴿وَمِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمَّتْ حُرْمَتُهُ﴾ أي في حال إحرامكم يحرم عليكم الاصلبياد، ففيه دلالة على تحريم ذلك فإذا اصطاد المحرم الصيد متعمدًا، أثم وغرم، أو مخطئًا، غرم وحرّم عليه أكله، لأنه في حقه كالميتة، وكذا في حق غيره من المحرمين والمحلين، عند مالك والشافعي في أحد قوليه، وبه يقول عطاء والقاسم وسالم وأبو يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهم، فإن أكله أو شيقًا منه فهل يلزمه جزاء ثان؟ فيه قولان للعلماء:

(أحدهما) نعم، قال: عبد الرزاق عن ابن جريج، عن عطاء قال: إن ذبحه ثم أكله فكفارتان، وإليه ذهب طائفة.

(والثاني) لا جزاء عليه بأكله، نص عليه مالك بن أنس. قال أبو عمر بن عبد البر: وعلى هذا مذاهب فقهاء الأمصار وجمهور العلماء، ثم وجهه أبو عمر بما لو وطئ، ثم وطئ، ثم وطئ قبل أن يحد، فإنما عليه حد واحد، وقال أبو حنيفة: عليه قيمة ما أكل. وقال أبو ثور: إذا قتل المحرم الصيد

(١) صحيح: أحمد (١٥٣٣٠)، أبو داود (٣٨٧١)، النسائي (٤٣٥٥)، انظر صحيح سنن أبي داود.

(٢) أورده الهيثمي في «المجمع» (٤١/٤)، وقال: رواه الطبراني في الصغير والأوسط وفيه المسيب بن واضح وفيه كلام وقد وثقه.

(٣) ضعيف: في إسناده الحسين بن يزيد الطحان، قال الحافظ: لين الحديث، وأبو الزبير: مدلس.

(٤) سبق تخريجه.

فعلية جزاؤه وحلال أكل ذلك الصيد، إلا أنني أكرهه للذي قتله للخير عن رسول الله ﷺ «صيد البر لكم حلال ما لم تصيدوه أو يصد لكم»^(١) وهذا الحديث سيأتي بيانه، وقوله بإباحته للقاتل غريب. وأما لغيره ففيه خلاف قد ذكرنا المنع عن تقدم، وقال آخرون بإباحته لغير القاتل سواء المحرمون والمحلون لهذا الحديث، والله أعلم.

وأما إذا صاد حلال صيدًا، فأهداه إلى محرم، فقد ذهب ذاهبون إلى إباحته مطلقًا، ولم يستفصلوا بين أن يكون قد صاده لأجله أم لا، حكى هذا القول أبو عمر بن عبد البر، عن عمر بن الخطاب وأبي هريرة والزيبر بن العوام وكعب الأحبار ومجاهد وعطاء في رواية، وسعيد بن جبير، قال: وبه قال الكوفيون. قال ابن جرير: حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد، حدثنا بشر بن المفضل، حدثنا سعيد عن قتادة أن سعيد بن المسيب حدثه عن أبي هريرة أنه سئل عن لحم صيد صاده حلال، أياكله المحرم؟ قال: فأفتاهم بأكله، ثم لقي عمر بن الخطاب فأخبره بما كان من أمره، فقال: لو أفتيتهم بغير هذا لأوجعت لك رأسك. وقال آخرون: لا يجوز أكل الصيد للمحرم بالكلية، ومنعوا من ذلك مطلقًا لعدم هذه الآية الكريمة.

وقال عبد الرزاق عن معمر، عن ابن طاوس، وعبد الكريم بن أبي أمية عن طاوس، عن ابن عباس أنه كره أكل لحم الصيد للمحرم، وقال: هي مبهمة يعني قوله «وَرَوَى عَلَيْكُمْ صَيْدَ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا» قال: وأخبرني معمر عن الزهري، عن ابن عمر أنه كان يكره للمحرم أن يأكل من لحم الصيد على كل حال. قال معمر: وأخبرني أيوب عن نافع، عن ابن عمر مثله، قال ابن عبد البر: وبه قال طاوس وجابر بن زيد، وإليه ذهب الثوري وإسحاق بن راهويه في رواية، وقد روى نحوه عن علي بن أبي طالب، رواه ابن جرير من طريق سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن سعيد بن المسيب أن عليًا كره أكل لحم الصيد للمحرم على كل حال.

وقال مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه في رواية والجمهور: إن كان الحلال قد قصد المحرم بذلك الصيد لم يجز للمحرم أكله لحديث الصعب بن جثامة أنه أهدى للنبي ﷺ حمارًا وحشيًا وهو بالأبواء أو بؤدان، فرده عليه، فلما رأى ما في وجهه قال «إنا لم نرده عليك إلا أنا حرم» وهذا الحديث مخرج في الصحيحين^(٢)، وله ألفاظ كثيرة، قالوا: فوجهه أن النبي ﷺ ظن أن هذا إنما صاده من أجله، فرده لذلك، فأما إذا لم يقصده بالاصطياد فإنه يجوز له الأكل منه لحديث أبي قتادة حين صاد حمار وحش، وكان حلالًا لم يحرم، وكان أصحابه محرمين، فتوقفوا في أكله ثم سألوا رسول الله ﷺ فقال «هل كان منكم أحد أشار إليها وأعان في قتلها؟» قالوا: لا. قال «فكلوا» وأكل منها رسول الله ﷺ، وهذه القصة ثابتة أيضًا في الصحيحين^(٣) بألفاظ كثيرة.

وقال الإمام أحمد: حدثنا سعيد بن منصور وقتيبة بن سعيد، قالوا: حدثنا يعقوب بن عبد الرحمن

(١) ضعيف: أخرجه أبو داود (١٨٥١)، الترمذي (٨٤٦)، النسائي (٢٨٢٧)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، وانظر ضعيف سنن أبي داود.

(٢) البخاري برقم (١٨٢٥)، مسلم برقم (١١٩٣) من حديث الصعب بن جثامة، رضي الله عنه.

(٣) البخاري برقم (١٨٢٤)، مسلم برقم (١١٩٦).

عن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ، وقال قتبية في حديثه: سمعت رسول الله ﷺ يقول «صيد البر لكم حلال» قال سعيد - وأنتم حرم - ما لم تصيده أو يصد لكم»، وكذا رواه أبو داود والترمذي والنسائي، جميعاً عن قتبية. وقال الترمذي: لا تعرف للمطلب سماعاً من جابر، ورواه الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضى الله عنه من طريق عمرو بن أبي عمرو، عن مولاة المطلب، عن جابر، ثم قال: وهذا أحسن حديث روى في هذا الباب وأقيس. وقال مالك رضى الله عنه، عن عبد الله بن أبي بكر، عن عبد الله بن عامر بن ربيعة، قال: رأيت عثمان بن عفان بالعرج وهو محرم في يوم صائف قد غطى وجهه بقطيفة أرجوان، ثم أتى بلحم صيد، فقال لأصحابه: كلوا، فقالوا: أو لا تأكل أنت؟ فقال: إني لست كهيتكم إنما صيد من أجلي.

وقد نقل ابن جرير خلافاً في صفة الصيد الذي حرمه الله تعالى على المحرم، فقال بعضهم: صيد البر: كل ما كان يعيش في البر والبحر، وإنما صيد البحر ما كان يعيش في الماء دون البر ويأوي إليه. روى عمران بن حدير، عن أبي مجلز أنه قال في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَلَىٰ صَيْدٍ لَّيْرٍ مَا دُمَّتْ حُرْمًا﴾، قال: ما كان يعيش في البر والبحر فلا تصده، وما كان حياته في الماء فذاك. وعن عطاء قال: «ما كان يعيش في البر فأصابه المحرم فعليه جزاؤه، نحو السلفاء، والسرطان، والضفادع»، وقال بعضهم: صيد البر ما كان كونه في البر أكثر من كونه في البحر. روي عن ابن جريج قال: «سألت عطاء عن ابن الماء، أصيد بر أم بحر؟ وعن أشباهه. فقال: حيث يكون أكثر، فهو صيده».

وعن عطاء بن أبي رباح قال: أكثر ما يكون حيث يفرخ، فهو منه».

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذَرُوا اللَّهَ الذُّعَىٰ إِلَىٰ تَحْشُرَاتِ﴾.

قال ابن جرير: «يقول تعالى ذكره: و اخشوا الله، أيها الناس، واحذروه بطاعته فيما أمركم به من فرائضه، وفيما نهاكم عنه في هذه الآيات التي أنزلها على نبيكم ﷺ، من النهي عن الخمر والميسر والأنصاب والأزلام وعن إصابتها صيد البر وقتله في حال إحرامكم وفي غيرها، فإن لله مصيركم ومرجعكم، فيعاقبكم بمعصيتكم إياه، ويجازيكم فيثيبكم على طاعتكم له».

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْغُرَامَةَ قِبْلَةً لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ﴾.

«يقول تعالى ذكره: صير الله الكعبة البيت الحرام قواماً للناس الذين لا قوام لهم، من رئيس يحجز قلوبهم عن ضعيفهم، ومسيئهم عن محسنهم، وظالمهم عن مظلومهم - والشهر الحرام والهدي والقلائد - فحجز بكل واحد من ذلك بعضهم عن بعض، إذ لم يكن لهم قيام غيره، وجعلها معالم لدينهم، ومصالح أمورهم».

وقد روى عن مجاهد قال: «إنما سميت الكعبة لأنها مربعة». وروي مثله عن عكرمة.

قال ابن جرير: «وأما ﴿الْكَعْبَةَ﴾ فالحرم كله. وسماها الله تعالى «حراماً» لتحريمه إياها أن يصاد صيدها أو يختلئ خلالها، أو يعضد شجرها».

وقد نسر ابن جرير: ﴿قِبْلَةً لِلنَّاسِ﴾ بالقوام. وروي في ذلك آثاراً منها:

حدثنا هناد قال : حدثنا ابن أبي زائدة قال : أخبرنا من سمع خصيفاً يحدث ، عن مجاهد في ﴿جَمَلَ اللهُ الْكُفْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ ، قال : قواماً للناس .

وقال سعيد بن جبير : ﴿قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾ ، قال : صلاحاً لدينهم . وعنه أيضاً «شدة لدينهم» .

وعن ابن عباس قال : «قيامها : أن يأمن من توجه إليها» ، وعنه أيضاً : «قياماً لدينهم ، ومعالم لحجهم» .

وقال السدي : «جعل الله هذه الأربعة قياماً للناس ، هو قوام أمرهم» .

قال ابن جرير : «وهذه الأقوال وإن اختلفت من ألفاظ قائلها ألفاظها ، فإن معانيها آيلة إلى ما قلنا من ذلك ، من أن (القوام) للشيء ، هو الذي به صلاحه ، كما أن الملك الأعظم ، قوام رعيته ومن في سلطانه ؛ لأنه مدير أمرهم ، وحاجز ظالمهم عن مظلومهم ، والدافع عنهم مكروه من بغاهم وعاداهم . وكذلك كانت الكعبة والشهر الحرام والهدي والقلائد ، قوام أمر العرب الذي كان به صلاحهم في الجاهلية ، وهي في الإسلام لأهله معالم حجهم ومناسكهم ومتوجههم لصلاتهم ، وقبلتهم التي باستقبالها يتم فرضهم» .

ثم قال ابن جرير : وبنحو الذي قلنا في ذلك قالت جماعة أهل التأويل .

حدثنا بشر بن معاذ قال : حدثنا جامع بن حماد ، حدثنا يزيد بن زريع قال : حدثنا سعيد ، عن قتادة قوله : ﴿جَمَلَ اللهُ الْكُفْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْمَدْيَةَ وَالْعَلَيْدَةَ﴾ حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية ، فكان الرجل لو جر كل جريرة ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يقرب . وكان الرجل لو لقي قاتل أبيه في الشهر الحرام لم يعرض له ولم يقرب . وكان الرجل إذا أراد البيت تقلد قلادة من شعر فأحمته ومنعته من الناس ، حتى يأتي أهله حواجز أبقاها الله بين الناس في الجاهلية . وروي نحوه عن ابن زيد وابن عباس .

وقد مضى في أول السورة ذكر (الشهر الحرام) و (الهدي) و (القلائد) .

وقوله تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ .

قال ابن جرير : «يقول تعالى ذكره : اعلموا ، أيها الناس ، أن ربكم الذي يعلم ما في السموات وما في الأرض ولا يخفى عليه شيء من سرائر أعمالكم وعلانياتها وهو يحصيها عليكم ليجازيكم بها ، شديد عقابه من عصاه وتمرد عليه على معصيته إياه - وهو غفور لذنوب من أطاعه وأتاب إليه فسائر عليه وتارك فضيحته بها رحيم به أن يعاقبه على ما سلف من ذنوبه بعد إنابته وتوبته منها» .

وقوله : ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ .

هذا من الله تعالى ذكره ، تهديد لعباده ووعيد ، يقول تعالى ذكره : ليس على رسولنا الذي أرسلناه إليكم ، أيها الناس ، بإنذاركم عقابنا بين يدي عذاب شديد ، وإعذارنا إليكم بما فيه قطع حججكم - إلا أن يؤدي إليكم رسالتنا ، ثم إلينا الثواب على الطاعة ، وعلينا العقاب على المعصية .

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ .

يقول : وغير خفي علينا المطيع منكم القابل رسالتنا العامل بما أمرته بالعمل به - من المعاصي الأبي رسالتنا التارك العمل بما أمرته بالعمل به ؛ لأننا نعلم ما عمله العامل منكم فأظهره بجوارحه ونطق

به لسانه. ﴿وَمَا تَكْتُمُونَ﴾، يعني: وما تخفون في أنفسكم من إيمان وكفر أو يقين وشك ونفاق.

يقول تعالى ذكره: فمن كان كذلك لا يخفى عليه شيء من ضمائر الصدور، وظواهر أعمال النفوس مما في السموات وما في الأرض وبيده الثواب والعقاب - فحقيق أن يتقى وأن يطاع فلا يعصى.

﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَالْوَعِيُّ وَالْوَعِيُّ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَأَتَقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَسِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ ﴿١٧٠﴾ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ سَوُؤُكُمْ وَإِن سَأَلْتُمُوهُنَّ إِن يَنْزِلَ الْفَرَقَةُ أَن تَبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ ﴿١٧٢﴾

يقول تعالى لرسوله ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿لَا يَسْتَوِي الْغَنِيُّ وَالْغَنِيُّ وَالْوَعِيُّ وَالْوَعِيُّ﴾ أى يا أيها الإنسان ﴿كَثْرَةُ الْغَنِيِّ﴾، يعنى أن القليل الحلال النافع خير من الكثير الحرام الضار، كما جاء فى الحديث «ما قل وكفى خير مما كثر وألهى» ^(١) وقال أبو القاسم البغوى ^(٢) فى معجمه: حدثنا أحمد بن زهير، حدثنا الحوطى، حدثنا محمد بن شعيب، حدثنا معان بن رفاعه عن أبى عبد الملك على بن يزيد عن القاسم، عن أبى امامة أنه أخبره عن ثعلبة بن حاطب الأنصارى قال: يا رسول الله، ادع الله أن يرزقنى مالاً، فقال النبى ﷺ «قليل تؤدى شكره، خير من كثير لا تطيقه» ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْبَسِ﴾ أى يا ذوى العقول الصحيحة المستقيمة، وتجنبوا الحرام ودعوه واقتنوا بالحلال واكتفوا به، ﴿لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ أى فى الدنيا والآخرة.

ثم قال تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ سَوُؤُكُمْ﴾ هذا تأديب من الله تعالى لعباده المؤمنين، ونهى لهم عن أن يسألوا ﴿عَنَ أَشْيَاءَ﴾ مما لا فائدة لهم فى السؤال والتنقيب عنها، لأنها إن أظهرت لهم تلك الأمور ربما ساءتهم وشق عليهم سماعها، كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال «لا يبلغنى أحد عن أحد شيئاً، إني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر» ^(٣) وقال البخارى ^(٤): حدثنا منذر بن الوليد بن عبد الرحمن الجارودى، حدثنا أبى، حدثنا شعبة عن موسى بن أنس، عن أنس بن مالك قال: خطب رسول الله ﷺ خطبة ما سمعت مثلها قط، قال: «لو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً». قال: فغطى أصحاب رسول الله ﷺ وجوههم لهم حنين، فقال رجل: من أبى؟ قال «فلان» فنزلت هذه الآية ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ﴾ رواه النضر وروح بن عبادة عن شعبة، وقد رواه البخارى فى غير هذا الموضع، ومسلم وأحمد والترمذى ^(٥) والنسائى من

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢١٢١٤)، من حديث أبى الدرداء، انظر صحيح الترغيب والترهيب (١٧٠٦).

(٢) ضعيف: أبو نعيم فى «معرفة الصحابة» (٢٧١/٣)، وفيه على بن يزيد الألهانى، قال الحافظ: ضعيف، وفيه معان بن رفاعه: لين الحديث.

(٣) ضعيف: أخرجه أبو داود (٤٨٦٠)، الترمذى (٣٨٩٧)، انظر ضعيف سنن أبى داود.

(٤) البخارى (٤٦٢١)، والنسائى فى «الكبرى» (٣٣٨/٦) برقم (١١١٥٤).

(٥) مسلم (٢٣٥٩)، أحمد (١٢٧٧٨)، من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه والترمذى بسند صحيح (٣٠٥٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه وانظر صحيح جامع الترمذى.

طرق عن شعبة بن الحجاج به .

وقال ابن جرير ^(١) : حدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة في قوله ﴿يَأْتِيهَا الزَّبْحُ مَأْمُوتًا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْبَابِهَا إِن تُبَدَّ لَكُمْ سَعُوذٌ﴾ الآية، قال : فحدثنا أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سأله حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال «لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بيته لكم» فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حضر، فجعلت لا ألتفت يمينًا ولا شمالًا إلا وجدت كلاً لأفا رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان يلاحى فيدعى إلى غير أبيه، فقال : يا نبي الله، من أبي؟ قال «أبوك حذافة». قال : ثم قام عمر - أو قال : فأنشأ عمر - فقال : رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً عائدًا بالله - أو قال : أعوذ بالله من شر الفتن - قال : وقال رسول الله ﷺ «لم أر في الخير والشر كالיום قط، صورت لى الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط»، أخرجاه ^(٢) من طريق سعيد، ورواه معمر عن الزهري، عن أنس بنحو ذلك، أو قريبًا منه . قال الزهري : فقالت أم عبد الله بن حذافة : ما رأيت ولدًا أعق منك قط، أكنت تأمن أن تكون أمك قد قارفت ما قارف أهل الجاهلية، فتفضحها على رؤوس الناس؟ فقال : والله لو ألقيني بعيد أسود للحقته .

وقال ابن جرير ^(٣) أيضًا : حدثنا الحارث، حدثنا عبد العزيز، حدثنا قيس عن أبي حصين، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال : خرج رسول الله ﷺ وهو غضبان، محمار وجهه، حتى جلس على المنبر فقام إليه رجل فقال : أين أبي؟ فقال : «فى النار»، فقام آخر فقال : من أبي؟ فقال «أبوك حذافة»، فقام عمر بن الخطاب فقال : رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وبالقرآن إمامًا، إنا يا رسول الله حديثو عهد بجاهلية وشرك، والله أعلم من آباؤنا . قال : فسكن غضبه، ونزلت هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الزَّبْحُ مَأْمُوتًا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْبَابِهَا إِن تُبَدَّ لَكُمْ سَعُوذٌ﴾ الآية، إسناده جيد، وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من السلف، منهم أسباط عن السدى أنه قال في قوله تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الزَّبْحُ مَأْمُوتًا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْبَابِهَا إِن تُبَدَّ لَكُمْ سَعُوذٌ﴾ قال : غضب رسول الله ﷺ يومًا من الأيام، فقام خطيبًا فقال «سلوني فإنكم لا تسألوني عن شيء إلا أنبأتكم به» فقام إليه رجل من قريش من بنى سهم يقال له عبد الله بن حذافة، وكان يطعن فيه، فقال : يا رسول الله، من أبي؟ فقال : أبوك فلان، فدعاه لأبيه، فقام إليه عمر بن الخطاب، فقبل رجله وقال : يا رسول الله، رضينا بالله ربًا، وبك نبيًا، وبالإسلام دينًا، وبالقرآن إمامًا، فاعف عنا عفا الله عنك، فلم يزل به حتى رضى فيومئذ قال «الولد للفراش، وللعاهر الحجر» .

ثم قال البخاري ^(٤) : حدثنا الفضل بن سهل، حدثنا أبو النضر، حدثنا أبو خيثمة، حدثنا أبو الجويرية عن ابن عباس رضى الله عنهما، قال : كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاء، فيقول الرجل : من أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته : أين ناقتي؟ فأنزل الله فيهم هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الزَّبْحُ مَأْمُوتًا

(١) ابن جرير (٨٠/٧) . (٢) البخاري يرقم (٧٠٩١)، مسلم (٢٣٥٩) بنحوه .

(٣) ضعيف : هذا السياق، وفي إسناده عبد العزيز بن أبان : متروك .

(٤) البخاري (٤٦٢٢) .

لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سَأَلُكُمْ ﴿١﴾ حتى فرغ من الآية كلها ، تفرد به البخارى . وقال الإمام أحمد ^(١) : حدثنا منصور بن وردان الأسدى ، حدثنا على بن عبد الأعلى عن أبيه ، عن أبي البخترى وهو سعيد بن فيروز ، عن على قال : لما نزلت هذه الآية ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران : ٩٧] قالوا : يا رسول الله ، فى كل عام؟ فسكت ، فقالوا : أفى كل عام؟ فسكت ، قال : ثم قالوا : أفى كل عام؟ فقال «لا» ، ولو قلت : نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم فأنزل الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سَأَلُكُمْ﴾ الآية ، كذا رواه الترمذى وابن ماجه ^(٢) من طريق منصور بن وردان به ، وقال الترمذى : غريب من هذا الوجه ، وسمعت البخارى يقول : أبو البخترى لم يدرك عليًا .

وقال ابن جرير ^(٣) : حدثنا أبو كريب ، حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن إبراهيم بن مسلم الهجرى ، عن أبي عياض ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج» فقال رجل : أفى كل عام يا رسول الله؟ فأعرض عنه حتى عاد مرتين أو ثلاثًا ، فقال «من السائل؟» فقال : فلان ، فقال «والذى نفسى بيده ، لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت عليكم ما أطقتموه ، ولو تركتموه لكفرتم» ، فأنزل الله عز وجل : ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سَأَلُكُمْ﴾ حتى ختم الآية ، ثم رواه ابن جرير من طريق الحسين بن واقد عن محمد بن زياد ، عن أبي هريرة وقال : فقام محصن الأسدى ، وفى رواية من هذه الطريق عكاشة بن محصن ، وهو أشبه ، وإبراهيم بن مسلم الهجرى ضعيف .

وقال ابن جرير ^(٤) أيضًا : حدثنى زكريا بن يحيى بن أبان المصرى ، حدثنا أبو زيد عبد الرحمن بن أبى الغمر ، حدثنا أبو مطيع معاوية بن يحيى عن صفوان بن عمرو ، حدثنى سليم بن عامر قال : سمعت أبا أمامة الباهلى يقول : قام رسول الله ﷺ فى الناس ، فقال «كتب عليكم الحج» فقام رجل من الأعراب فقال : أفى كل عام؟ قال : فغلق كلام رسول الله ﷺ ، وأسكت ، واستغضب ، ومكث طويلًا ، ثم تكلم فقال «من السائل؟» فقال الأعرابى : أنا ذا ، فقال «ويحك ماذا يؤمنك أن أقول نعم؟ والله لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت لكفرتم ، ألا إنه إنما أهلك الذين من قبلكم أئمة الحرج ، والله لو أنى أحللت لكم جميع ما فى الأرض وحرمت عليكم منها موضع خف ، لوقعتم فيه» قال : فأنزل الله عند ذلك ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سَأَلُكُمْ﴾ إلى آخر الآية ، فى إسناده ضعف ، وظاهر الآية النهى عن السؤال عن الأشياء التى إذا علم بها الشخص ساءته ، فالأولى الإعراض عنها وتركها ، وما أحسن الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال : حدثنا حجاج قال : سمعت إسرائيل بن يونس ، عن الوليد بن أبى هشام مولى الهمداني ، عن زيد بن زائد ، عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله ﷺ لأصحابه «لا يبلغنى أحد عن أحد شيئًا ، فإنى أحب أن أخرج إليكم

(١) المسند (٩٠٧) ، وفى إسناده عبد الأعلى بن عامر : ضعيف .

(٢) ضعيف : الترمذى (٨١٤) ، ابن ماجه (٢٨٨٤) ، انظر ضعيف جامع الترمذى .

(٣) حسن لغیره : وقد سبق تخريجه .

(٤) ابن جرير (٨٣/٧) ، وقال الحافظ : فى إسناده ضعف .

وأنا سليم الصدر^(١) الحديث، وقد رواه أبو داود والترمذى من حديث إسرائيل، قال أبو داود عن الوليد، وقال الترمذى عن إسرائيل عن السدى، عن الوليد بن أبى هشام به، ثم قال الترمذى: غريب من هذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ﴾ أى وإن تسألوا عن هذه الأشياء التى نهيتم عن السؤال عنها حين ينزل الوحي على رسول الله ﷺ تبين لكم «وذلك يسيراً»، ثم قال ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أى عما كان منكم قبل ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾. وقيل: المراد بقوله ﴿وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ﴾ أى لا تسألوا عن أشياء تستأنفون السؤال عنها، فلعله قد ينزل بسبب سؤالكم تشديد أو تضييق، وقد ورد فى الحديث «أعظم المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم، فحرم من أجل مسألته»^(٢) ولكن إذا نزل القرآن بها مجملة فسألتم عن بيانها، حيثئذ تبينت لكم لاحتياجكم إليها، ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ أى ما لم يذكره فى كتابه فهو مما عفا عنه، فاستكتوا أنتم عنها كما سكت عنها، وفى الصحيح^(٣) عن رسول الله ﷺ أنه قال «ذرونى ما تركتكم، فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم» وفى الحديث الصحيح أيضاً «أن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدوداً فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»^(٤)

ثم قال تعالى: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ﴾ أى قد سأل هذه المسائل المنهى عنها قوم من قبلكم فأجيبوا عنها، ثم لم يؤمنوا بها، فأصبحوا بها كافرين أى بسببها، أن بينت لهم فلم ينتفعوا بها لأنهم لم يسألوا على وجه الاسترشاد وإنما سألوا على وجه التعنت والعدا. قال العوفي: عن ابن عباس قوله: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدِّلْ لَكُمْ سَعْتَكُمْ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ أذن فى الناس فقال «يا قوم كتب عليكم الحج» فقام رجل من بنى أسد فقال: يا رسول الله، أفى كل عام؟ فأغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً، فقال «والذى نفسى بيده، لو قلت: نعم لوجبت، ولو وجبت ما استطعتم، وإذا لكفرتم، فاتركونى ما تركتكم، وإذا أمرتكم بشيء فافعلوا، وإذا نهيتكم عن شيء فانتهوا عنه» فأنزل الله هذه الآية نهاهم أن يسألوا عن مثل الذى سألت النصرارى من المائدة، فأصبحوا بها كافرين، فهى الله عن ذلك وقال: لا تسألوا عن أشياء إن نزل القرآن فيها بتغليظ ساءكم ذلك، ولكن انتظروا، فإذا نزل القرآن فإنكم لا تسألون عن شيء إلا وجدتم تبيانه، رواه ابن جرير^(٥).

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبَدِّلْ لَكُمْ سَعْتَكُمْ﴾ وإن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدِّلْ لَكُمْ﴾ قال: لما نزلت آية الحج، نادى النبى ﷺ فى الناس فقال «يا أيها

(٢) سبق تخريجه.

(١) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) انظر تفسير ابن جرير (٧/٨٥).

(٥) حسن لغيره: ابن جرير (٧/٨٣) وهو ضعيف من هذا الطريق فإنه من طريق عطية العوفي وهو ضعيف ملس، وأصله صحيح كما تقدم فيما سبق من روايات لكن تابعه على بن أبى طلحة فى الرواية التى بعده وفيها انقطاع.

الناس إن الله قد كتب عليكم الحج فحجوا» فقالوا: يا رسول الله، أعامًا واحدًا، أم كل عام؟ فقال «لا بل عامًا واحدًا، ولو قلت: كل عام لوجبت، ولو وجبت لكفرتم». ثم قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ بُدِّ لَكُمْ سَأَلُكُمْ﴾ إلى قوله ﴿ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَفِيرِينَ﴾ رواه ابن جرير. وقال خصيف، عن مجاهد، عن ابن عباس ﴿لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ﴾ قال: هي البحيرة والوصيلة والسائبة والحام، ألا ترى أنه قال بعدها ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ﴾ ولا كذا ولا كذا، قال: وأما عكرمة فقال: إنهم كانوا يسألونه عن الآيات فنهوا عن ذلك، ثم قال ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَفِيرِينَ﴾ رواه ابن جرير، يعني عكرمة رحمه الله أن المراد من هذا النهى عن سؤال وقوع الآيات كما سألت قريش أن يجرى لهم أنهارًا، وأن يجعل لهم الصفا ذهبًا وغير ذلك، وكما سألت اليهود أن ينزل عليهم كتابًا من السماء. وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآيَاتِنَا تُوَدُّ الثَّاقَةَ بُحَيْرَةً فَلَقَلَّمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الاسراء: ٥٩] وقال تعالى: ﴿وَأَسْمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِمْ مَائِدَةً يَوْمَ تَأْتِيهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ يَأْتِيهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوْلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طَلْعَيْنِهِمْ يَمَّهِونَ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَائِدَةَ وَكَلَّمَهُمُ التَّورَةَ وَحَسْرَةً عَلَيْهِمْ كُلِّ شَيْءٍ قَلَبُوا مَّا كَانُوا يَلْمِزُونَنَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الانعام: ١٠٩-١١١].

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُحَيْرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾

قال البخارى ^(١): حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب، قال: البحيرة التي يمنع درها للطواغيت، فلا يحلبها أحد من الناس، والسائبة كانوا يسيبونها لألهتهم لا يحمل عليها شيء. قال: وقال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ «رأيت عمرو بن عامر الخزاعي يجر قصبه في النار، كان أول من سيب السوائب». والوصيلة: الناقة البكر تبكر في أول نتاج الإبل، ثم تتثنى بعد بأثنى، وكانوا يسيبونها لطواغيتهم إن وصلت إحدهما بالأخرى ليس بينهما ذكر، والحام: فحل الإبل يضرب الضراب المعدود، فإذا قضى ضرابه ودعوه للطواغيت وأغفوه عن الحمل، فلم يحمل عليه شيء، وسموه الحامى، وكذا رواه مسلم والنسائي ^(٢) من حديث إبراهيم بن سعد به، ثم قال البخارى: وقال لنا أبو اليمان، أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: سمعت سعيدًا يخبر بهذا. وقال أبو هريرة، عن النبي ﷺ نحوه.

ورواه ابن الهاد عن ابن شهاب، عن سعيد، عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه، عن النبي ﷺ. قال الحاكم: أراد البخارى أن يزيد بن عبد الله بن الهاد رواه عن عبد الوهاب بن بخت، عن الزهري، كذا حكاه شيخنا أبو الحجاج المزى في الأطراف، وسكت ولم ينبه عليه، وفيما قاله الحاكم نظر، فإن الإمام أحمد وأبا جعفر بن جرير روياه من حديث الليث بن سعد، عن ابن الهاد، عن الزهري نفسه،

(١) البخاري برقم (٤٦٢٣).

(٢) مسلم برقم (١٨٥٦)، والنسائي في «الكبرى» (٣٣٨/٦) برقم (١١١٥٦).

والله أعلم .

ثم قال البخاري^(١) : حدثنا محمد بن أبي يعقوب أبو عبد الله الكرماني ، حدثنا حسان بن إبراهيم ، حدثنا يونس عن الزهري ، عن عروة أن عائشة رضی الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ « رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً ، ورأيت عمراً يجرقصه وهو أول من سيب السوائب » تفرد به البخاري .

وقال ابن جرير^(٢) : حدثنا هناد ، حدثنا يونس بن بكير ، حدثنا محمد بن إسحاق ، حدثنا محمد بن إبراهيم بن الحارث عن أبي صالح ، عن أبي هريرة ، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون : « يا أكثم ، رأيت عمرو بن لحي بن قعدة بن خندف يجرقصه في النار ، فما رأيت رجلاً أشبه برجل به منك ، ولا منك به » . فقال أكثم : تخشى أن يضرني شبهه يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ « لا ، إنك مؤمن وهو كافر ، إنه أول من غير دين إبراهيم ، وبحر البحيرة ، وسيب السائبة ، وحمى الحامي » ، ثم رواه عن هناد ، عن عبدة ، عن محمد بن عمرو ، عن أبي سلمة ، عن أبي هريرة ، عن النبي ﷺ بنحوه أو مثله ، ليس هذان الطريقتان في الكتب .

وقال الإمام أحمد^(٣) : حدثنا عمرو بن مجمع ، حدثنا إبراهيم الهجري عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود ، عن النبي ﷺ ، قال « إن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر ، وإن رأيت يجرقص أمعاء في النار » ، تفرد به أحمد من هذا الوجه . وقال عبد الرزاق^(٤) : أنبأنا معمر عن زيد بن أسلم ، قال : قال رسول الله ﷺ « إنى لأعرف أول من سيب السوائب ، وأول من غير دين إبراهيم عليه السلام » قالوا : من هو يا رسول الله ؟ قال « عمرو بن لحي أخو بني كعب ، لقد رأيت يجرقصه في النار ، يؤذى ريحه أهل النار ، وإنى لأعرف أول من بحر البحائر » قالوا : ومن هو يا رسول الله ؟ قال « رجل من بني مدليج ، كانت له ناقتان ، فجدع أذانهما ، وحرم ألبانهما ، ثم شرب ألبانهما بعد ذلك ، فلقد رأيت في النار وهما يعضانه بأفواههما ، ويخبطانه بأخفافهما » . فعمرو هذا هو ابن لحي بن قعدة ، أحد رؤساء خزاعة الذين ولوا البيت بعد جرهم وكان أول من غير دين إبراهيم الخليل ، فأدخل الأصنام إلى الحجاز ، ودعا الرعاع من الناس إلى عبادتها والتقرب بها ، وشرع لهم هذه الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها ، كما ذكره الله تعالى في سورة الأنعام عند قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِثْلًا دَرًا مِثْلَ الْحَكْرَبِ وَالْأَنْكَبِ نَسِيبًا ﴾ [الأنعام : ١٣٦] إلى آخر الآيات في ذلك .

فأما البحيرة ، فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس رضی الله عنهما : هي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن ، نظروا إلى الخامس ، فإن كان ذكراً ذبحوه ، فأكله الرجال دون النساء ، وإن كان أنثى جدعوا أذانهما ، فقالوا : هذه بحيرة . وذكر السدي وغيره قريباً من هذا ، وأما السائبة فقال مجاهد هي من الغنم نحو ما فسر من البحيرة إلا أنها ما ولدت من ولد بينها وبينه ستة أولاد ، كانت على هيتها ، فإذا ولدت السابع ذكراً أو ذكراً ذبحوه ، فأكله رجالهم دون نساءهم وقال محمد بن إسحاق ، السائبة هي الناقة إذا ولدت عشر إناث من الولد ليس بينهم ذكر ، سببت فلم تركب ولم يجز ويرها ولم يحلب لبنها إلا

(٢) حسن : ابن جرير (٧/٨٦) .

(١) البخاري برقم (٤٦٢٤) .

(٣) صحيح : المسند (٤٢٤٦) ، انظر صحيح الجامع (٢٠٢٤) .

(٤) مرسل : عبد الرزاق (٣/١٠٠) .

الضيف. وقال أبو روق: السائبة كان الرجل إذا خرج فقضيت حاجته، سيب من ماله ناقة أو غيرها، فجعلها للطواغيت، فما ولدت من شيء كان لها. وقال السدى: كان الرجل منهم إذا قضيت حاجته، أو عوفى من مرض، أو كثر ماله، سيب شيئاً من ماله للأوثان، فمن عرض له من الناس عوقب بعقوبة في الدنيا.

وأما الوصيلة، فقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هي الشاة إذا نتجت سبعة أبطن، نظروا إلى السابع، فإن كان ذكراً أو أنثى وهو ميت اشترك فيه الرجال دون النساء، وإن كان أنثى استحيوها، وإن كان ذكراً وأنثى في بطن واحد استحيوهما وقالوا: وصلته أخته فحرمته علينا، رواه ابن أبي حاتم. وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن الزهري، عن سعيد بن المسيب ﴿وَلَا وَصِيَلَهُ﴾، قال: فالوصيلة من الإبل كانت الناقة تبتكر بالأنثى، ثم تثني بأنثى فيسمونها الوصيلة، ويقولون: وصلت أنثين ليس بينهما ذكر، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم، وكذا روى عن الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى. وقال محمد بن إسحاق: الوصيلة من الغنم إذا ولدت عشر إناث في خمسة أبطن، توأمين توأمين في كل بطن سميت الوصيلة وتركت، فما ولدت بعد ذلك من ذكر أو أنثى جعلت للذكور دون الإناث، وإن كانت ميتة اشتركوا فيها.

وأما الحام: فقال العوفى عن ابن عباس، قال: كان الرجل إذا لقح فحله عشراً قيل: حام فاتركوه، وكذا قال أبو روق وقتادة. وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: وأما الحام فالفحل من الإبل إذا ولد لولده قالوا: حمى هذا ظهره، فلا يحملون عليه شيئاً ولا يجزون له ويراً، ولا يمنعونه من حمى رعى، ومن حوض يشرب منه، وإن كان الحوض لغير صاحبه. وقال ابن وهب: سمعت مالكا يقول: أما الحام فمن الإبل، كان يضرب في الإبل فإذا انقضى ضرابه جعلوا عليه ريش الطواويس وسيبوه، وقد قيل غير ذلك في تفسير هذه الآية.

وقد ورد في ذلك حديث رواه ابن أبي حاتم^(١) من طريق أبي إسحاق السبيعي، عن أبي الأحوص الجشمي، عن أبيه مالك بن نضلة، قال: أتيت النبي ﷺ في خلقان من الثياب، فقال لي «هل لك من مال؟» فقلت: نعم. قال «من أى المال؟» قال: فقلت: من كل المال: من الإبل، والغنم، والخيول، والرقيق، قال «فإذا أتاك الله مالاً فلير عليك»، ثم قال «تنتج إبلك وافية آذانها؟» قال: قلت: نعم، قال: وهل تنتج الإبل إلا كذلك؟ قال «فلعلك تأخذ موسى فتقطع آذان طائفة منها وتقول: هذه بحير، وتشق آذان طائفة منها وتقول: هذه حرم» قلت: نعم. قال «فلا تفعل إن كل ما أتاك الله لك حل»، ثم قال «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بُيُوتٍ وَلَا سَكَنٍ وَلَا وَصِيَلَةٍ وَلَا حَائِرٍ». أما البحيرة، فهي التي يجدعون آذانها فلا تنتفع امرأتها ولا بناته ولا أحد من أهل بيته بصوفها ولا أوبارها ولا أشعارها ولا ألبانها، فإذا ماتت اشتركوا فيها.

وأما السائبة، فهي التي يسيبون لآلهتهم ويذهبون إلى آلهتهم فيسيبونها، وأما الوصيلة، فالشاة تلد ستة أبطن، فإذا ولدت السابع جدعت وقطع قرننها، فيقولون: قد وصلت فلا يذبحونها، ولا تضرب ولا تمنع مهما وردت على حوض، هكذا يذكر تفسير ذلك مدرجاً في الحديث.

(١) صحيح: ابن أبي حاتم (٤/١٢٢٠).

وقد روى وجه آخر عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص عوف بن مالك، من قوله، وهو أشبه، وقد روى هذا الحديث الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة، عن أبي الزعراء عمرو بن عمرو، عن عمه أبي الأحوص عوف بن مالك بن نضلة، عن أبيه به، وليس فيه تفسير هذه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أى ما شرع الله هذه الأشياء ولا هى عنده قربة، ولكن المشركين افتروا ذلك وجعلوه شرعاً لهم، وقربة يتقربون بها إليه، وليس ذلك بحاصل لهم بل هو وبال عليهم ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَسَالَوْا إِنَّا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ أى إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه، وترك ما حرمه، قالوا: يكفيننا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك. قال الله تعالى: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا يَلْمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ أى لا يفهمون حقاً ولا يعرفونه ولا يهتدون إليه، فكيف يتبعونهم والحالة هذه، لا يتبعهم إلا من هو أجهل منهم وأضل سبيلاً.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٣٥﴾﴾

يقول تعالى أمراً عباده المؤمنين أن يصلحوا أنفسهم، ويفعلوا الخير بجهدهم وطاقتهم، ومخبراً لهم أنه من أصلح أمره لا يضره فساد من فسد من الناس، سواء كان قريباً منه أو بعيداً. قال العوفى عن ابن عباس عند تفسير هذه الآية يقول تعالى: إذا ما العبد أطاعنى فيما أمرته به من الحلال، ونهيته عنه من الحرام، فلا يضره من ضل بعده إذا عمل بما أمرته به، وكذا روى الوالىبى عنه، وهكذا قال مقاتل بن حيان، فقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ نصب على الإغراء، ﴿لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فِيمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أى فيجازى كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر، وليس في الآية مستدل على ترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، إذا كان فعل ذلك ممكنًا.

وقد قال الإمام أحمد^(١) رحمه الله: حدثنا هاشم بن القاسم، حدثنا زهير يعنى ابن معاوية، حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، حدثنا قيس قال: قام أبو بكر الصديق رضى الله عنه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه، أو شك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه». قال: وسمعت أبا بكر يقول: يا أيها الناس إياكم والكذب، فإن الكذب بجانب الإيمان، وقد روى هذا الحديث أصحاب السنن الأربعة^(٢)، وابن حبان فى صحيحه، وغيرهم من طرق كثيرة عن جماعة كثيرة، عن إسماعيل بن أبى خالد به، متصلاً مرفوعاً، ومنهم من رواه عنه به موقوفاً على الصديق، وقد رجح رفعه الدارقطنى وغيره، وذكرنا طرقه والكلام عليه مطولاً فى مسند الصديق رضى الله عنه.

(١) المسند (١٧) ورجاله ثقات.

(٢) صحيح: أبو داود (٤٣٣٨)، الترمذى (٢١٦٨)، ابن ماجه (٤٠٠٥)، انظر صحيح سنن أبى داود.

وقال أبو عيسى الترمذى ^(١): حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقاني، حدثنا عبد الله بن المبارك، حدثنا عتبة بن أبي حكيم، حدثنا عمرو بن جارية اللخمي عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الخشني فقلت له: كيف تصنع في هذه الآية؟ فقال: أي آية؟ قلت: قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياماً، الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم» قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة، قيل: يا رسول الله، أجر خمسين رجلاً منا أو منهم؟ قال: «بل أجر خمسين منكم»، ثم قال الترمذى: هذا حديث حسن غريب صحيح، وكذا رواه أبو داود ^(٢) من طريق ابن المبارك، ورواه ابن ماجه ^(٣) وابن جرير وابن أبي حاتم ^(٤) عن عتبة بن أبي حكيم.

وقال عبد الرزاق: أنبأنا معمر عن الحسن بن مسعود رضى الله عنه، سأله رجل عن قول الله ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، فقال: إن هذا ليس بزمانها، إنها اليوم مقبولة، ولكنه قد أوشك أن يأتي زمانها، تأمرون فيصنع بكم كذا وكذا، أو قال: فلا يقبل منكم، فحينئذ ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ﴾. ورواه أبو جعفر الرازي عن الربيع، عن أبي العالية، عن ابن مسعود في قوله ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ الآية، قال: كانوا عند عبد الله بن مسعود جلوساً، فكان بين رجلين بعض ما يكون بين الناس، حتى قام كل واحد منهما إلى صاحبه، فقال رجل من جلساء عبد الله: ألا أقوم فأمرهما بالمعروف، وأنهاهما عن المنكر؟ فقال آخر إلى جنبه: عليك بنفسك، فإن الله يقول ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾. قال: فسمعها ابن مسعود، فقال: مه لم يجرى تأويل هذه بعد، إن القرآن أنزل حيث أنزل، ومنه آى قد مضى تأويلهن قبل أن ينزلن، ومنه آى قد وقع تأويلهن على عهد رسول الله ﷺ ومنه آى قد وقع تأويلهن بعد النبى ﷺ ييسير، ومنه آى يقع تأويلهن بعد اليوم، ومنه آى يقع تأويلهن عند الساعة على ما ذكر من الساعة، ومنه آى يقع تأويلهن يوم الحساب على ما ذكر من الحساب والجنة والنار، فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تلبسوا شيعاً، ولم يذق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهاؤا، وإذا اختلفت القلوب والأهواء، والبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض، فأمره ونفسه، وعند ذلك جاءنا تأويل هذه الآية، رواه ابن جرير.

وقال ابن جرير: حدثنا الحسن بن عرفة، حدثنا شبابة بن سوار، حدثنا الربيع بن صبيح، عن سفيان بن عقال قال: قيل لابن عمر: لو جلست في هذه الأيام، فلم تأمر ولم تنه، فإن الله قال ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال ابن عمر: إنها ليست لى ولا لأصحابى، إن رسول الله ﷺ

(١) ضعيف: الترمذى (٣٠٥٨)، انظر ضعيف جامع الترمذى.

(٢) ضعيف: أبو داود (٤٣٤١)، انظر ضعيف سنن أبي داود.

(٣) ضعيف: ابن ماجه (٤٠١٤)، انظر ضعيف سنن ابن ماجه.

(٤) ابن جرير (٩٧/٧)، وابن أبي حاتم وانظر ما قبله.

قال «ألا فليبلغ الشاهد الغائب» فكانا نحن الشهود وأنتم الغيب، ولكن هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا إن قالوا لم يقبل منهم. وقال أيضًا: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا محمد بن جعفر وأبو عاصم، قالوا: حدثنا عوف عن سوار بن شبيب قال: كنت عند ابن عمر إذ أتاه رجل جليد في العين شديد اللسان، فقال: يا أبا عبد الرحمن، نفر ستة كلهم قد قرأ القرآن فأسرع فيه، وكلهم مجتهد لا يألو، وكلهم يغيض إليه أن يأتي دناءة، وهم في ذلك يشهد بعضهم على بعض بالشرك، فقال رجل من القوم: وأي دناءة تريد أكثر من أن يشهد بعضهم على بعض بالشرك؟ فقال رجل: إني لست إياك أسأل، إنما أسأل الشيخ، فأعاد على عبد الله الحديث فقال عبد الله: لعلك ترى - لا أبا لك - إني سأمرك أن تذهب فتقتلهم، عظمهم وانهمهم، فإن عصوك فعليك بنفسك، فإن الله عز وجل يقول ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أِهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنْفِكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وقال أيضًا: حدثني أحمد بن المقدم، حدثنا المعتمر بن سليمان، سمعت أبي، حدثنا قتادة عن

أبي مازن قال: انطلقت على عهد عثمان إلى المدينة، فإذا قوم من المسلمين جلوس، فقرأ أحدهم هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ﴾ فقال أكبرهم: لم يجز تأويل هذه الآية اليوم. وقال: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا ابن فضالة عن معاوية بن صالح، عن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحاب رسول الله ﷺ، وإني لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أِهْتَدَيْتُمْ؟﴾ فأقبلوا على بلسان واحد، وقالوا: تنزع آية من القرآن لا تعرفها ولا تدري ما تأويلها؟ حتى تمنيت أني لم أكن تكلمت، وأقبلوا يتحدثون فلما حضر قيامهم قالوا: إنك غلام حدث السن، وإنك نزعنا بآية ولا تدري ما هي، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شحًا مطاعًا وهوى متبعًا وإعجاب كل ذي رأى برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت.

وقال ابن جرير: حدثنا علي بن سهل، حدثنا ضمرة بن ربيعة قال: تلا الحسن هذه الآية ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أِهْتَدَيْتُمْ﴾ فقال الحسن: الحمد لله بها، والحمد لله عليها، ما كان مؤمن فيما مضى ولا مؤمن فيما بقى إلا وإلى جانبه منافق يكره عمله. وقال سعيد بن المسيب: إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك من ضل إذا اهتديت، رواه ابن جرير. وكذا روى من طريق سفيان الثوري، عن أبي العميس، عن أبي البختری، عن حذيفة مثله. وكذا قال غير واحد من السلف. وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا هشام بن خالد الدمشقي، حدثنا الوليد، حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب، عن كعب في قوله ﴿عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا أِهْتَدَيْتُمْ﴾ قال: إذا هدمت كنيسة دمشق فجعلت مسجدًا، وظهر لبس العصب، فحينئذ تأويل هذه الآية.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَشَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخِرَانِ مِّنْ عَرَبِكُمْ إِنْ أَنتُمْ حَضَرْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْعَسَلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ قَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لِين

الْأُولَىٰ ۖ فَإِنَّ عُثْرَ عَلَيْهِمَ أَنْهَمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولَىٰ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَدَتَيْهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٧٢﴾ ذَلِكَ آدَاءٌ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهَيْهَا أَوْ يَحْفَافُوا أَنْ تَرَدَّ أَيْمَانُ بَعْدَ أَيْمَانِهِمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَسْمِعُوا لِلَّهِ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٧٣﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على حكم عزيز قيل إنه منسوخ، رواه العوفي عن ابن عباس. وقاله حماد بن أبي سليمان، عن إبراهيم: إنها منسوخة. وقال آخرون: وهم الأكرثون فيما قاله ابن جرير، بل هو محكم، ومن ادعى النسخ فعليه البيان، فقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ﴾ هذا هو الخبر لقوله ﴿شَهَادَةٌ بَيْنَكُمْ﴾ فقيل: تقديره شهادة اثنين حذف المضاف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: دل الكلام على تقدير أن يشهد اثنان. وقوله تعالى: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ وصف الاثنين بأن يكونا عدلين. وقوله ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أى من المسلمين. قاله الجمهور. قال على بن أبي طلحة، عن ابن عباس رضى الله عنه فى قوله ﴿ذَوَا عَدْلٍ بَيْنَكُمْ﴾ قال: من المسلمين، رواه ابن أبى حاتم، ثم قال: روى عن عبيدة وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد ويحيى بن يعمر والسدى وقتادة ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم نحو ذلك. قال ابن جرير: وقال آخرون: عنى بذلك ﴿ذَوَا عَدْلٍ بَيْنَكُمْ﴾ أى من حى الموصى، وذلك قول روى عن عكرمة وعبيدة وعدة غيرهما.

وقوله ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا سعيد بن عون، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا حبيب بن أبى عمرة عن سعيد بن جبيرة قال: قال ابن عباس فى قوله ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ قال: من غير المسلمين، يعنى أهل الكتاب، ثم قال وروى عن عبيدة وشريح وسعيد بن المسيب ومحمد بن سيرين ويحيى بن يعمر وعكرمة ومجاهد وسعيد بن جبيرة والشعبى وإبراهيم النخعى وقتادة وأبى مجلز والسدى ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيرهم، نحو ذلك. وعلى ما حكاه ابن جرير عن عكرمة وعبيدة فى قوله ﴿بَيْنَكُمْ﴾ أن المراد من قبيلة الموصى يكون المراد هاهنا ﴿أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ أى من غير قبيلة الموصى. وروى ابن أبى حاتم مثله عن الحسن البصرى والزهرى رحمهما الله.

وقوله تعالى: ﴿إِن أَنْتَ ضَرِيئٌ فِي الْأَرْضِ﴾ أى سافرتم ﴿فَأَصْبَحْتُمْ تَتِيبَةُ الْمَوْتِ﴾ وهذان شرطان لجواز استشهاد الذميين عند فقد المؤمنين أن يكون ذلك فى سفر، وأن يكون فى وصية، كما صرح بذلك شريح القاضى. قال ابن جرير: حدثنا عمرو بن على، حدثنا أبو معاوية ووكيع، قالوا: حدثنا الأعمش عن إبراهيم، عن شريح قال: لا تجوز شهادة اليهود والنصارى إلا فى سفر، ولا تجوز فى سفر إلا فى الوصية، ثم رواه عن أبى كريب، عن أبى بكر بن عياش، عن أبى إسحاق السبيعى قال: قال شريح فذكر مثله. وقد روى مثله عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، وهذه المسألة من أفرادها، وخالفه الثلاثة فقالوا: لا تجوز شهادة أهل الذمة على المسلمين، وأجازها أبو حنيفة فيما بين بعضهم بعضاً.

وقال ابن جرير: حدثنا عمرو بن علي، حدثنا أبو داود، حدثنا صالح بن أبي الأخضر، عن الزهري قال: مضت السنة أنه لا تجوز شهادة الكافر في حضر ولا سفر، إنما هي في المسلمين. وقال ابن زيد: نزلت هذه الآية في رجل توفى وليس عنده أحد من أهل الإسلام، وذلك في أول الإسلام، والأرض حرب، والناس كفار، وكان الناس يتوارثون بالوصية ثم نسخت الوصية، وفرضت الفرائض وعمل الناس بها، رواه ابن جرير، وفي هذا نظر، والله أعلم.

وقال ابن جرير: اختلف في قوله ﴿شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمْ أَلْمُوتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ أَشْتَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ الْخَرَائِنَ مِّنْ عَيْرِكُمْ﴾ هل المراد أن يوصى إليهما أو يشهدهما؟ على قولين (أحدهما) أن يوصى إليهما، كما قال محمد بن إسحاق عن يزيد بن عبد الله بن قسيط قال: سئل ابن مسعود رضى الله عنه عن هذه الآية. قال: هذا رجل سافر ومعه مال، فأدركه قدره، فإن وجد رجلين من المسلمين دفع إليهما تركته، وأشهد عليهما عدلين من المسلمين، رواه ابن أبي حاتم وفيه انقطاع. (والقول الثاني) أنهما يكونان شاهدين، وهو ظاهر سياق الآية الكريمة فإن لم يكن وصى ثالث معهما، اجتمع فيهما الوصفان: الوصاية والشهادة، كما في قصة تميم الداري وعدى بن بداء، كما سيأتي ذكرهما آنفاً إن شاء الله وبه التوفيق.

وقد استشكل ابن جرير كونهما شاهدين قال: لأننا لا نعلم حكماً يحلف فيه الشاهد، وهذا لا يمنع الحكم الذي تضمنته هذه الآية الكريمة، وهو حكم مستقل بنفسه لا يلزم أن يكون جارياً على قياس جميع الأحكام، على أن هذا حكم خاص، بشهادة خاصة، في محل خاص، وقد اغتفر فيه من الأمور ما لم يغتفر في غيره، فإذا قامت قرائن الريبة، حلف هذا الشاهد بمقتضى ما دلت عليه هذه الآية الكريمة. وقوله تعالى ﴿تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَدَلِ الصَّلَاةِ﴾ قال العوفي، قال ابن عباس، يعني صلاة العصر، وكذا قال سعيد بن جبيرة وإبراهيم النخعي وقتادة وعكرمة ومحمد بن سيرين. وقال الزهري: يعني صلاة المسلمين. وقال السدي، عن ابن عباس: يعني صلاة أهل دينهما. وروى عن عبد الرزاق، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن عبيدة. وكذا قال إبراهيم وقتادة وغير واحد.

والمقصود أن يقام هذان الشاهدان بعد صلاة اجتمع الناس فيها بحضرتهم ﴿فَيَقْسِمَانِ بِأَقْوَى﴾ أى فيحلفان بالله ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾ أى إن ظهرت لكم منهما ريبة أنهما قد خاننا أو غلا، فيحلفان حيثما بالله ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِ﴾ أى بأيماننا، قاله مقاتل بن حيان ﴿شَتَا﴾ أى لا نعتاض عنه بعوض قليل من الدنيا الفانية الزائلة ﴿وَلَوْ كَانَ تَأْرِيْفٌ﴾ أى ولو كان المشهود عليه قريباً إلينا لا نحابه ﴿وَلَا نَكْتُرُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ أضافها إلى الله تشريفاً لها وتعظيماً لأمرها، وقرأ بعضهم ﴿وَلَا نَكْتُرُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ مجروراً على القسم رواها ابن جرير، عن عامر الشعبي، وحكى عن بعضهم أنه قرأها ﴿وَلَا نَكْتُرُ شَهَادَةَ اللَّهِ﴾ والقراءة الأولى هي المشهورة ﴿إِنَّا إِذَا لِينَ الْأَوَّلِينَ﴾ أى إن فعلنا شيئاً من ذلك من تحريف الشهادة أو تبديلها أو تغييرها أو كتمها بالكلية.

ثم قال تعالى: ﴿إِن مِّنْ عِدَّةٍ عَلَيْهِمْ أَن يَتَسَوَّأَ﴾ أى فإن اشتهر وظهر وتحقق من الشاهدين الوصيين أنهما خاننا أو غلا شيئاً من المال الموصى به إليهما، وظهر عليهما بذلك ﴿فَتَخَرَّانِ يَوْمَئِذٍ مَّوَاهِمَهُمَا مَنَ الْأَيْدِيَّ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ﴾ هذه قراءة الجمهور ﴿أَسْتَسَخَّرَ عَلَيْهِمُ الْأَوَّلِينَ﴾ وروى عن علي وأبي

والحسن البصرى أنهم قرءوها «استحقَّ عليهم الأولين» وقد روى الحاكم فى المستدرک من طريق إسحاق بن محمد الفروى عن سليمان بن بلال عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن عبيد الله بن أبى رافع، عن على بن أبى طالب رضى الله عنه أن النبى ﷺ قرأ ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ﴾، ثم قال: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. وقرأ بعضهم ومنهم ابن عباس «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ». وقرأ الحسن «مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ» حكاه ابن جرير، فعلى قراءة الجمهور يكون المعنى بذلك أى متى تحقق ذلك بالخبر الصحيح على خيانتها، فليقم اثنان من الورثة المستحقين للتركة، وليكونا من أولى من يرث ذلك المال ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَدَتِهِمَا﴾ أى لقولنا إنهما خانا، أحق وأصح وأثبت من شهادتهما المتقدمة ﴿وَمَا اعْتَدَيْنَا﴾ أى فيما قلنا من الخيانة، ﴿إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ أى إن كنا قد كذبنا عليهما، وهذا التحليف للورثة والرجوع إلى قولهما والحالة هذه، كما يحلف أولياء المقتول إذا ظهر لوث فى جانب القاتل، فيقسم المستحقون على القاتل فيدفع برمه إليهم كما هو مقرر فى باب القسامة من الأحكام، وقد وردت السنة بمثل ما دلت عليه هذه الآية الكريمة، فقال ابن أبى حاتم^(١): حدثنا أبى، حدثنا الحسين بن زياد، حدثنا محمد بن سلمة عن محمد بن إسحاق، عن أبى النضر، عن باذان يعنى أبا صالح مولى أم هانئ بنت أبى طالب، عن ابن عباس، عن تميم الدارى فى هذه الآية ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ قال: برئ الناس منها غيرى وغير عدى بن بداء، وكانا نصرانيين يختلفان إلى الشام قبل الإسلام، فأتيا الشام لتجارتهما، وقدم عليهما مولى لبنى سهم يقال له بديل بن أبى مريم بتجارة، ومعه جام من فضة يريد به الملك، وهو عظم تجارته، فمرض فأوصى إليهما وأمرهما أن يبلغا ما ترك أهله. قال تميم: فلما مات أخذنا ذلك الجام فبعناه بألف درهم، ثم اقتسمناه أنا وعدى، فلما قدمنا إلى أهله دفعنا إليهم ما كان معنا، وفقدوا الجام، فسألونا عنه، فقلنا: ما ترك غير هذا وما دفع إلينا غيره. قال تميم: فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة، تأثمت من ذلك، فأتيت أهله، فأخبرتهم الخبر، ودفعت إليهم خمسمائة درهم، وأخبرتهم أن عند صاحبى مثلها، فوثبوا إليه، فأمرهم النبى أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف، فأنزل الله ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا شَهْدَةٌ بَيْنَكُمْ﴾ إلى قوله ﴿فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَدَتُنَا أَحَقُّ مِن شَهَدَتِهِمَا﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر منهم، فحلفا، فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء، وهكذا رواه أبو عيسى الترمذى وابن جرير، كلاهما عن الحسن بن أحمد بن أبى شعيب الحرانى، عن محمد بن سلمة، عن محمد بن إسحاق به، فذكره، وعنده: فأتوا به رسول الله ﷺ فسألهم البيعة، فلم يجدوا، فأمرهم أن يستحلفوه بما يعظم به على أهل دينه، فحلف، فأنزل الله هذه الآية إلى قوله ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدُّ إِلَيْنُ بِدَىٰ آيَاتِهِمْ﴾ فقام عمرو بن العاص ورجل آخر فحلفا، فنزعت الخمسمائة من عدى بن بداء، ثم قال: هذا حديث غريب، وليس إسناده بصحيح، وأبو النضر الذى روى عنه محمد بن إسحاق هذا الحديث، هو عندى محمد بن السائب الكلبي، يكنى أبا النضر، وقد تركه أهل العلم بالحديث، وهو صاحب التفسير، سمعت محمد بن إسماعيل يقول: محمد بن

(١) ابن أبى حاتم (٤/ ١٢٣٠)، من طريق أبى النضر وهو محمد بن السائب الكلبي: متروك وشيخه بازام: ضعيف: ومحمد بن إسحاق: مدلس وقد عنعن.

السائب الكلبي يكنى أبا النضر، ثم قال: ولا نعرف لسالم أبي النضر رواية عن أبي صالح مولى أم هانئ.

وقد روى عن ابن عباس شيء من هذا على الاختصار من غير هذا الوجه، حدثنا سفيان بن وكيع، حدثنا يحيى بن آدم عن ابن أبي زائدة، عن محمد بن أبي القاسم، عن عبد الملك بن سعيد بن جبير، عن أبيه، عن ابن عباس قال: خرج رجل من بني سهم مع تميم الداري وعدى بن بدهاء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدما بتركته، فقدوا جامًا من فضة مخوصًا بالذهب، فأحلفهما رسول الله ﷺ، ووجد الجمام بمكة، فقيل: اشتريناه من تميم وعدى، فقام رجلان من أولياء السهمي فحلفا بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما، وأن الجمام لصاحبهم، وفيهم نزلت ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، وكذا رواه أبو داود عن الحسن بن علي عن يحيى بن آدم به، ثم قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، وهو حديث ابن أبي زائدة، ومحمد بن أبي القاسم الكوفي، قيل: إنه صالح الحديث.

وقد ذكر هذه القصة مرسله غير واحد من التابعين منهم عكرمة ومحمد بن سيرين وقتادة، وذكروا أن التحليف كان بعد صلاة العصر، رواه ابن جرير، وكذا ذكرها مرسله مجاهد والحسن والضحاك، وهذا يدل على اشتهاؤها في السلف وصحتها، ومن الشواهد لصحة هذه القصة أيضًا ما رواه أبو جعفر بن جرير: حدثني يعقوب، حدثنا هشيم قال: أخبرنا زكريا عن الشعبي أن رجلاً من المسلمين حضرته الوفاة بدقوقا، قال: فحضرته الوفاة ولم يجد أحدًا من المسلمين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، قال: فقدموا الكوفة، فأتيا الأشعري يعني أبا موسى الأشعري رضى الله عنه، فأخبراه، وقدموا بتركته ووصيته، فقال الأشعري: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان في عهد رسول الله ﷺ، قال: فأحلفهما بعد العصر بالله ما خاننا، ولا كذبا، ولا بدلا، ولا كتما، ولا غيرا، وأنها لوصية الرجل وتركته. قال: فأمضى شهادتهما، ثم رواه عن عمرو بن علي الفلاس، عن أبي داود الطيالسي، عن شعبة، عن مغيرة الأزرق، عن الشعبي أن أبا موسى قضى بدقوقا، وهذان إسنادان صحيحان إلى الشعبي، عن أبي موسى الأشعري، فقله: هذا أمر لم يكن بعد الذي كان على عهد رسول الله ﷺ. الظاهر - والله أعلم - أنه إنما أراد بذلك قصة تميم وعدى بن بدهاء، قد ذكروا أن إسلام تميم بن أوس الداري رضى الله عنه، كان في سنة تسع من الهجرة، فعلى هذا يكون هذا الحكم متأخرًا يحتاج مدعى نسخه إلى دليل فاصل في هذا المقام، والله أعلم.

وقال أسباط عن السدي في الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ قال: هذا في الوصية عند الموت، يوصى ويشهد رجلين من المسلمين على ما له وعليه، قال: هذا في الحضر ﴿أَوْ آخَرَانِ مِّنْ عَدِيْبِكُمْ﴾ في السفر ﴿إِنْ أَنتُمْ صَرَيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرْتُمْ مُصِيبَةَ الْمَوْتِ﴾ هذا الرجل يدرکه الموت في سفره، وليس بحضرته أحد من المسلمين، فيدعو رجلين من اليهود والنصارى والمجوس، فيوصى إليهما ويدفع إليهما ميراثه، فيقبلان به، فإن رضى أهل الميت الوصية وعرفوا تركوا الرجلين، وإن ارتابوا رفعوهما إلى السلطان، فذلك قوله تعالى: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَيْنِ الْأَمْثَلِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنَّ آرْتَبْتُمْ﴾ قال عبد الله بن عباس رضى الله عنه: كأنى أنظر إلى العلجين حتى انتهى بهما إلى أبي موسى الأشعري في داره، ففتح الصحيفة، فأنكر أهل الميت وخونوهما، فأراد أبو

موسى أن يستحلفهما بعد العصر، فقلت له: إنهما لا يباليان صلاة العصر، ولكن استحلفهما بعد صلاتهما في دينهما، فيوقف الرجلان بعد صلاتهما في دينهما فيحلفان بالله لا نشترى به ثمنًا قليلاً ولو كان ذا قرى، ولا نكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين، أن صاحبهم لهذا أوصى، وأن هذه لتركته، فيقول لهما الإمام قبل أن يحلفا: إنكما إن كتتما أو ختما فضحتكما في قومكما، ولم تجز لكما شهادة وعاقبتكما، فإذا قال لهما ذلك «فإن ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها» رواه ابن جرير.

وقال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا هشيم، أخبرنا مغيرة عن إبراهيم وسعيد بن جبير أنهما قالوا في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهْدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ الآية، قالوا: إذا حضر الرجل الوفاة في سفر فليشهد رجلين من المسلمين، فإن لم يجد رجلين من المسلمين فرجلين من أهل الكتاب، فإذا قدما بتركته فإن صدقهما الورثة قبل قولهما، وإن اتهموا حلفا بعد صلاة العصر، بالله ما كتمنا ولا كذبنا ولا خنا ولا غيرنا، وقال على بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير هذه الآية: فإن ارتيب في شهادتهما استحلفا بعد العصر: بالله ما اشترينا بشهادتنا ثمنًا قليلاً، فإن اطلع على أن الكافرين كذبوا في شهادتهما قام رجلان من الأولياء فحلفا: بالله إن شهادة الكافرين باطلة وإننا لم نعتد، فذلك قوله: ﴿فَإِنْ عُرِّعَ عَنْهُمَا اسْتَحْفَافًا إِثْمًا﴾ يقول: إن اطلع على أن الكافرين كذبوا ﴿فَقَاخِرَانِ يُقِيمَانِ مَقَامَهُمَا﴾ يقول: من الأولياء فحلفا بالله إن شهادة الكافرين باطلة، وإننا لم نعتد، فترد شهادة الكافرين وتجاوز شهادة الأولياء، وهكذا روى العوفي عن ابن عباس، رواهما ابن جرير، وهكذا قرر هذا الحكم على مقتضى هذه الآية غير واحد من أئمة التابعين والسلف رضی الله عنهم، وهو مذهب الإمام أحمد رحمه الله. وقوله ﴿ذَلِكَ أَدْفَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا﴾ أى شرعية هذا الحكم على هذا الوجه المرضى من تحليف الشاهدين الذميين، وقد استريب بهما أقرب إلى إقامتهما الشهادة على الوجه المرضى. وقوله ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدُّ بِئِنَّهُمُ بَعْدَ آيَتِهِمْ﴾ أى يكون الحامل لهم على الإتيان بالشهادة على وجهها هو تعظيم الحلف بالله ومراعاة جانبه وإجلاله، والخوف من الفضيحة بين الناس إذا ردت اليمين على الورثة، فيحلفون ويستحقون ما يدعون، ولهذا قال ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدُّ بِئِنَّهُمُ بَعْدَ آيَتِهِمْ﴾، ثم قال ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أى فى جميع أموركم، ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ أى وأطيعوا، ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ أى الخارجين عن طاعته ومتابعة شريعته.

نصف الحزب ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ﴾

هذا إخبار عما يخاطب الله به المرسلين يوم القيامة عما أجابوا به من أمهم الذين أرسلهم إليهم، كما قال تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأمراء: 6]، وقال تعالى: ﴿قَوْلِكَ لَسْتَنْتَهُمْ أَجْمَعِينَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقول الرسل ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، قال مجاهد والحسن البصرى والسدى: إنما قالوا ذلك من هول ذلك اليوم. قال عبد الرزاق، عن الثورى، عن الأعمش، عن مجاهد ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ فيفزعون فيقولون ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾، رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا حكام، حدثنا عنبسة قال: سمعت شيخنا يقول: سمعت

الحسن يقول في قوله ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَكُمْ﴾ الآية، قال: من هول ذلك اليوم.
وقال أسباط عن السدي ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَكُمْ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ذلك أنهم نزلوا منزلاً
ذهلت فيه العقول فلما سئلوا قالوا ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ ثم نزلوا منزلاً آخر، فشهدوا على قومهم، رواه ابن
جرير، ثم قال ابن جرير: حدثنا القاسم، حدثنا الحسين، حدثنا الحجاج عن ابن جريج قوله ﴿يَوْمَ
يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَكُمْ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ أي ماذا عملوا بعدكم وماذا أحدثوا بعدكم؟ قالوا ﴿لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ
أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقَيُْوبُ﴾ وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس ﴿يَوْمَ يَجْعَلُ اللَّهُ أَرْسُلَكُمْ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا
عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقَيُْوبُ﴾ يقولون للرب عز وجل: لا علم لنا إلا علم أنت أعلم به منا، رواه ابن
جرير، ثم اختاره على هذه الأقوال الثلاثة، ولا شك أنه قول حسن، وهو من باب التآدب مع الرب
جل جلاله، أي لا علم لنا بالنسبة إلى علمك المحيط بكل شيء، فنحن وإن كنا قد أجابنا وعرفنا من
أجابتنا، ولكن منهم من كنا إنما نطلع على ظاهره لا علم لنا بباطنه، وأنت العليم بكل شيء، المطلع
على كل شيء، فعلمنا بالنسبة إلى علمك كلا علم، فإنك ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْقَيُْوبُ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ
تُخَلِّقُ مِنَ الطَّيْرِ مَا تَشَاءُ وَيَاذُنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَرِيءُ الْأَكْصَمَ وَالْأَبْرَصَ
بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٧٥﴾ وَإِذْ أَرْحَبْتَ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ يَأْمِنُوا بِي وَيُرْسِلُوا
قَالُوا ءَأَمِنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١٧٦﴾﴾

يذكر تعالى ما امتن به على عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام مما أجراه على يديه من
المعجزات الباهرات وخوارق العادات، فقال ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أي في
خلقى إياك من أم بلا ذكر، وجعلى إياك آية ودلالة قاطعة على كمال قدرتى على الأشياء، ﴿وَعَلَىٰ
وَالِدَتِكَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبه الظالمون الجاهلون إليها من الفاحشة، ﴿إِذْ
أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبريل عليه السلام، وجعلتك نبياً داعياً إلى الله فى صغرك وكبرك،
فانطلقت فى المهد صغيراً، فشهدت ببراءة أمك من كل عيب، واعترفت لى بالعبودية، وأخبرت عن
رسالتى إياك ودعوت إلى عبادتى، ولهذا قال ﴿تُخَلِّقُ مِنَ الطَّيْرِ مَا تَشَاءُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا﴾ أى تدعو الناس
إلى الله فى صغرك وكبرك، وضمن تكلم تدعو، لأن كلامه الناس فى كهولته ليس بأمر عجيب.

وقوله ﴿وَإِذْ عَلَّمتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أى الخط والفهم ﴿وَالتَّوْرَةَ﴾ وهى المنزلة على موسى بن
عمران الكليم، وقد يرد لفظ التوراة فى الحديث، ويراد به ما هو أعم من ذلك. وقوله ﴿وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ
الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أى تصوره وتشكله على هيئة الطائر بإذنى لك فى ذلك، ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ
طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ بإذنى أى تفتخ فى تلك الصورة التى شكلتها بإذنى لك فى ذلك فتكون طيراً ذا روح تطير
بإذن الله وخلقه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرِيءُ الْأَكْصَمَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ قد تقدم الكلام على ذلك فى سورة آل عمران بما

أغنى عن إعادته . وقوله ﴿وَإِذْ تَخْرُجُ الْمَوْتَىٰ بِأَذْيِ﴾ أى تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيتته ، وقد قال ابن أبي حاتم ^(١) : حدثنا أبى ، حدثنا مالك بن إسماعيل ، حدثنا محمد بن طلحة يعنى ابن مصرف ، عن أبى بشر ، عن أبى الهذيل ، قال : كان عيسى ابن مريم عليه السلام إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين ، يقرأ فى الأولى ﴿بَبَرَكَ الَّذِى يَدِوُ الْمُلُكُ﴾ [الملك : ١] ، وفى الثانية ﴿الترتيل﴾ [السجدة : ١-٢] السجدة ، فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ، ثم دعا بسبعة أسماء : يا قديم ، يا خفى ، يا دائم ، يا فرد ، يا وتر ، يا أحد ، يا صمد ، وكان إذا أصابته شدة دعا بسبعة آخر : يا حى ، يا قيوم ، يا الله ، يا رحمن ، يا ذا الجلال والإكرام ، يا نور السموات والأرض وما بينهما ، ورب العرش العظيم ، يا رب . وهذا أثر عجيب جدًا .

وقوله تعالى : ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَئِنَّكَ إِسْرَءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنَّهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أى واذكر نعمتى عليك فى كفى إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم ، فكذبوك واتهموك بأنك ساحر ، وسعوا فى قتلك وصلبك فنجيتك منهم ، ورفعتك إلى ، وطهرتك من دنسهم ، وكفيتك شرهم ، وهذا يدل على أن هذا الامتحان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء الدنيا ، أو يكون هذا الامتحان واقعا يوم القيامة ، وعبر عنه بصيغة الماضى دلالة على وقوعه لا محالة ، وهذا من أسرار الغيوب التى أطلع الله عليها نبيه محمدا ﷺ .

وقوله ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ وهذا أيضا من الامتحان عليه ، عليه السلام ، بأن جعل له أصحابا وأنصارا ، ثم قيل : المراد بهذا الوحى وحى إلهام ، كما قال تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مَرْيَمَ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفِيَ عَلَيْهِ كَلِمَةُ رَبِّهِ فِي الْبَيْتِ وَالَّذِينَ يَرْجُونَ رَبَّهُمْ لَأَسْرِعَنَّ مِنَ الْمُخْلَصِينَ﴾ [القصص : ٧] ، هذا وحى إلهام بلا خلاف ، وكما قال تعالى : ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّفْسِ أَنْ أَعْلِنِي مِنَ لِبْنَانٍ يُنَادٍ مِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِّى التَّنَزَّيَاتِ فَمَا سَلَكَى سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا﴾ [النحل : ٦٨-٦٩] الآية ، وهكذا قال بعض السلف فى هذه الآية ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّآ مُسْلِمُونَ﴾ أى ألهموا ذلك ، فامثلوا ما ألهموا . قال الحسن البصرى : ألهمهم الله عز وجل ذلك . وقال السدى : قذف فى قلوبهم ذلك ، ويحتمل أن يكون المراد وإذ أوحيت إلى الحواريين بواسطتك فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك ، فقالوا ﴿آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّآ مُسْلِمُونَ﴾ .

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٠﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنهَا وَنَطْمِئِنَ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١١١﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنكَ وَارزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٢﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّى أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٣﴾﴾

هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة ، فيقال سورة المائدة ، وهى مما امتن الله به على عبده

(١) ضعيف : ابن أبي حاتم (٤/١٢٤١) ، برقم (٧٠٠٣) ، وإسناده مرسل .

ورسوله عيسى عليه السلام لما أجاب دعاءه بنزولها، فأنزلها الله آية ودلالة معجزة باهرة وحجة قاطعة، وقد ذكر بعض الأئمة أن قصة المائدة ليست مذكورة في الإنجيل، ولا يعرفها النصارى إلا من المسلمين، فالله أعلم، فقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْهَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ هذه قراءة كثيرين، وقرأ آخرون «هل تستطيع ربك» أى هل تستطيع أن تسأل ربك ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ والمائدة هى الخوان عليه طعام، وذكر بعضهم: أنهم إنما سألوا ذلك لحاجتهم وفقيرهم، فسألوا أن ينزل عليهم مائدة كل يوم يقتاتون منها ويتقوون بها على العبادة ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أى فاجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم: اتقوا الله ولا تسألوا هذا فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله فى طلب الرزق إن كنتم مؤمنين، ﴿قَالُوا نُزِّلْ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا﴾ أى نحن محتاجون إلى الأكل منها، ﴿وَنَقْلَمِينَ قُلُوبِنَا﴾ إذا شاهدنا نزولها رزقاً لنا من السماء، ﴿وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ أى ونزداد إيماناً بك وعلماً برسالتك ﴿وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أى ونشهد أنها آية من عند الله، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به. ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ .

قال السدى: أى نتخذ ذلك اليوم الذى نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثورى: يعنى يوماً نصلى فيه. وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. وعن سلمان الفارسى: عظة لنا ولمن بعدنا. وقيل: كافية لأولنا وآخرنا ﴿وَمَا آيَةٌ مِنْكَ﴾ أى دليلاً تنصبه على قدرتك على الأشياء وعللى إجابتك دعوتى، فيصدقونى فيما أبلغه عنك، ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ أى من عندك رزقاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ أى فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وباندها، ﴿يَأْتِيْ أَعْدَابُهُمْ عَذَابٌ لَّا أَعْدَابُهُمْ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أى من عالمى زمانكم، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ أَذْخَلُوا أَمْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، وقوله ﴿إِنَّ الْكٰفِرِينَ فِي الْعَذَابِ الْأَشْمَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقد روى ابن جرير^(١) من طريق عوف الأعرابى عن أبى المغيرة القواس، عن عبد الله بن عمرو قال: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ثلاثة: المنافقون، ومن كفر من أصحاب المائدة، وآل فرعون.

ذكر أخبار رويت عن السلف فى نزول المائدة على الحواريين: قال أبو جعفر بن جرير^(٢): حدثنا القاسم: حدثنا الحسين، حدثنى حجاج عن ليث، عن عقيل، عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى ابن مريم أنه قال لبنى إسرائيل: هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً، ثم تسألوه فيعطيك ما سألتهم، فإن أجر العامل على من عمل له، ففعلوا ثم قالوا: يا معلم الخير، قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له، وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا، ولم تكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً، فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قَالُوا نُزِّلْ أَنْ تَأْكُلَ مِنْهَا وَنَقْلَمِينَ قُلُوبِنَا وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَمَا آيَةٌ مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي

(١). رجاله ثقات عدا أبى المغيرة القواس: مختلف فيه.

(٢). ابن جرير (٧/ ١٣٠)، وفيه ليث بن أبى سليم، اختلط ولم يتميز حديثه فترك.

مَنْزِلَهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنَّ أَعَذِبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ ﴿١١٧﴾ قال: فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم، كذا رواه ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم عن يونس بن عبد الأعلى، عن ابن وهب، عن الليث، عن عقيل، عن ابن شهاب قال: كان ابن عباس يحدث، فذكر نحوه.

وقال ابن أبي حاتم أيضًا: حدثنا سعيد بن عبد الله بن عبد الحكم، حدثنا أبو زرعة وهب الله بن راشد، حدثنا عقيل بن خالد أن ابن شهاب أخبره عن ابن عباس أن عيسى ابن مريم قالوا له: ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، قال: فنزلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أحوات، وسبعة أرغفة، حتى وضعتها بين أيديهم، فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم. وقال ابن أبي حاتم (١): حدثنا أبي، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي، حدثنا سفيان بن حبيب، حدثنا سعيد بن أبي عروبة عن قتادة عن خلاص، عن عمار بن ياسر، عن النبي ﷺ قال: نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم، وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادخروا ورفعوا، فمسخوا قردة وخنازير. وكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن قزعة، ثم رواه ابن جرير عن ابن بشار، عن ابن أبي عدي، عن سعيد، عن قتادة، عن خلاص، عن عمار قال: نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة، فأمروا أن لا يخونوا ولا يخبثوا ولا يدخروا، قال: فخان القوم وخبأوا وادخروا، فمسخهم الله قردة وخنازير.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن المنثي، حدثنا عبد الأعلى، حدثنا داود عن سماك بن حرب، عن رجل من بني عجل، قال: صليت إلى جانب عمار بن ياسر، فلما فرغ قال: هل تدري كيف كان شأن مائدة بنى إسرائيل؟ قال: قلت: لا. قال: إنهم سألوا عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد، قال: فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تخبثوا أو تخونوا أو ترفعوا، فإن فعلتم فإني معذبكم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين. قال: فما مضى يومهم حتى خبثوا ورفعوا وخبثوا، فعذبوا عذابًا لم يعذبه أحد من العالمين. وإنكم يا معشر العرب كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاة، فبعث الله فيكم رسولاً من أنفسكم تعرفون حسبه ونسبه، وأخبركم أنكم ستظهرون على المعجم، ونهاكم أن تكتنزوا الذهب والفضة، وإيم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكتنزوهما ويعذبكم الله عذابًا أليماً. وقال: حدثنا القاسم، حدثنا حسين، حدثني حجاج عن أبي معشر، عن إسحاق بن عبد الله: أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم، عليها سبعة أرغفة، وسبعة أحوات، يأكلون منها ما شاءوا. قال: فسرق بعضهم منها وقال: لعلها لا تنزل غدًا، فرفعت.

وقال العوفي عن ابن عباس: نزل على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك، يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاءوا. وقال خصيف، عن عكرمة ومقسم، عن ابن عباس: كانت المائدة سمكة وأريغفة، وقال مجاهد: هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا. وقال أبو عبد الرحمن السلمي: نزلت المائدة خبزًا وسمكًا. وقال عطية العوفي: المائدة سمك فيه طعم كل شيء. وقال وهب بن

(١) عزاه لابن أبي حاتم، وهذا الحديث من الموقوفات التي لها حكم المرفوع حيث لا مجال فيه للرأي أو الاجتهاد. وليكن معروفًا أن الآثار الواردة في كيفية نزول واجتماع الناس عليها من طريق وهب بن منبه إنما هي من الإسرائيليات.

منبه: أنزلها الله من السماء على بنى إسرائيل، فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة، فأكلوا ما شاءوا من ضروب شتى، فكان يقعد عليها أربعة آلاف، فإذا أكلوا أبدل الله مكان ذلك لمثلهم، فلبثوا على ذلك ما شاء الله عز وجل. وقال وهب بن منبه: نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات، وحشا الله بين أضعافهن البركة، فكان قوم يأكلون ثم يخرجون، ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون، حتى أكل جميعهم وأفضلوا.

وقال الأعمش، عن مسلم، عن سعيد بن جبير: أنزل عليها كل شيء إلا اللحم. وقال سفيان الثوري، عن عطاء بن السائب عن زاذان وميسرة وجريز، عن عطاء، عن ميسرة، قال: كانت المائدة إذا وضعت لبنى إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام إلا اللحم. وعن عكرمة: كان خبز المائدة من الأرز، رواه ابن أبي حاتم.

وقال ابن أبي حاتم: أخبرنا جعفر بن علي فيما كتب إلى، حدثنا إسماعيل بن أبي أويس، حدثني أبو عبد الله عبد القدوس بن إبراهيم بن أبي عبيد الله بن مرداس العبدي مولى بنى عبد الدار، عن إبراهيم بن عمر، عن وهب بن منبه، عن أبي عثمان النهدي، عن سلمان الخير، أنه قال: لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة، كره ذلك جداً، وقال: اقتنعوا بما رزقكم الله في الأرض، ولا تسألوا المائدة من السماء، فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها، فأبوا إلا أن يأتيهم بها، فلذلك ﴿قَالُوا رَبُّنَا لَأَنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾، فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها، قام فألقى عنه الصوف، ولبس الشعر الأسود، وجبة من شعر، وعهارة من شعر، ثم توضأ واغتسل، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله، فلما قضى صلاته، قام قائماً مستقبل القبلة، وصف قدميه حتى استويا، فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره، وغض بصره، وطأ رأسه خشوعاً، ثم أرسل عينيه بالبكاء، فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه، فلما رأى ذلك دعا الله فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غمامتين: غمامة فوقها، وغمامة تحتها، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوى إليهم، وعيسى يبكي خوفاً للشروط التي اتخذها الله عليهم فيها، أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً لم يعذب أحدًا من العالمين، وهو يدعو الله في مكانه ويقول: اللهم اجعلها رحمة إلهي لا تجعلها عذاباً، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيني، إلهي اجعلنا لك شاكرين، اللهم إني أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضباً وجزاء، إلهي اجعلها سلامة وعافية، ولا تجعلها فتنة ومثلة. فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى والحواريين وأصحابه حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط، وخر عيسى والحواريون لله سجداً شكراً له لما رزقهم من حيث لم يحتسبوا، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة، وأقبلت اليهود ينظرون، فرأوا أمراً عجباً أوردتهم كمدًا وغماً، ثم انصرفوا بغيط شديد، وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة، فإذا عليها منديل مغطى فقال عيسى: من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة،

وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه . فليكشف عن هذه الآية حتى نراها، ونحمد ربنا، ونذكر باسمه، ونأكل من رزقه الذى رزقنا؟ فقال الحواريون: يا روح الله وكلمته، أنت أولانا بذلك، وأحقنا بالكشف عنها، فقام عيسى عليه السلام واستأنف وضوءاً جديداً، ثم دخل مصلاه، فصلى كذلك ركعات، ثم بكى بكاء طويلاً، ودعا الله أن يأذن له فى الكشف عنها، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً، ثم انصرف فجلس إلى السفرة وتناول المنديل، وقال: بسم الله خير الرازقين، وكشف عن السفرة، فإذا هو عليها بسمكة ضخمة مشوية، ليس عليها بواسير، وليس فى جوفها شوك، يسيل السمن منها سيلاً، قد نُضدَّ بها بقول من كل صنف غير الكراث، وعند رأسها خل، وعند ذنبها ملح، وحول البقول خمسة أرغفة، على واحد منها زيتون، وعلى الآخر ثمرات، وعلى الآخر خمس رمانات، فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى: يا روح الله وكلمته، أمن طعام الدنيا هذا، أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى: أما أن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقيير المسائل؟ ما أخوفنى عليكم أن تعاقبوا فى سبب نزول هذه الآية؟ فقال شمعون: لا وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالاً يا ابن الصديقة، فقال عيسى عليه السلام: ليس شئ مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة، إنما هو شئ ابتدعه الله فى الهواء بالقدرة العالية القاهرة، فقال له: كن فكان أسرع من طرفة عين، فكلوا مما سألتكم باسم الله واحمدوا عليه ربكم، يمدكم منه ويزدكم، فإنه بديع قادر شاکر، فقالوا: يا روح الله وكلمته، إنا نحب أن ترينا آية فى هذه الآية، فقال عيسى: سبحان الله أما اكتفيتم بما رأيتم فى هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى؟ ثم أقبل عيسى عليه السلام على السمكة، فقال: يا سمكة عودى بإذن الله حية كما كنت، فأحياها الله بقدرته، فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية، تلمظ كما يتلمظ الأسد، تدور عيناها، لها بصيص، وعادت عليها بواسيرها، ففزع القوم منها وانحازوا، فلما رأى عيسى منهم ذلك قال: ما لكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها؟ ما أخوفنى عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون، يا سمكة عودى بإذن الله كما كنت، فعادت بإذن الله مشوية كما كانت فى خلقها الأول، فقالوا: يا عيسى كن أنت يا روح الله الذى تبدأ بالأكل منها ثم نحن بعد، فقال عيسى: معاذ الله من ذلك، يبدأ بالأكل من طلبها، فلما رأى الحواريون وأصحابهم امتناع عيسى منها، خافوا أن يكون نزولها سخطة وفى أكلها مثلة، فتحاموها، فلما رأى ذلك عيسى منهم دعا لها الفقراء والزمنى وقال: كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم، واحمدوا الله الذى أنزلها لكم فيكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم، وافتتحوا أكلكم باسم الله واختموه بحمد الله، ففعلوا فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة، يصدرون عنها كل واحد منهم شعبان يتجشأ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيبته إذ أنزلت من السماء لم ينقص منها شئ، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون، فاستغنى كل فقير أكل منها، وبرئ كل زمن أكل منها، فلم يزالوا أغنياء أصحاباء حتى خرجوا من الدنيا، وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سالت منها أشفارهم، وبقيت حسرتها فى قلوبهم إلى يوم الممات، قال: وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها يسعون من كل مكان يزاحم بعضهم بعضاً، الأغنياء والفقراء، والصغار والكبار، والأصحاب والمرضى، يركب بعضهم بعضاً، فلما رأى ذلك جعلها نواب، تنزل يوماً ولا

تنزل يوماً، فلبثوا على ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم غباً عند ارتفاع الضحى، فلا تزال موضوعة يؤكل منها حتى إذا قالوا، ارتفعت عنهم إلى جو السماء بإذن الله، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى تتوارى عنهم. قال: فأوحى الله إلى نبيه عيسى عليه السلام: أن اجعل رزقي المائدة للفقراء واليتامى والزمنى، دون الأغنياء من الناس، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس، وغمطوا ذلك حتى شكوا فيها في أنفسهم، وشككوا فيها الناس، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر، وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه في قلوب المرتابين حتى قالوا لعيسى: أخبرنا عن المائدة ونزولها من السماء أحق، فإنه قد ارتاب بها منا بشر كثير؟.

فقال عيسى عليه السلام: هلكنم وإله المسيح، طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم، فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقاً، وأراكم فيها الآيات والعبر، كذبتم بها، وشككتم فيها، فأبشروا بالعذاب فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله، فأوحى الله إلى عيسى: إني آخذ المكذبين بشرطى فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين. قال: فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين، فلما كان في آخر الليل، مسحهم الله خنازير، فأصبحوا يتبعون الأقدار في الكناسات، هذا أثر غريب جداً، قطعه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة، وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم وأكمل، والله سبحانه وتعالى أعلم. وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بنى إسرائيل أيام عيسى ابن مريم، إجابة من الله لدعوته، وكما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَنْكُرُ فَإِنَّ أَعْدَابَهُ عَذَابًا لَا أَعْدَابُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال قائلون: إنها لم تنزل، فروى ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله: ﴿أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال: هو مثل ضرب ولم ينزل شيء، رواه ابن أبي حاتم وابن جرير، ثم قال ابن جرير: حدثنا الحارث، حدثنا القاسم هو ابن سلام، حدثنا حجاج عن ابن جريج، عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم، وقال أيضاً: حدثنا ابن المشي، حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن أنه قال في المائدة: إنها لم تنزل، وحدثنا بشر، حدثنا يزيد، حدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول لما قيل لهم ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَنْكُرُ فَإِنَّ أَعْدَابَهُ عَذَابًا لَا أَعْدَابُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قالوا: لا حاجة لنا فيها فلم تنزل، وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى، وليس هو في كتابهم، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما توفر الدواعي على نقله، وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً، ولا أقل من الأحاد، والله أعلم، ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت، وهو الذي اختاره ابن جرير، قال: لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى ﴿إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ يَنْكُرُ فَإِنَّ أَعْدَابَهُ عَذَابًا لَا أَعْدَابُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال: ووعد الله ووعدته حق وصدق، وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم.

وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بنى أمية في فتوح بلاد المغرب، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق،

فمات وهى فى الطريق، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده، فرآها الناس فتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة، ويقال: إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام، فالله أعلم.

وقد قال الإمام أحمد^(١): حدثنا عبد الرحمن، حدثنا سفيان عن سلمة بن كهيل عن عمران بن الحكم، عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك. قال «وتفعلون؟» قالوا نعم. قال فدعا، فأتاه جبريل فقال: إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك: إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبه عذاباً لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال «بل باب التوبة والرحمة» ثم رواه أحمد وابن مردويه، والحاكم فى مستدركه^(٢) من حديث سفيان الثورى به.

﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَهُ الْغُيُوبَ ﴿١٧١﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧٢﴾ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُهُمْ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧٣﴾﴾

هذا أيضًا مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلًا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رهوس الأشهاد، هكذا قال قتادة وغيره، واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾.

وقال السدى: هذا الخطاب والجواب فى الدنيا، قال ابن جرير: هذا هو الصواب، وكان ذلك حين رفعه الله إلى سماء الدنيا واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين: (أحدهما) أن الكلام بلفظ الماضى، (والثانى) قوله: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ و ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وهذان الدليلان فيهما نظر، لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضى ليدل على الوقوع والثبوت. ومعنى قوله ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُهُمْ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾، التبرى منهم، ورد المشيئة فيهم إلى الله، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضى وقوعه كما فى نظائر ذلك من الآيات، والذى قاله قتادة وغيره هو الأظهر، والله أعلم، أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رهوس الأشهاد يوم القيامة. وقد روى بذلك حديث مرفوع، رواه الحافظ ابن عساكر^(٣) فى ترجمة أبى عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز، وكان ثقة، قال: سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبى موسى

(١) صحيح: المسند (٢١٦٧)، انظر السلسلة الصحيحة (٣٣٨٨).

(٢) صحيح: أحمد (٢١٦٧)، وعزاه لابن مردويه، وأخرجه الحاكم (٣٤٤/٢)، برقم (٣٢٢٥)، انظر صحيح الترغيب (٣١٤٢).

(٣) ضعيف: ابن أبى حاتم (١٢٣٦/٤)، وفيه مولى لعمر مجهول، والوليد بن مسلم: مدلس تدليس تسوية، وروح بن جناح: ضعيف المصنف.

الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «إذا كان يوم القيامة، دعى بالأنبياء وأمهم، ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقرّ بها، فيقول ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكَرَ فَمَتَى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ لِذَاتِكَ﴾ الآية، ثم يقول ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ لِلنَّهْيَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون: نعم هو أمرنا بذلك. قال: فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة، ويرفع لهم الصليب، وينطلق بهم إلى النار» وهذا حديث غريب عزيز. وقوله ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ﴾ هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل، كما قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبي، حدثنا ابن أبي عمر، حدثنا سفيان عن عمرو، عن طاوس، عن أبي هريرة قال: يُلقَى عيسى حجته، ولقاه الله تعالى في قوله ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ لِلنَّهْيَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة، عن النبي ﷺ: فلقيه الله ﴿سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّكَ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ إلى آخر الآية، وقد رواه الثوري عن معمر، عن ابن طاوس، عن طاوس بنحوه.

وقوله ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ أي إن كان صدر مني هذا فقد علمته يا رب، فإنه لا يخفى عليك شيء، مما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته، ولهذا قال ﴿تَسَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبَ مَا قُلْتَ لَمْ يَلْمَأْ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ بإبلاغه ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي هذا هو الذي قلت لهم ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قال أبو داود الطيالسي^(١): حدثنا شعبة قال: انطلقت أنا وسفيان الثوري إلى المغيرة بن النعمان، فأملاه على سفيان وأنا معه، فلما قام انتسخت من سفيان فحدثنا قال: سمعت سعيد بن جبيرة يحدث عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة، عراة، غرلاً» ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ حَلْقِي تَوْبِيحًا﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال، فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُهُمْ وَإِنْ تَبَرَّأْتَهُمْ فَلَهَا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [البخاري^(٢)]

عند هذه الآية عن أبي الوليد، عن شعبة، وعن محمد بن كثير، عن سفيان الثوري، كلاهما عن المغيرة بن النعمان به. وقوله ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُهُمْ وَإِنْ تَبَرَّأْتَهُمْ فَلَهَا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل، فإنه الفعال لما يشاء، الذي لا يسأل عما يفعل، وهم يسألون، ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله، وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيم، ونياً عجيب، وقد ورد في الحديث: أن

(١) صحيح: الطيالسي (١/٣٤٣)، برقم (٢٦٣٨)، انظر صحيح الجامع (٧٨٧٠).

(٢) البخاري برقم (٤٦٢٥).

النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها .

قال الإمام أحمد^(١) : حدثنا محمد بن فضيل ، حدثني فليت العامري ، عن جسة العامرية ، عن أبي ذر رضى الله عنه ، قال : صلى النبي ﷺ ذات ليلة ، فقرأ بأية حتى أصبح ، يركع بها ويسجد بها ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُهُمْ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ﴾ فلما أصبح ، قلت : يا رسول الله ما زلت تقرأ هذه الآية ، حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها؟ قال : «إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي فأعطينيها ، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئاً» .

(طريق أخرى وسياق آخر) : قال الإمام أحمد^(٢) : حدثنا يحيى ، حدثنا قدامة بن عبد الله ، حدثني جسة بنت دجاجة : أنها انطلقت معتمرة ، فانتهدت إلى الريدة ، فسمعت أبا ذر يقول : قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي فى صلاة العشاء ، فصلى بالقوم ، ثم تخلف أصحاب له يصلون ، فلما رأى قيامهم وتخلفهم ، انصرف إلى رحله ، فلما رأى القوم قد أدخلوا المكان ، رجع إلى مكانه فصلى ، فجثت فقممت خلفه ، فأوماً إلى يمينه ، فقممت عن يمينه ، ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه ، فأوماً إليه بشماله فقام عن شماله ، فقممتا ثلاثتنا . يصلى كل واحد منا بنفسه ، ويتلو من القرآن ما شاء الله أن يتلو ، وقام بأية من القرآن يرددها حتى صلى الغداة ، فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود ، أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة ، فقال ابن مسعود بيده : لا أسأله عن شيء ، حتى يحدث إلى ، فقلت : بأبي وأمي ، قمت بأية من القرآن ومعك القرآن ، لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه ، قال «دعوت لأمتي» ، قلت : فماذا أجبت أو ماذا رد عليك؟ قال «أجبت بالذى لو اطلع عليه كثير منهم طلعة تركوا الصلاة» قلت : أفلا أبشر الناس؟ قال «بلى» فانطلقت معنقاً ، قريباً من قذفة بحجر ، فقال عمر : يا رسول الله إنك إن تبعث إلى الناس بهذا نكلوا عن العبادات ، فناداه أن «ارجع» فرجع ، وتلك الآية ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُهُمْ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ﴾ . وقال ابن أبي حاتم^(٣) : حدثنا يونس بن عبد الأعلى ، حدثنا ابن وهب ، أخبرني عمرو بن الحارث ، أن بكر بن سوادة حدثه ، عن عبد الرحمن بن جبير ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، أن النبي ﷺ تلا قول عيسى ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُهُمْ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْكَرِيمُ﴾ فرفع يديه ، فقال «اللهم أمتي» وبكى ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فاسأله ما يبكيه ، فأتاه جبريل فسأله ، فأخبره رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك فى أمتك ولا نسوؤك .

وقال الإمام أحمد^(٤) : حدثنا حسن قال : حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا ابن هبيرة ، أنه سمع أبا تميم الجيشانى يقول : حدثني سعيد بن المسيب ، سمعت حذيفة بن اليمان يقول : غاب عنا رسول الله ﷺ يوماً ، فلم يخرج حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نفسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال «إن ربي عز وجل استشارني فى أمتي ماذا أفعل بهم؟ فقلت : ما شئت أى رب ، هم

(١) المسند (٢٠٨٢١) ، وفيه جسة العامرية : قال البخاري : عندها عجائب وثقها ابن حبان والذهبي .

(٢) المسند (٢٠٩٨٤) ، وفيه جسة العامرية السابق ذكرها فى الحديث السابق .

(٣) ابن أبي حاتم (١٢٥٤/٤) ، وله أصل فى الصحيح ، انظر صحيح مسلم (٢٠٢) .

(٤) المسند (٢٢٨٢٥) ، وفي إسناد ابن لهيعة : اختلط بأخوه .

خلقتك وعبادك، فاستشارني الثانية فقلت له كذلك، فقال لي: لا أخزيك في أمتك يا محمد، وبشرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفاً، مع كل ألف سبعون ألفاً ليس عليهم حساب. ثم أرسل إلي فقال: ادع تجب وسل تعط، فقلت لرسوله: أو معطى ربي سؤلي؟ فقال: ما أرسلني إليك إلا ليعطيك، ولقد أعطاني ربي ولا فخر، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأنا أمشي حياً صحيحاً، وأعطاني أن لا تجوع أمتي ولا تغلب، وأعطاني الكوثر، وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي، وأعطاني العز والنصر والرعب يسمى بين يدي أمتي شهراً، وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة، وطيب لي ولأمتي الغنيمة، وأحل لنا كثيراً مما شدد على من قبلنا، ولم يجعل علينا في الدين من حرج.

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٦﴾ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾

يقول تعالى مجيباً لعبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام، فيما أنهاه إليه من التبري من النصراني الملحدين الكاذبين على الله وعلى رسوله، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه عز وجل، فعند ذلك يقول تعالى: ﴿هَذَا يَوْمَ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قال الضحاك: عن ابن عباس يقول: يوم ينفع الموحدين توحيدهم، ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي ماكثين فيها لا يحولون ولا يزولون، رضى الله عنهم ورضوا عنه كما قال تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِمَّنْ أَوْوَّكَرْنَا﴾ [التوبة: ٧٢] وسيأتي ما يتعلق بتلك الآية من الحديث، وقد روى ابن أبي حاتم^(١) ما هنا حديثاً عن أنس فقال: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا المحاربي عن ليث عن عثمان، يعني ابن عمير، أبا اليقظان عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ «ثم يتجلى لهم الرب جل جلاله، فيقول: سلوني سلوني أعطكم - قال - فيسالونه الرضا فيقول رضى أحلكم داري، وأنا لكم كرامتي فسلوني أعطكم، فيسالونه الرضا - قال - فيشهدهم أنه قد رضى عنهم سبحانه وتعالى». وقوله ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي هذا الفوز الكبير الذي لا أعظم منه، كما قال تعالى: ﴿لِيُنْزِلَ هَذَا فَيَلْعَبَ الْعَالَمُونَ﴾ [الصافات: ٦١] وكما قال ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ الْمُتَنَفِّسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

وقوله ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٦﴾﴾ أي هو الخالق للأشياء، المالك لها، المتصرف فيها، القادر عليها، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته، وفي مشيئته، فلا نظير له، ولا وزير، ولا عدل، ولا والد، ولا ولد، ولا صاحبة، ولا إله غيره، ولا رب سواه، قال ابن وهب: سمعت جيب بن عبد الله يحدث عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو قال: آخر سورة أنزلت سورة المائدة^(٢).

(١) ضعيف: ابن أبي حاتم (١٢٥٦/٤)، وفيه ليث بن أبي سليم: لم تميز أحاديثه فترك، وأبو اليقظان قال الحافظ: ضعيف واختلط، وكان مدلس ويغلو في التشيع.
(٢) سبق تحريجه.